فضائل النبي صلى الله عليه وسلم ومعرفة قدره

رمضان أحمد عبد ربه عصفور
من علماء الأزهر الشريف

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

أميرة للطباعة

٥ شارع محمود الخضرى - عابدين

ت: ٣٩١٥٨١٧ محمول: ٠١٠١٤٥٦٠٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

قال الله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ [الاحزاب : ٤٠] .

سيدى يا رسول الله :

ليس هذا الكتاب تأريخا لحياتك الطيبة المباركة، إنه قبس من أنوار التجليات الإلهية لآيات قرآنية فى الصفات والخصائص المحمدية المصطفوية ينشرح بها الصدر ،ويطمئن بها القلب، وتزكو بها النفس، أرفعه إليكم. لعلى أحظى بالقبول والرضا.

صلى الله عليك وآلك وصحبك وسلم

رمضان عصفور

تمهيـــــد

سيدنا محمد رسول الله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا * وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾

[الأحزاب: ٤٥ – ٤٨]

إن رسول الله ﷺ هو البحر الزاخر بالدرر واللآلئ والأصداف ويموج بالأنوار المحمدية القدسية. وهو المحلى بلباس التجليات الإلهية والمنح الربانية. والمسجى بِبُرْد الحقيقة النورانية الاصطفائية.

والمزمل بغطاء وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين. والمحفوظ بقوة والله يعصمك من الناس. توجه حيث شئت فإنك منصور.

إن رسول الله ﷺ هو نور الانوار وسر الأسرار وإمام الاخيار. سيد ولد آدم وحجة الله على العالمين. صاحب المقام المحمود الذى أخذ الله له العهد والميثاق على سائر الأنبياء والمرسلين لتؤمنن به ولتنصرنه. وهو آخرهم بعثا والمقدم عليهم فضلا وحشرا ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ قدمه عليهم ذكرا وإنعاما ووحيا. وأشهده عليهم ولهم يوما يكون أشد بأسا ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا ﴾ لقد كانت بدايته يتما وحرمانا لم ير أباه وودع أمه إلى مثواها الأخير حزنا وبأسا وما كان يدرى انه فى مقام ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ أرسله ربه عز وجل شاهدا لنفسه ومبشرا للطائعين ونذيرا للكافرين المتمردين على ربهم وخالقهم. اصطفاه من خيرة خلقه قال ﷺ: (إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى من كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم

واصطفانى من بنى هاشم) وفى رواية بزيادة : (فأنا خيار من خيار من خيار) تنكر له أهل مكة فقال لنا ربنا عز وجل : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

سيدى يا رسول الله لا أدرى ماذا أقول ولمن أقول؟

يعجز الباحثون والعلماء ويحتارون من أين يأتوك ومن أى باب يدخلون عليك . وبأى كلام به يخاطبونك . وماذا يقولون لك؟

إن حياتك متعددة الجوانب وشخصيتك مرهوبة الجانب . والحياء يمنع من الغوص فى بحار نبوتك والكشف عن أسرار ماهيتك ومعرفة حقيقتك فلتاذن لى سيدى بأن أقف على شطآن بحر أنوارك لأجمع منه بعض لآلئه وأصدافه لنتزود منها . فما أحوجنا إلى الزاد وزاد التقوى ذلك خير لنوارى سوآت معارفنا ونزداد علما ويقينا وإيمانا . فأنت سر الوجود والداعى إلى عبادة الرب المعبود . وأنت دليلنا الدال على الطريق القويم والصراط المستقيم .

قال الله تعالى فى حق نبينا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ فكما أمرنا بالإيمان به تعالى وتعزيزه وتوقيره . أثنى على الذين آمنوا به ﷺ وعزروه ونصروه فقرن تعظيمه وتوقيره والإيمان به ﷺ بالإيمان به عز وجل وأثنى على الذين آمنوا بالنبى ﷺ وعزروه ووقروه أنهم هم المفلحون . جعلنا الله منهم ومن تعظيمه لنبينا محمد ﷺ أنه نهى الذين يدعونه باسمه يا محمد . ولم ينادوه بالتعظيم كقول : يا رسول الله . يا نبى الله .

قال الله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ وذم الذين ينادونه استعجالا له على الخروج إليهم ولم يتأدبوا بالوقوف على بابه حتى يخرج عند إرادته ، وأغلظ عليهم القول بأنهم لا يعقلون . فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

يُنَادُونَكَ من وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

فقد شنع الله عليهم إلى أن قال أنهم لا يعقلون قبل أن يتقدم بذلك نهى . وما ذلك إلا لتعظيم الله له وغيرته عليه .

ومن تعظيم الله لنبيه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وإرشاده الأمة بتعظيمه والأدب عند قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ فجعل إساءة الأدب برفع الصوت بحضرته كالردة تحبط الاعمال ثم أثنى على الذين يتأدبون بحضرته ويخفضون أصواتهم فقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فانظر كيف أرشدهم الله عز وجل إلى عدم رفع الصوت بحضرة النبى ﷺ لينالوا بتعظيمه والأدب عنده علو الدرجات . والقرب منه تعالى ولئلا تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون والله تعالى إنما يريد لهم الخير ثم أثنى على من تأدب عنده ﷺ بانهم أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى التى هى أحب المحامد وافضل ما يقرب العبد إلى الله ثم لم يكتف بذلك حتى بشرهم بالمغفرة ثم لم يكتف بذلك حتى وعدهم بالأجر العظيم . فهذه هى البشارة العظمى . وهذا هو الفضل الأسمى لمن عظمه ﷺ وتأدب معه فى حياته وبعد مماته . لتحقق حياة الأنبياء فى قبورهم وأنهم يصلون فيها . وتجرى لهم أعمال البر كحياتهم .

وقد كانت الصحابة رضى الله عنهم لا يحدون النظر إليه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تعظيما له . وإذا تكلموا عنده خفضوا أصواتهم إجلالا له وتأدبا معه . قد أدبهم الله تعالى . وكيف لا يعظم حبيب الله وخليفته فى أرضه؟ وهو الحبيب المحبوب وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ إذ جعل مبايعته صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عين مبايعته الله . ويد

رسول الله ﷺ يده جل جلاله. كان يضع رسول الله ﷺ لذلك يده الشريفة فوق يد من بايعه. سبحانك اللهم جعلته غيبا من غيبك وسرا من أسرار ربوبيتك حتى صار بذلك مظهرا نستدل به عليك. فكيف لا يكون كذلك. وقد أخبرتنا بذلك في محكم كتابك بقولك ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ﴾ فقد زال عنا بذلك الريب وحصل الانتباه بالحمد لله رب العالمين. قاله السيد الغرياني رحمه الله تعالى [1].

وقد أخطأ كثير من الناس عندما ظنوا أن بشرية الأنبياء والمرسلين كبشريتنا أو هم مثلنا في بشريتنا. ولو تأملوا وتدبروا قول الله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** ﴾ هذا ما قالته لهم رسلهم صلوات الله وسلامه عليهم فظن بعض الناس أن الأنبياء والرسل يتماثلون مع أتباعهم في البشرية لكن لو تدبروا معنى هاتين الآيتين لعلموا أن بشرية الرسل لا تماثل بشريتنا لما أحاطهم الله تعالى به من الفضل والنبوة والرسالة فالفرق بيننا وبينهم كبير والبون شاسع. قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا** ﴾ فهذا الوحي قد ميز النبي ﷺ عن سائر البشر وهذا الروح الذي من أمره تعالى لهو المنقبة والفضيلة التي يستحيل على غير الرسل أن يحصلها. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. يقول البوصيري رحمه الله تعالى:

ومبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

أي مبلغ علمنا نحن البشر أن رسول الله بشر مثلنا ولكن ﴿ **يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾. وضعت فاصلا كبيرا بين بشرية الرسل وبشرية سائر الناس.

وقوله تعالى: ﴿ **بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** ﴾ أي في الشكل لا في المعنى الحقيقي.

لقد أرسل الله نبيه ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره

---

(١) نفس الرحمن: ٥٦ – ٥٨.

المشركون. وأيده بالمعجزات الباهرة. كالإسراء والمعراج وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة وتكثير الطعام وشكوى الجمل والظبى والعصفور. ونطق الحجر والشجر وغيرها معجزات كثيرة وأعظم هذه المعجزات: المعجزة الكبرى والمنحة العظمى: القرآن الكريم تحدى الله به العرب فى لغته وفصاحته وبلاغته وبيانه. وتحدى الله به غير العرب في شرائعه وأحكامه. فهو المعجزة الباقية إلى أن يشاء الله رب العالمين ولقد رحمنا الله عز وجل به فأخرجنا برسالة ربه عز وجل من ظلمة الجهل والجهالة والجاهلية إلى نور الإيمان والعلم والمعرفة ﴿**ما فرطنا فى الكتاب من شئ**﴾ إن رسول الله ﷺ هو عروس الوجود وهو بدر التمام وهو السراج المنير. وهو بالمؤمنين رءوف رحيم. من أطاعه فاز وسعد وسما وقرب. ومن عصاه فقد خاب وخسر وذلك هو الخسران المبين.

أخى المسلم: إن هذا الكتاب الذى بين يديك هو رشفه من بحر أنواره ﷺ ودرة صغيرة من درره وأصدافه وقبس من بحر علمه الذى لا ساحل له. وهذا الكتاب كنقطة فى فلاة أو فى فضاء فسيح وومضة من بريق أنوار المصطفى ﷺ وزهرة صغيرة من أزهار بستانه وثمرة طيبة من ثمار حقوله وغيطانه ﷺ.

ولقد سميته: «فضائل النبى ﷺ ومعرفة قدره» راجيا العلى الكبير أن ينفع به كل من قرأه وتلاه وتدبره وفهم معناه فإن أكن قد وفقت فهو من الله تعالى الذى شملنا بفضله وجوده وكرمه وإن يكن غير ذلك فهو تقصير منى وأرجو الله أن يعفو عنى إنه سميع مجيب.

القاهرة فى أول رجب سنة ١٤٢١ هـ
الموافق ٢٩ / ٩ / ٢٠٠٠م

المؤلــــف
رمضان أحمد عبد ربه عصفور
إمام وخطيب ومدرس أول بمسجد
سيدى محمد شغراب بحدائق القبة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــــديم

للأستاذ/ محمد محمود هاشم

نستفتح ونستهدى ونعتصم بمن ليس كمثله شئ وهو السميع البصير سبحانه جل جلاله وتعالى شأنه وكماله وتقدست ذاته وأسماؤه وصفاته وعز سلطانه وجاره. وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد مصطفى المصطفين والقائم بأمرك بين العالمين رحمة وعلما ونورا وهداية وبشيرا ونذيرا.

اللهم ارزقنا ما أحييتنا أدبا فى حق جناب حضرتك العلية وذلاً لك وغنى بك عن خلقك وعلما يعرفنا بجنابك العظيم الأعظم الكريم الأكرم يوقفنا بباب الأدب والطاعة ويعرفنا حق قدرك يا من لا تدركه الأبصار والبصائر إلا بنور من قبس أسمائه الحسنى وفيوضاته العظمى راكعين ساجدين متبتلين إنه لا يهدى لخير الأمور إلا أنت.

وكما تكرمت يا مولانا على سادتنا المرسلين فأخذت عليهم عهدك الكريم: **﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾** فتكرم علينا كما دعوتنا أزلا بطاعتك وطاعة رسولك وعرفنا حق قدره ومقداره ولا تجعل للشيطان ولا لهوى نفوسنا ما يبعدنا عن نورك ونوره صلى الله وسلم وبارك عليه فى الأولين والآخرين.

يقول ربنا فى كتابه العزيز عز من قائل **﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا**

﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ صدق الله العظيم ويقول عز من قائل وقوله الحق ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ صدق الله العظيم. وقد قذفت الكلمة الكريمة الجامعة ﴿ يُزَكِّيكُمْ ﴾ نورا فى قلوب المؤمنين لتنقلهم فضلا من الله ونعمة من ﴿ دَسَّاهَا ﴾ إلى ﴿ زَكَّاهَا ﴾ على يد منته على خلقه والذى لا يعرف حقيقة قدره ومقداره ﷺ إلا ربه ومولاه وأرجو أن يعصمنى الله من الزلل فيما يرد فى الجدول القائم على ما أكرمنا به على يده ﷺ من الانتقال من ﴿ دَسَّاهَا ﴾ إلى ﴿ زَكَّاهَا ﴾ وما أصبت فيه فمن رحمة ربى وما أخطأت فيه فمن نفسى ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾.

* * *

م	اسم الله الحسن الأحسن	« دساهـــا »	« ذكاهـــا »
١	الله	كفر وأشرك	هدى إلى « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وكفى بها نعمة
٢	الرحمن	قسا قلبه واظلم وغلظ	رجا الرحمة من مولاه
٣	الرحيم	فقد الخشية وأمن مكر الله	استغرق في رحمة مولاه يوم لا راحم إلا هو
٤	الملك	العبد لا سلطان ولا قدر له	وثق بالله فآتاه ملكا وخصه في دينه ودنياه بفضله
٥	القدوس	كثير الخطأ والزلل والنجس	المطهر بفضل الله
٦	السلام	المعتدى	أسلم لله فسلم من الآفات
٧	المؤمن	الغير مصدق فقد الإيمان والأمان	وحد الله وآمن به فأمن
٨	المهيمن	المربوب علي الباطل	القائم بأمر الله
٩	العزيز	المهيمن المغلوب المحتاج	العزيز بالله فكثر نفعه كلما ذل إلي الله العزيز
١٠	الجبار	الكسير العاتي	المجبور من الله المحبوب عنده
١١	المتكبر	الوضيع المتعاظم المتعالي	المتواضع لله فرفعه الموطأ كنفه فأحبه
١٢	الخالق	المخلوق	المستخلف الصانع بأمر الله
١٣	البارئ	المبروء غير الخالص	الصاعد من العدم الظاهر برحمة الله
١٤	المصور	صور في الأرحام دون فضل منه	المنسجم مع خواص خلقه الربانيه التي كرمه الله بها
١٥	الغفار	المذنب الآثم	المستغفر وكفي بها نعمه
١٦	القهار	المقهور من نفسه ومن الشيطان ومن الهوى	قهر نفسه لله فأمن قهر الله فنجاه
١٧	الوهاب	المحتاج الممتن بغير حياء	الوهوب دون مَن، الكثير الحياء من الله

م	اسم الله الحسن الأحسن	« دساهـــا »	« ذكاهـــا »
١٨	الرزاق	محتاج الرزق منعدم الحيله محروم من المعارف	واسطة بين الله وعباده في رزق الروح والجسد
١٩	الفتاح	ضعيف الحيله مرتبك	المنصور المفتوح عليه من الله
٢٠	العليم	الجاهل الجهول	عُلّم بالتقدى
٢١	القابض	ضيق القلب مستوحش من الجهلة والغفلة	المكاشف المفرّج عنه
٢٢	الباسط	المهموم المغموم	المسرور الفرح المؤمن بالرجاء والعفو
٢٣	الخافض	المخذول المهين الخفيض	خفض نفسه وابليس لله فانعم الله عليه بالرفعه
٢٤	الرافع	المستضعف الخاضع لضعف نفسه	المنصور المقرب من الله
٢٥	المعز	المغلوب	غالب مقرب بامر الله
٢٦	المذل	الذليل المنقاد	العزيز بالله
٢٧	السميع	في اذنه وقر وعلي قلبه عمي	ألقي السمع وهو مقبول
٢٨	البصير	محدود البصر والبصيره	معتبر ذو بصر وبصيره ينظر بنور الله
٢٩	الحكم	ضعيف الحكم محكوم عليه	راجح القلب سليم النفس
٣٠	العدل	الظالم لنفسه وللغير	عدل مع نفسه ومع الغير تحت اشارة الدين والشريعة
٣١	اللطيف	الغير مدرك لدقائق الأمور	رفيق مهدى إلى دقائق المصالح
٣٢	الخبير	غير عليم بصحيح الأمور وغوامض الحقائق	محترز في افعاله بهدايه الله
٣٣	الحكيم	الجزوع	المصفوح عنه ذو الصفح
٣٤	العظيم	الدنئ الحقير الضئيل	الخاضع لهيبة الله فقام وركع وسجد لجناب مولانا

م	اسم الله الحسن الأحسن	« دساهـــا »	« ذكاهـــا »
٣٥	الغفور	عظيم الذنب متكرره	المستغفر المنيب المستور
٣٦	الشكور	الجاحد لأنعم الله	الشاكر المزكيّ الذى يصرف نعم الله فيما خلقت من أجله
٣٧	العلي	المنحط الدوني	المستعلي بالله
٣٨	الكبير	الصغير الوضيع	آمن بأن الله أكبر نصار صالحا كاملا
٣٩	الحفيظ	المتهالك ذو الشهوات	المحفوظ بفضل الله
٤٠	المقيت	المحتاج إلي القوت جسدا وقلبا	يسوق الله قوت العباد على يديه
٤١	الحسيب	طالب الكفاية المحاسب	المقبول الذى يحاسب نفسه
٤٢	الجليل	سيئ السريره والباطن	حسن باطنه فيتجلى عليه باهر القدره الربانيه
٤٣	الكريم	البخيل الضنين الذى خوفه الشيطان من الفقر	الكريم الواصل المنفق في سبيل الله بغير سؤال
٤٤	الرقيب	الغافل الغر	أنعم الله عليه فراقب الله في جميع أحواله وقوله وفعله
٤٥	المجيب	السائل المضطر	المنفوح المستجيب
٤٦	الواسع	منعدم القدره والعلم	واسع الخُلق والرحمة بالعباد
٤٧	الحكيم	لا يحسن التدبير	كيس ذو صواب فى القول والعمل
٤٨	الودود	المخالف النائي	المحب المحبوب المقرب
٤٩	المجيد	شحيح بالخير	ذو مروءة وقدر وسخاء في رجاء مولاه
٥٠	الباعث	بين حياة ونوم وموت	حى حياة طيبه يوم يبعث الله العباد
٥١	الشهيد	المقصد المنكر	قائم بشهادة الحق فى أمر الله

م	اسم الله الحسن الأحسن	« دساهـــــــا »	« ذكاهـــــــا »
٥٢	الحق	على باطل وشك غير مستحق للوجود بذاته	رجا إلى الله مولاه
٥٣	الوكيل	وكل أمره إلي نفسه وإلي ناقص مثله	اللاجئ إلي الله وكل أمره لله واعتمد علي احسان الله ففاز
٥٤	القوى	الضعيف الواهن	القوى بالله
٥٥	المتين	المشتت	وكل جماع أمره لله فحصنه بالصبر علي الطاعه
٥٦	الولي	المُعْرِض البعيد عن المولي	محبوب ومقرب ومنصور بالله
٥٧	الحميد	الذميم الذى لا يحمد المولي علي أنعمه	حامد موفق من الله إلي الخيرات فيحمد عند الله ويصبح محمديا
٥٨	المحصي	غير المنضبط وغير المضيق للطاعه	احصي علي نفسه الكليات والجزئيات من خشية الله
٥٩	المبدئ	الموجود وليس له حيله	المتفكر في اصله الترابي وروحه النورانيه
٦٠	المعيد	مردود إلي الحياة والحشر والحساب	دائم الفكر ليوم الحساب
٦١	المحيي	لا يملك موتا ولا حياة ولا نشورا	هزم جنود النفس والشيطان والهوى
٦٢	المميت	ميت بالجهل والغفله	احيا الله قلبه حتي صار حيا في الدارين
٦٣	الحي	غير حي بذاته	مدرك فعله ودوما بين يدى مولاه
٦٤	القيوم	هالك محتاج للقوامه بعد الايجاد	انقطع قلبه وامله عن الخلق فلم يبق فيه إلا القيوم
٦٥	الواجد	كانَ معدوما وفاقدا	ليس له منتهي في نعيم النشأة الآخرة
٦٦	الماجد	شحيح لسعة الخُلق والخَلق	يعامل الخلق بسعة الإخلاص
٦٧	الواحد	المتعدد المشرك	وفقه الله لنعم التوحيد فاكتفي
٦٨	الصمد	الأجوف المستغيث عن جزع	قصد الله فى جماع امره وخص قلبه بحب الله فصار مطمئنا

م	اسم الله الحسن الأحسن	« دساهـــا »	« ذكاهـــا »
٦٩	القادر	الناقص القدره بنفسه الضعيف العاجز	اطاع الله حتى صار سمعه وعينه ويده ورجله يقول للشئ كن فيكون
٧٠	المقتدر	غير مسيطر وغير متحكم	صلح حاله مع الله فوهب القدره باقدار مولاه
٧١	المقدم	قدم الأغيار والفجار فأخذه الله	خدم الله فقدمه بطاعته
٧٢	المؤخر	سئ التقدير	حسن التدبر فاخر ما أخره الله
٧٣	الأول	ليس أولا	أمره الله بكمال من عنده
٧٤	الآخر	ليس آخر اذ ينقضي وجوده	فر إلى الله
٧٥	الظاهر	المغلوب السافل	أينما ولى فثم وجه الله
٧٦	الباطن	قصر بصره وبصيرته	تجلت عليه انوار الفتاح
٧٧	الوالي	غير مالك وغير متعدن	والى نفسه بالأدب وإخوانه بالتعهد والنصيحة
٧٨	المتعالي	المقهور ذو النقيصه	ارتفعت همته في خدمة الله
٧٩	البر	الغير بار بالخلق	باذل الحسن الواصل لا يختلط بالمآثم ولا يقطع الإحسان مع الاختلاف
٨٠	التواب	المخذول العاصي معتاد العصيان والغفله	الرجاع التائب المنيب الآيب إلى الله
٨١	المنتقم	مستحق العقوبه لطغيانه	خاف الله فصار سحا شفوقا وينتقم من اعداء الله
٨٢	العفو	المذنب الظالم	رجا عفو الله عن صدق فمحا خطاياه
٨٣	الرؤوف	انعدم عطفه وحنانه	دفع الله عنه السوء
٨٤	مالك الملك	معدوم الملك حتى على نفسه	الدنيا في يده لا في قلبه وغني عن الناس
٨٥	ذو الجلال والإكرام	ليس له جلال أو كمال أو كرامة ينعم الله عليه ويشكر غيره	الموصول بفضل الله فصار مقبولا عنده

م	اسم الله الحسن الأحسن	« دساهـــا »	« ذكاهـــا »
٨٦	المقسط	الظالم لغيره	المنصف للغير ولا ينتصف لنفسه من الغير
٨٧	الجامع	المفرق	جمع بين الآداب الظاهره والحقائق الباطنه
٨٨	الغنى	المحتاج الفقير اللاجئ لغير الله	الغني بالله عن العباد
٨٩	المغنى	الشحيح	العفيف الصافي لله
٩٠	المانع	محتاج للحماية والمنعه والنصره	المحفوظ الذى رد عنه الهلاك والنقصان
٩١	الضار	المضر بالغ الأذى لنفسه وللغير	المفيد النافع سخر له الله الأشياء
٩٢	النافع	لا يصدر عنه خير	المنتفع بنعم الله
٩٣	النور	منجدل في ظلمات الجهل والضلاله	المستنير بنور الله في قلبه توحيدا ومعرفه
٩٤	الهادى	الضال المضل	المهتدى المسترشد
٩٥	البديع	المعدوم الابداع	هدى إلى ينابيع الحكمة مقرا بالبديع سبحانه
٩٦	الباقي	الزائل الفاني	حي في الدنيا والآخرة حياة طيبه
٩٧	الوارث	المدعي الملكيه الموروث وكل إلى حين	يرث الفردوس مع من انعم الله عليهم
٩٨	الرشيد	المرجوح المعوج السهوني تدبيره واللهوني تقديره	الراجع الملهم الرشد إلى الطاعه وإلى سواء السبيل
٩٩	الصبور	العجول الجافى	الصابر لله المحتسب المتحمل لمقاسات الطاعة عن رضا وراحة

أخي المسلم :

إذ وفقك الله وأرضاك بأنوار أسمائه على يد مصطفانا وحبيبنا صلىَ الله عليه وآله وصحبه وسلم والهمك الله رشد « زكاها » ووقاك مغبة « دساها » فاسجد لله شكرا على تكريمه عليك بمعيته ومعية حبيبنا صفوة الله من خلقه صلى الله على حضرته وبارك وسلم .

لا يسع أى مسلم إلا ان يتأمل فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ وحديث سيدنا المصطفى ﷺ « لى مع الله وقت لا يسعنى فيه ملك مقرب ولا نبى مرسل » بنور إسماء الله سبحانه إلا أن يتمنى على الله الكريم العليم أن يفتح عينيه وبصيرته حتى يميز الخبيث من الطيب وينأى عن بضاعه السوق العفنه التى زاغت وضلت وأضلت .

وهذا الكتاب القيم بين يديك لا يقصد به مؤلفه المجاهد المكلف السرد التاريخى أو التصدى للدفاع عما يقوله المبطلون فى حق حضرة نبينا ﷺ فالله سبحانه خير وأعظم وأقوى المدافعين عن رسوله ورسله ﷺ عليهم جميعًا كما يحب ربنا ويرضى .

بل هو بيان ذكره وتكريمه ﷺ كما جاء فى القرآن الكريم ﴿ **تَنزِيلٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ . لأن الرسول ﷺ لا يعرفه إلا ربه الذى خلقه وأدبه ورباه ثم علمه وأرسله فكان حقا رحمة للعالمين .

جزى الله شيخنا خير الجزاء عن هذا العمل ووفقه دوما على القيام بأعباء هذا التكليف ليكون مزيدا من النور لإخوانه فى الله وعونا لهم فى الوقوف على الحقيقة الإلهية .

ولله الحمد فى الأولى والآخرة وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد محمود هاشم

الفصل الأول
خاتم النبيين ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

وقال رسول الله ﷺ : (إن لى عند ربى أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا حامد وأنا شاكر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الخطايا . وأنا العاقب) [١] . والعاقب هو من لا نبى بعده وقال عليه الصلاة والسلام : (مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه . فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له . ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة . فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين) [رواه البخارى] .

إن رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين فلا نبى بعده . وشرعه مؤيد إلى يوم الدين . وناسخ لجميع الشرائع التى بعث الله بها النبيين قبله . وهو أكثر الأنبياء تابعا كما قال ﷺ : (فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) رواه الشيخان عن أبى هريرة وقد أخذ الله العهد والميثاق على سائر الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أنه لو أدركه أحدهم وجب عليه اتباعه ونصرته ﷺ وأرسل إلى الجن اتفاقا كما أرسل إلى الإنس . دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع . قال تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

وقد أجمع المفسرون على دخول الجن فى هذه الآية . وهو مدلول لفظها فلا يخرج عنه إلا بدليل .

وأما السنة : ففى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . أن

---

(١) الموطأ للإمام مالك .

رسول الله ﷺ قال: (فضلت على الأنبياء بست فذكر منها، (وأرسلت إلى الخلق كافة) فإن يشمل الإنس والجن. وحمله على الإنس تخصيص بغير دليل فلا يجوز.

وأما إرساله إلى الملائكة فمختلف فيه ويقول بذلك الجمهور.

قال تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ﴾. وإليكم ما منَّ الله به علينا.

* * *

الأبـــوان

تمهيـد :

يقول الإمام القسطلاني في المواهب اللدنية:

اعلم ياذا العقل السليم. والمتصف بأوصاف الكمال والتتميم – وفقني الله وإياك بالهداية إلى الصِّراط المستقيم – أنه لما تعلقت إرادة الحق تعالى بإيجاد خلقه وتقديره رزقه. أبرز الحقيقة المحمدية [1] من الأنوار الصمدية في الحضرة الأحدية. ثم سلخ منها العوالم كلها. علوها وسفلها على صورة حكمه. كما سبق في سابق إرادته وعلمه ثم أعلمه تعالى بنبوته وبشره برسالته. هذا وآدم – عليه السلام – لم يكن إلا – كما قال – بين الروح والجسد. ثم انبجست منه عيون الأرواح فظهر بالملأ الأعلى. وهو بالمنظر الأجلى. فكان لهم المورد الأحلى فهو الجنس العالي على جميع الأجناس والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس.

ولما انتهى الزمان باسم الباطن في حقه ﷺ إلى وجود جسمه وارتباط الروح به. انتقل حكم الزمان إلى الاسم الظاهر فظهر محمد ﷺ بكلِّيته جسما وروحا. فهو ﷺ وإن تأخرت طينته. فقد عرفت قيمته. فهو خزانة السر. وموضع نفوذ الأمر. فلا ينفذ أمر إلا منه. ولا ينقل خبر إلا عنه ولله در القائل:

---

(١) الإضافة للتشريف وللتعريف بقدر المصطفى ﷺ.

ألا بأبي من كان ملكا وسيدا	وآدم بين الماء والطين واقف
فذاك الرسول الأبطحي محمد	له في العلا مجد تليد وطارف
أتى بزمان السعد في آخر المدى	وكان له في كل عصر مواقف
أتى لانكسار الدهر يجبر صدعه	فأثنت عليه السن وعوارف
إذا رام أمراً لا يكون خلافه	وليس لذاك الأمر في الكون صارف (١)

إن سيدنا محمدا ﷺ هو سيد الأولين والآخرين والملائكة المقربين والخلائق أجمعين.

ولما كان ﷺ بشرا رسولا ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] كان لزاما علينا أن نتعرف على نسبه الشريف. والعلم بالأنساب ضرورة.

يقول الحافظ ابن حجر: قال ابن حزم وكذا ابن عبد البر: من زعم أن ما ورد من أن علم النسب علم لا ينفع وجهل لا يضر على إطلاقه فليس بمنصف بل ذلك محمول على التعمق فيه. وفي علم النسب ما هو فرض عين وما هو فرض على الكفاية وما هو مستحب. فمن ذلك أن يعلم أن سيدنا محمدا رسول الله هو ابن عبد الله الهاشمي. فمن زعم أنه لم يكن هاشميا فهو كافر. وأن يعلم أن الخليفة من قريش. وأن يعرف من يلقاه بنسب في رحم محرمة ليجتنب ما يحرم عليه منهم. وأن يعرف من يتصل به ممن يرثه أو يجب عليه بره من صلة أو نفقة أو معاونة وأن يعرف أمهات المؤمنين وأن نكاحهن حرام. وأن يعرف الصحابة وأن حبهم مطلوب. وأن يعرف الأنصار ليحسن إليهم لثبوت الوصية بذلك وأن حبهم إيمان وبغضهم نفاق (٢) أ. هـ ملخصا.

إن مما تميزت به الأمة العربية – في الجاهلية وفي الإسلام – هو العلم

---

(١) المواهب اللدنية ١/٥٥، ٥٦.

(٢) الكوكب الأنور: ص٦٣.

بالانساب والاحساب. وهذا ما لم يتوفر لغيرها من الأمم الاخرى. وتلك مكرمة تحسب لهذه الأمة.

إن سيدنا رسول الله ﷺ هو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف الذى ينتهى نسبه الشريف إلى سيدنا اسماعيل بن سيدنا ابراهيم عليهما السلام.

وأمه هى السيدة: آمنة بنت وهب من بنى زهرة بنت سيد قومها والذى يتصل نسبها بهذا النسب الشريف الذى ينتمى إليه زوجها الحبيب.

والأب والأم - فوق أنهما كانا من سادة قومهما - فقد كانا يتحليان بحميد الصفات وجليل المناقب، والشئ من معدنه لا يُستغرب فهما من سلالة طيبة وأرحام طاهرة. ومنهما كان وليدهما الوحيد سيدنا محمد ﷺ.

وعنهما نذكر نبذة قدر الجهد وقدر الاستطاعة مما تم جمعه من مآثرهما ومناقبهما. والله المستعان.

* * *

(أ) الأب الذبيح

هو السيد: عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

ومعنى: عبد الله. الخاضع الذليل لله تعالى. والوصف بالعبودية هو أشرف الأوصاف. ومن ثم ذكر النبى ﷺ فى أفخر مقاماته ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً** ﴾ [الإسراء: ١] ﴿ **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ﴾ [النجم: ١٠].

وعبد الله من أحب الأسماء إلى الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: (أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن) [(١)].

وقال أيضا: (أحب الأسماء ما تعبد به) [(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذى: ٢٨٣٣ والنسائى: ٦/٢١٨.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده: ٤/٣٤٥ والبيهقى فى السنن ٩/٣٠٦ والدارمى: ٢/٢٩٤.

ولم يختلف في اسمه . وكنيته : أبو قثم . وهو من أسماء النبى ﷺ . وقثم بضم القاف . هو : الإعطاء والخير .

قال أهل السير : كان عبد الله والد النبى ﷺ أنهد فتى فى قريش وأصبحهم خلقا . وأحسنهم أخلاقا . وكان نور النبى ﷺ فى وجهه . وكان يقال له : الذبيح .

فقد روى عن النبى ﷺ قال : (أنا ابن الذبيحين) يعنى بهما عبد الله وإسماعيل . وذكره القرطبى فى التفسير والحاكم فى مستدركه .

وروى الحاكم أيضا عن معاوية رضى الله عنه . أن رجلا قال للنبى ﷺ : يا ابن الذبيحين . فتبسم ﷺ ولم ينكر عليه .

فقيل لمعاوية : وما الذبيحان؟ فقال : الذبيح الأول اسماعيل وأما الثانى فعبد الله بن عبد المطلب .

وقال ابن حجر الهيثمى فى (النعمة الكبرى) : وسبب تسميته ذبيحا ما رواه الطبرانى بسنده المتصل إلى ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : كان عبد المطلب نذر إن أكمل له عشرة من الولد نحر أحدهم تقربا إلى الله تعالى . فلما كملوا . نام عبد المطلب عند الكعبة فرأى قائلا يقول : أوف بنذرك لرب هذا البيت فاستيقظ فزعا مرعوبا وأمر بذبح كبش وتصدق به . ثم نام فرأى أن قرب ما هو أكبر من ذلك فقرب ثورا . ثم نام فرأى أن قرب ما هو أكبر من ذلك . فقرب جملا . ثم نام فرأى أن قرب ماهو أكبر من ذلك . فقال : وما أكبر من ذلك؟ قال : أحد أولادك الذى نذرته . فاغتم غما شديدا . فجمع أولاده فأخبرهم . فاتفقوا على القرعة فأقرع بينهم أيهم ينحر فصارت القرعة على : عبد الله . وكان أحب الناس إلى عبد المطلب . فقال : اللهم هو أو مائة من الإبل . ثم أقرع . فصارت القرعة على الإبل . فنحرها . أ . هـ .

وقالوا : إن السبب فى ذلك هو : قيام عبد المطلب بحفر زمزم . لأن الجرهمى : عمرو بن الحارث لما أحدث قومه بحرم الله الحوادث . قيض الله لهم من

أخرجهم من مكة . فعمد عمرو بن الحارث إلى نفائس فجعلها فى زمزم وبالغ فى طمها – أى ردمها – وفر إلى اليمن بقومه . فلم تزل زمزم من ذلك العهد مجهولة إلى أن رفعت عنها الحجب برؤيا منام رآها عبد المطلب دلته على حفرها بأمارات عليها . فمنعته قريش من ذلك ثم آذاه السفهاء فاشتد بذلك بلواه . ومعه ولده الحارث الذى لم يكن له ولد سواه . فنذر لئن رزقنى الله عشرة بنين وصاروا له أعوانا ليذبحن أحدهم لله قربانا . ثم حفرها عبد المطلب فكانت له فخرا وعزا .

فلما تكامل بنوه عشرة وهم : الحارث والزبير وحجل وضرار والمقوم وأبو لهب والعباس وحمزة وأبو طالب وعبد الله . وقر الله بهم عيناه نام ليلة عند الكعبة المطهرة فرأى فى المنام قائلا يقول : يا عبد المطلب أوف بنذرك لرب هذا البيت فاستيقظ فزعا مرعوبا .

ثم قدم ما لم يقبل منه . حتى قال له الهاتف : قرب أحد أولادك الذى نذرته فاقرع بين أبنائه فخرجت القرعة على عبد الله فقبض عبد المطلب على يد ولده عبد الله وأخذ الشفرة ثم أقبل إلى إساف ونائله – صنمين عند الكعبة ينحر ويذبح عندهما النسائك – فقام إليه سادة قريش وقالوا له : لا تدعك أن تذبحه حتى نعذر فيك إلى ربك ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه وتكون سنة . وقالوا له : انطلق إلى فلانة الكاهنة .

فانطلقوا إليها حتى أتوها بخيبر فقص عليها عبد المطلب القصة . فقالت كم الدية فيكم؟ قالوا : عشرة من الإبل . قالت : ارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم ثم قربوا عشرة من الإبل ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح فإن خرجت القداح على صاحبكم فزيدوا الإبل ثم اضربوا أيضا فرجع القوم إلى مكة وفعلوا ما قالته لهم الكاهنة . حتى بلغت ديته مائة من الإبل . فنحرت الإبل وتركت . لا يصد عنها إنسان ولا طائر ولا سبع . أ . هـ ملخصا المواهب .

وليس عبد الله هو أصغر أولاد عبد المطلب فقد كان أعمام النبى ﷺ اثنى عشر رجلا كان أصغرهم العباس وأصغر منه حمزة ولكن عبد الله كان أصغر العشرة.

روى عن العباس أنه قال: أذكر مولد رسول الله ﷺ وأنا ابن ثلاثة أعوام أو نحوها. فجئ حتى نظرت إليه وجعل النسوة يقلن لى قبل أخاك فقبلته.

وروى أن رجلا قال للعباس رضى الله عنه: أأنت أكبر أم رسول الله ﷺ. فقال: إن رسول الله ﷺ أكبر منى ولكنى ولدت قبله بعامين.

فعبد الله كان أصغر أولاد عبد المطلب حين أراد نحره. ثم ولد له بعد ذلك حمزة ثم العباس رضى الله عنهما كما ذكره البكائى أحد رواة المغازى عن ابن إسحاق وروى له مسلم والترمذى وابن ماجة ويؤخذ مما ذكر أن عبد المطلب كان مؤمنا موحدا معظما لحرم الله تعالى وأنه اقتدى بسيدنا ابراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام فى الإقدام على ذبح ولده لله تعالى وثباته على ذلك. لأمره بذلك من الله عز وجل حيث قيل له: أوف بنذرك. وفى وقوع الأمر بفداء ولده وفى إجابة أولاده بنظير ما أجاب سيدنا اسماعيل أباه ابراهيم عليهما السلام ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

حيث قالوا له: أوف بنذرك وافعل ما شئت. وفى انقياد عبد الله له فى ذلك حيث ذهب به وهو يقوده إلى المذبح. فكان عبد الله هو الذبيح الثانى. وأنه أول من سن دية النفس. مائة من الإبل، وأقر ذلك رسول الله ﷺ وصار شرعا إسلاميا إلى يوم القيامة فما أشبه الليلة بالبارحة.

وروى الحافظ العراقى من طريق ابن إسحاق بسنده قال: لما انصرف عبد المطلب - يعنى من نحر الإبل - عن عبد الله. أخذ بيد عبد الله فمر به - فيما يزعمون - على امرأة من بنى أسد وهى أخت ورقة بن نوفل. فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبى. قالت: لك مثل الإبل

التى نحـرت عنـك وَقَـعْ علـىَّ الآن . قـال : أنا مـع أبى ولا أسـتطيع خـلافـه ولا فراقه [1] .

وروى الخرائطى وأبو نعيم وابن عسـاكر عن ابن عباس رضى الله عنهـمـا : أنه لما انطلق به أبوه ليزوجه مر على فاطمة الخثعمية – كاهنة مشهورة قرأت الكتب ولها جمال مفرط وعفة زائدة وكان شباب قريش يتحدثون بها – فقالت له : يا فـتى من أنت؟ فأخبـرها . فـقـالـت : هل لك أن تقع علىَّ الآن وأعطيك مـائة من الإبل؟ فنظر إليها وقال :

أمـا الحـرام فـالممـات دونه ... والحل لا حل فـأسـتـبـينه
فكيف بالأمـر الذى تبـغـينه ... يحمى الكريم عرضه ودينه [2]

وفى غرائب ابن قتيبة أن التى عرضت نفسـها عليه هى ليلى المخزومية هذا وقد قرر المؤرخون أن عبد الله لم يكن كسائر شباب مكة . فقد كان بهى الطلعة . يُرى نور النبوة فى وجهه . كما كان يخلو بنفسه كثيرا متأملا فى ملكوت الله عز وجل . وقد أخبروا أنه لم يثبت أنه قد سجد لصنم وخاصة فى آخر عمره . كما أنه كان جادا يتحلى بكثير من الصفات الحميدة كالمروءة والشجاعة والنجدة . مطيعا لأبيه صادقا وأمينا ومحبا للخير .

وكانت تلك سيرته حتى وافته المنية وأسلم الروح لخالقها بعد زواجه من السيدة : آمنة بنت وهب بحوالى شهرين أو أكثر وزوجه حامل بسيد الأنام ﷺ فلم تكتحل به عيناه . وكان ذلك فى عام الفيل فى شهر رمضان المعظم بالمدينة المنورة على الصحيح إذ كان فى زيارة لأخوال أبيه عبد المطلب .

روى الحاكم فى المستدرك عن قيس بن مخرمة قال : (توفى أبو النبى ﷺ وأمه حبلى) ورواه البيهقى فى الدلائل وكذا أبو نعيم وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .

---

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل ١ /١٠٢ .

(٢) الوفا ٨٣ وأبو نعيم فى الدلائل ٨٢ .

وهكذا ترك عبد الله الدنيا مخلفا وراءه زوجه الحبيبة تعانى آلام الوحدة وذهاب الحبيب حتى أقر الله عينيها بولادة المصطفى ﷺ .

* * *

(ب) أم النبى ﷺ

(١) المرأة العربية فى العصر الجاهلى :

إن المرأة العربية فى الجاهلية . كانت تحظى بالكثير من المكرمات بما لم تحظ بها مثيلاتها من الأمم الأخرى . فلقد كانت مرعية الجانب . مصونة المنزلة محفوظة الأصل والنسب وطهارة الرحم . أثرت وتأثرت ببيئتها ومجتمعها فلم تكن كمًّا مهملا ولم يقتصر دورها فى الحياة على أن تكون متعة للرجل ومنجبة للولد . ولكنها كانت شريكة له فى كل شئ فى عسره وفى يسره : فى حربه وفى سلمه .

وقد أخطأ كثيرا من ظن غير ذلك من هؤلاء الذين يلهثون وراء جمع الروايات الهزلية . وسخافات الجهلة بتاريخ الأمة العربية .

وافتراءات المستشرقين وأعداء العرب من اليهود والنصارى ودعاة التحلل من القيم والمثل العليا . كهؤلاء الذين يروون حكايات وأد البنات وميراث الزوجات من الآباء للأبناء واستعباد الحرائر فى الحروب والغارات وإن كل من يطلع من مظاهر الضعف والهوان لم يقم بها إلا القلة من سفلة الناس ممن لم تكن لهم جذور عربية أصلية .

وما نسب فعله إلى سيدنا عمر رضى الله عنه من وأد ابنته كان محض افتراء وكذب مختلق لأن سيدنا عمر كان من أشرف بيوتات العرب مما تأبى ذلك فالمؤرخون الأئمة والرواة القدامى لم يضنوا علينا بتدوين ما تناقلته الأخبار من مآثر المرأة العربية . وكيف أنها كانت معززة مكرمة وأن الرجل كان ينظر إليها نظرة إجلال واحترام .

فهذا رسول الله ﷺ يقول معتزا بأمهاته فى الجاهلية : (أنا ابن العواتك من سليم) رواه ابن حبيب فى المحبّر : ٤٧ .

فقد كان العرب قديما يحرصون فى جاهليتهم على كرم النسب وطهارة الأرحام ونقاء الأصول . قال حكيمهم «أكثم بن صيفى» : (لا يفتننكم جمال النساء عن صراحة النسب . فإن المناكح الكريمة مَدْرَجةَ الشرف) .

وقال شاعرهم :

وأول خبث الماء خبث ترابه وأول خبث القوم خبث المناكح

ونقل أبو عمرو بن العلاء - الراوية الصدوق الحجة وأحد السبعة القراء الأئمة - عن أحدهم قال : لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدى منها . قيل له : كيف ذلك؟

قال : أنظر إلى أبيها وأمها فإنها تجر بأحدهما .

وقال قائلهم لبنيه : : قد أحسنت إليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا .

قالوا : وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد؟

فقال : (اخترت لكم من الأمهات من لا تسبوا بها) [١] .

وذلك لأن عرب الجزيرة كانوا يرون فى الإنجاب من الإماء مسبة ومذلة للأبناء . لأنهم كانوا يحرصون على عزة الأمومة وصيانتها بالمهج والأرواح .

روى الأصفهانى فى كتابه (الأغانى) : أن عمرو ابن هند ملك الحيرة . قال يوما لجلسائه :

هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمى؟

فقالوا : نعم .. أم عمرو بن كلثوم .. قال : ولم؟ قالوا : لأن أباها مهلهل بن ربيعة . وعمها : كليب وائل أعز العرب . وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب . وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه وليث كتيبتهم .

---

(١) عيون الأخبار ٤ /٣ .

فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن تزور أمُّه أمَّه. فأقبل ابن كلثوم من الجزيرة فى جماعة من بنى تغلب، وأقبلت أمه (ليلى) فى ظعن منهم وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا ودخل ابن كلثوم رواق الملك وأدخلت (ليلى) إلى هند فى قبة إلى جانب الرواق. وكان بين الإثنتين صلة نسب.

قالوا: وقد كان عمرو بن هند أوصى أمه أن تنحى الخدم إذا دعا بالطرف. وتستخدم (ليلى) فلما فعل. قالت هند لزائرتها بعد أن أطمأن بها المجلس:

ناولينى يا ليلى ذلك الطبق.

فقالت ليلى فى نفور وأنفة: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها.

فأعادت هند عليها وألحت. وإذ ذاك صاحت ليلى:

– واذلاه.. يالتغلب.

فسمعها ابنها فثار الدم فى عروقه. وانتفض قائلا: لا ذل لتغلب بعد اليوم ثم نظر حوله فإذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره فوثب إليه. وأطاح به رأس ابن هند.

وقال الرواة إنه أنشد يومئذ معلقته المشهورة مرتجلا التى ظلت تغلب تعظمها وترويها لأبنائها جيلا بعد جيل.

كما يعترف المؤرخون بأن حاتما الطائى قد ورث الجود والكرم عن أمه والكتب القديمة مملوءة بالذخائر وبالأحاديث عن نساء عربيات فضليات لهن ذكرهن ومآثرهن فى التاريخ.

مثل: كتاب المحبر لأبى جعفر بن حبيب. وجمهرة أنساب العرب لابن حزم وعيون الأخبار لابن قتيبة والأغانى للأصفهانى. ونسب قريش للزبيرى والسيرة النبوية لابن هشام وغيرها من كتب التراث.

فقد ذكرن نساء كنّ في الجاهلية شهيرات ولهن أدوارهن في الحياة منهن أم البنين بنت عامر بن عمرو وعاتكة بنت مرة بن هلال السلمية التي أنجبت لزوجها عبد مناف بن قصي : هاشما جد عبد الله والد المصطفى ﷺ . والمطلب بن عبد مناف جد الإمام الشافعي رضي الله عنه .

وأم الفضل : لبابة الكبرى بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه التي أنجبت له الفضل و عبد الله بن عباس الذي كان من ذريته خلفاء بني العباس .

وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان وأم سيدنا معاوية رضي الله عنه مؤسس الدولة الأموية .

والسيدة : آمنة بنت وهب أم المصطفى ﷺ التي أنجبت للبشرية : رحمة الله للعالمين صلوات الله وسلامه عليه ومنهن : زرقاء اليمامة وأم جميل زوج أبي لهب .

ومنهن الشاعرات البليغات، والناطقات بالحكمة والمثل .

ومنهن المشاركات في الحروب لرفع معنويات المقاتلين وتضميد الجرحى والضاربات بالدفوف لشحذهم المقاتلين وبث روح الشجاعة والبسالة والمقاومة فيهم .

فهذه مجرد أمثلة تبين لنا أن ما حظيت به المرأة العربية في جاهليتها كان أكثر مما أعطى لمثلها في الأمم الأخرى . وهو ما يكذب ما يتكلم به بعض الحاقدين على أمة العرب الذين يدعون أن المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ليست إلا متاعا من الأمتعة . مهملة وليس لها دور في الحياة العامة . وهذا منهم محض افتراء ويكذبه واقع المرأة العربية في الجاهلية وفي ظل الإسلام وقد رأينا كيف أنها كانت تشارك الرجل في كل شئ وتشير عليه ولها يسمع ولرأيها يقدر رغم أنف الحاقدين والجهلة بتاريخ المرأة العربية .

(٢) أم المصطفى ﷺ :

هي السيدة : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر . وفهرهم قريش .

قال ابن حزم فى جمهرة الأنساب : (لا قريش غيرهم ولا يكون قرشى إلا منهم) .

وأمها : برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب فنسب النبى ﷺ لأبيه وأمه جعله يعتز به .

فقد روى ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا : « لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما » رواه القاضى عياض وأخرج مسلم فى صحيحه عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » ورواه الترمذى والقاضى عياض فى الشفا . فهو صلى الله عليه وآله وسلم خيار من خيار من خيار .

إن السيدة : آمنة بنت وهب . قد تفتح صباها فى أعز بيئة وأطيب منبت فاجتمع لها من أصالة النسب ورفعة الحسب . ما تزهو به فى ذاك المجتمع المكى المعتز بكرم الأصول وشرف الأعراق .

كانت زهرة قريش اليانعة وبنت سيد بنى زهرة نسبا وشرفا . وقد ظلت فى خدرها محجبة عن العيون . مصونة عن الابتذال حتى ما يكاد الرواة يتبينون ملامحها . أو يتمثلونها فى صباها الغض .

والذى يعرفه المؤرخون عنها أنها – عندما خطبت لعبد الله بن عبد المطلب – كانت يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا ، كما قال ابن إسحاق على أن شذاها العطر كان ينبعث من دور بنى زهرة فينتشر فى أرجاء مكة ويثير أكرم

الآمال فى نفوس شبانها الذين زهدوا فى كثيرات سواها وقد عرفت (آمنة) فى طفولتها وحداثتها. ابن العم (عبد الله بن عبد المطلب) بين من عرفت من لداتها أبناء الأسر القرشية إذ كان البيت الهاشمى أقرب هذه الأسر جميعا إلى آل زهرة. جمعتهما أو اصر ود قديم لم تنفصم عراه منذ عهد الشقيقين (قصى وزهرة. ولدى كلاب بن مرة).

عرفته قبل أن ينضج صباها ويحجبها خدرها. وتلاقت وإياه فى الطفولة البريئة فى ربوع مكة وفى ساحة الحرم الأمين. كما جمعتهما مجامع القبيلة حيث كان عبد المطلب سيد بنى هاشم ووهب سيد بنى زهرة يتزاوران على ود ويجتمعان للتشاور كلما أهم قريشا. أمر.

ثم حجبت (آمنة) حين لاحت بواكير نضجها فى الوقت الذى كانت فيه خطوات (عبد الله) تسرع به إلى الشباب.

ورنت أنظار الفتيان من بيوتات مكة إلى زهرة قريش وتسابقوا إلى باب بيتها يلتمسون يدها. ويزفون إليها ما لهم من مآثر ومناقب وأمجاد [1] أ. هـ.

إن كل فتى فى مكة كان يطلب يد (آمنة) لتكون زوجًا له إلا (عبد الله بن عبد المطلب) رغم تعلقه بها – لانه كان مشغولاً بأمر الذبح والفداء الذى كان حديث مكة كلها. والذى أهم كل فتاة كانت تطمع فى عبد الله أن يصبح زوجها. وشغلت آمنة بهذا الأمر كثيرا.

ولما جاء الفرج من الله تعالى. ونجا عبد الله من الذبح وعم الفرح والسرور بمكة وأضيئت الأنوار وأخذ الرجال يتسامرون فى دار الندوة ويقولون ما أشبه الليلة بالبارحة أليس (عبد الله) هو حفيد نبى الله (اسماعيل عليه السلام)؟

إذا سيكون لعبد الله – حتما – شأن كبير أو أمر عظيم ينتظره ولما قدم عبد المطلب فداء ولده عبد الله مائة من الإبل.

قال ابن إسحاق فى السيرة: (وإذ ذاك اطمأن قلب الشيخ التقى ونحرت الإبل. ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا سبع).

---

(١) أم النبى: ٨٣، ٨٤.

ثم يقول : ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد عبد الله - إثر افتدائه من الذبح - فخرج حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة . وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسبا وشرفا فزوجه ابنته آمنة) أ . هـ.

وبذلك حظيت السيدة آمنة بما لم تحظ به امرأة أخرى فى مكة ولا فى غيرها وكيف لا يكون ذلك وهى الطاهرة العفيفة ذات الحسب والنسب . وعبد الله هو الطيب الطاهر ذو الحسب والنسب . فكل منهما كان كفؤا للآخر .

٣ - الزواج المبارك :

ولما انصرف السيد : عبد الله مع أبيه بعد نحر الإبل . وفى الطريق استوقفته رقية بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشية - وقيل كان اسمها : قتيلة كما نقله النويرى فى نهاية الأرب - وقيل غير ذلك وكان ذلك فى مكان قريب من الكعبة المشرفة . فقالت له : أين تذهب يا عبد الله؟

فأجاب : مع أبى .

قالت : لك مثل الإبل التى نحرت عنك اليوم . إن قبلت أن أهب لك نفسى الساعة .

فرد عليها فى تلطف : أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه، وذكر ابن سعد فى طبقاته والطبرى وابن الأثير : أن امرأة أخرى تسمى فاطمة بنت مر - وكانت من أجمل النساء وأعفهن - وكانت تقرأ الكتب وقيل : كانت كاهنة من خثعم . دعته إلى نكاحها . فنظر إليها . وقال :

أمـا الحـرام فـالممـات دونه   والحل لا حل فـاستـبـينه
فكيف بالأمـر الذى تبـغـينه   يحـمى الكريم عـرضـه ودينه

وقيل أيضا : إن ليلى العدوية قد عرضت نفسها عليه يومئذ فلم يستجب لها وردها ردًا حسنًا معتذرًا وحقا كان عبد الله بن عبد المطلب كما قال الزبير مما ورد فى عيون الأثر : « وما رئى رجل فى قريش قط . أحسن منه » .

وقال الدكتور هيكل فى حياة محمد : « أن عبد الله كان شابا وسيما قويا .

فلم يكن عجبا أن تطمع غير آمنة فى الزواج منه . فلما بنى بها . تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو إلى حين » .

وقال البرزنجى [1] : فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب . وهو يومئذ سيد بنى زهرة . فزوجه آمنة بنت وهب وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا . أى وذلك بعد أن تزوج عبد المطلب هالة بنت أهيب أخى وهب وهى أم حمزة بن عبد المطلب .

فقالت قريش : غلب عبد الله أباه عبد المطلب . فزعموا أن عبد الله دخل عليها حين أملكها . فكأنه وقع عليها فحملت برسول الله ﷺ ثم خرج من عندها . فأتى المرأة التى عرضت عليه ما عرضت – أى ليستخرج ما عندها من العلم – فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ماكنت عرضت بالأمس؟ فقالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس فليس لى بك اليوم حاجة .

وفى رواية قالت : كان ذلك مرة فاليوم لا . فذهب مثلا .

وفى أخرى : أنها قالت : والله إنى لست بصاحبة ريبة ولكن رأيت النور فى وجهك فأحببت أن تضعه عندى . وأبى الله أن يضعه إلا حيث يشاء وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل . وكان قد تنصر واتبع الكتب أنه لكائن فى هذه الأمة نبى . أ . هـ .

وكذلك قالت له نفس القول فاطمة بنت مر وليلى العدوية . بأن السبب الذى دعا كلا منهن أن تهب نفسها له . هو ما رأته كل منهما من النور المحمدى الذى كان فى وجهه . فلما فازت به (آمنة) أصبحت كل واحدة منهن غير راغبة فيه .

ولما طلب عبد المطلب من وهب أن يزوج ابنته آمنة لابنه عبد الله ذهب وهب لابنته فى خدرها ليقول لها فى رقة وحنو :

---

(١) شرح المولد النبوى : ١٢٥ ، ١٢٦ .

«إن شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبك زوجة لابنه عبد الله».

ثم عاد إلى ضيفيه. وقد ترك ابنته فى شبه ذهول ثم ترمى نفسها فى حضن أمها فى حنو غامر وقد ملأت السعادة قلبها. فلقد فازت بحب فتى مكة وزينة شبابها.

ودخل بها عبد الله ثلاثة أيام عند أهلها - كما هى عادتهم - ثم انتقل بها إلى داره التى عاش فيها مع عروسه أياما لم تتجاوز العشرة أيام. ثم كان الرحيل مع قافلة التجارة المسافرة إلى بلاد الشام. وعند عودة الرحلة تخلف (عبد الله) فى (يثرب) عند بنى النجار أخوال أبيه عبد المطلب لمرضه وبقى عندهم حتى مات ولم يمض على يوم عرسه سوى شهرين فى أصح الأقوال. لم يأنس فيهما بعروسه سوى عشرة أيام بشرته فيها برؤياها (رأت كأن شعاعا من النور ينبثق من كيانها اللطيف فيضئ الدنيا من حولها حتى لكأنها ترى به بصرى من أرض الشام. وسمعت هاتفا يهتف بها «إنك قد حملت بسيد هذه الأمة» كما روى ابن إسحاق فى السيرة وابن سعد فى الطبقات وبلغ خبر وفاة عبد الله إلى آمنة من أبيه عبد المطلب وأبيها وهب فنزل الخبر عليها نزول الصاعقة. ووجمت للخبر وقست عيناها فما تسعفانها ببكاء. ولما تيقنت من وقع الكارثة وفاض الدمع قالت ترثى الحبيب الذى سافر بلا عودة:

عفا جانب البطحاء من زين هاشم	وجاور لحدا خارجا فى الغماغم
دعته المنايا دعوة فأجابها	وما تركت فى الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره	تعاوره أصحابه فى التزاحم
فإن يك غالته المنون وريبها	فقد كان معطاء كثير التراحم

وبكت مكة كلها ووجد عليه عبد المطلب وأولاده ذكورا وإناثا. وترملت العروس الشابة وما يزال فى يديها خضاب العرس، لك الله يا آمنة.

٤ – الأرملة الشابة :

مات عبد الله بن عبد المطلب وترك زوجه (آمنة) مرتدية ثياب العرس لقد كتب الله تعالى عليه الموت هكذا سريعا. ففيم كان الفداء؟

من كان يظن حين نحرت الإبل المائة بالحرم وتركت لا يُصدَ عنها إنسان ولا سبع. أن المنايا واقفة بالمرصاد للذبيح المفتدى. على قيد خطوات معدودات؟

لم يتصور أحد أبدا من أهل مكة أن الموت سوف يأتى سريعا ليخطف من بينهم هذا الفتى الذى لم يستمتع من حياته الجديدة إلا بعشرة أيام فقط سافر بعدها فى قافلة التجارة وكله أمل أنه سوف يعود قريبا لزوجه الحبيبة ليبنى معها أحلامهما. ولكن شئنا أمرا وشاء الله أمرا آخر لقد نجا عبد الله من الذبح بالفداء أياما معدودات لكى يضع الأمانة التى حملها عند زوجه العفيفة الطاهرة. لقد أودعها نور النبوة الذى كان يحمله. يقول الرسول ﷺ: « .. ثم لم يزل الله تعالى ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا. لا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما».

لقد عاشت السيدة: آمنة فى وحدتها تجتر أحزانها وتكابد الذى تجد من شدة المصاب حتى خيف عليها. فتتابع أهلها يحاولون أن يعزوها ويواسوها ولكنها كانت تأبى أن تقبل فى عبد الله عزاء.

وخاف عليها أهلها من آل هاشم وآل زهرة أن يذهب بها الحزن وناشدوها الصبر الجميل، ولكن كان الأمر أكثر شدة. وأشد صعوبة على فتاة لم تهنأ بزوجها فى أيام عرسها.

ولكن رحمة الله تعالى – التى شملتها – كانت أوسع وأرحب.

فبينما هى تجتر مرارة آلامها وأحزانها أتاها آت وهى بين النائمة واليقظانة فقال: «هل شعرت بأنك حملت بسيد الأنام».

روى القسطلانى [1] من حديث ابن إسحاق : أن آمنة كانت تحدث : أنها أتيت حين حملت به ﷺ فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة . وقالت : ما شعرت بأنى حملت به . ولا وجدت له ثقلا ولا وحما كما تجد النساء إلا أنى أنكرت رفع حيضتى . وأتانى آت وأنا بين النائمة واليقظانة فقال : هل شعرت بأنك حملت بسيد الأنام . ثم أمهلنى حتى إذا دنت ولادتى أتانى فقال لى : قولى :

أعيـــذه بالواحـــد مـن شـر كا حاسـد

ثم سميه : محمدا .

لقد كان لهذه البشرى أثر كبير على السيدة : آمنة . فلقد تبدلت أحزانها وآلامها بأمل كبير . تقرُّبه عيناها . ولعله يكون عوضا عظيم الشأن عن الحبيب المفقود . فهذه البشرى كانت أقوى من رجاءات أهلها وحسن مواساتهم . فتبدل حالها بما قضت عليه البشرى من آلامها وأحزانها . وشغلت آمنة بما فى أحشائها الذى جاءت به البشرى مرارا عديدة .

روى البرزنجى قال : قال فى « المواهب » : ولما حملت آمنة برسول الله ﷺ ظهر لحمله عجائب ووجد لإيجاده غرائب . فذكروا أنه لما استقرت نطفته الزكية ودرته المحمدية فى صدفة آمنة القريشية نودى فى الملكوت ومعالم الجبروت أن عطروا جوامع القدس الأسنى . وبخروا جهات الشرف الأعلى وافرشوا سجادات العبادات فى صفف الصفا لصوفية الملائكة المقربين أهل الصدق والوفا . فقد انتقل النور المكنون إلى آمنة ذات العقل الباهر والفخر المصون . قد خصها الله تعالى القريب المجيب بهذا السيد المصطفى الحبيب لأنها أفضل قومها حسبا وأنجبهم وأزكاهم أصلا وفرعا أطيب .

وقال سهل بن عبد الله التسترى : لما أراد الله خلق محمد ﷺ فى بطن آمنة

---

(1) المواهب : 1 / 120 .

ليلة رجب – أى ليلة أوله – وكانت ليلة جمعة أمر الله تعالى فى تلك الليلة رضوان خازن الجنان أن يفتح الفردوس ونادى مناد فى السماء ألا إن النور المخزون المكنون الذى يكون منه النبى الهادى فى هذه الليلة يستقر فى بطن آمنة الذى يتم فيه خلقه ويخرج إلى الناس بشيرا ونذيرا.

وفى رواية كعب الأحبار: أنه نودى تلك الليلة فى السماء وصفاحها والأرض وبقاعها. أن النور المكنون الذى منه رسول الله ﷺ انتقل فى بطن آمنة فيا طوبى لها ثم يا طوبى [1] . أ . هـ .

لقد حملت آمنة فلم تر لحملها ثقلا ولا وحما – كما ترى النساء – غير أنها أنكرت عدم نزول حيضتها. ولقد رأت البشريات التى أكدت لها حملها لجنين سيكون له شأن عظيم مما طمأنها على حملها.

هذا وقد وقعت إرهاصات ورؤى لكثير من الناس تدل على قرب ولادة خير البشر. فقد عم الخير وكسيت الأرض بالخضرة بعد طول جدبها ونطقت بحمله الدواب وتهاوت الأصنام سجدا.

قال فى (المنح): وذكروا: يعنى علماء هذا الشأن – أنه لما استقرت نطفته الكريمة فيها – أى أمه ﷺ – أصبحت أصنام الدنيا منكوسة.

وقد وقع منهم ذلك أيضا عند ولادته ﷺ فعن عبد المطلب قال: كنت فى الكعبة فرأيت الأصنام سقطت من أماكنها وخرت سجدا وسمعت صوتا من جدار الكعبة يقول: ولد المصطفى المختار الذى تهلك بيده الكفار. ويطهر من عبادة الأصنام. ويأمر بعبادة الملك العلام وقال جلال الدين السيوطى فى خصائصه: إن من خصائصه ﷺ تنكس الأصنام لمولده[2].

وروى البرزنجى قال: أخبر زيد بن عمرو بن نفيل قال فى حديثه: خرجت

---

(١) شرح المولد النبوى: ١٣٠

(٢) الخصائص الكبرى ١ / ٨٠.

من عند أهلي وهم يذكرون حمل آمنة حتى أتيت جبل أبى قبيس أريد الخلوة فيه إذ رأيت رجلا من السماء وله جناحان وقد وقف على أبى قبيس مشرفا على مكة. ونادى: ذل الشيطان وبطلت الأوثان. ثم نشر ثوبا معه فاهوى نحو المشرق والمغرب فرأيته قد ظل بين السماء والأرض، وسطع نور كاد يخطف بصرى. وهالنى ما رأيت وخفق الهاتف بجناحه حتى سقط على الكعبة فقال: ذلت الأصنام وأذن زيفها وأومأ إلى الأصنام التى على الكعبة فسقطت كلها.

ثم قال: وفى القصة. فقال النجاشى: ويحكما. أخبركما بما أصابنى: إنى لنائم - فى تلك الليلة التى ذكرتماها - فى قبتى وقت خلوتى. إذا بهاتف يقول حل الويل بأصحاب الفيل. ترميهم الطير الأبابيل بحجارة من سجيل. ولد النبى الأمى. من أجابه سعد. ومن أباه عند. فذهبت أصيح فلم أطق الكلام ورمت القيام فلم أطق القيام. فقرعت القبة بيدى. فسمع ذلك أهلى فتبادروا وأومأت إليهم أن احجبوا عنى الناس فحجبوهم. حتى أطلق الله لسانى ويدى وروى ابن القطان [1]: أن نفرا من قريش منهم ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث. كانوا عند صنم لهم قد اجتمعوا إليه يوما. اتخذوا ذلك اليوم عيدا فى كل سنة يعظمونه وينحرون عنده الجزور ويأكلون ويشربون الخمر ويعكفون عليه. فرأوه يوما مكبوبا على وجهه فأنكروا ذلك فأخذوه وردوه إلى حاله. فلم يلبث أن انقلب انقلابا عنيفا فأخذوه وردوه إلى حاله. فانقلب الثالثة. فلما رأوه اغتموا. فقال عثمان بن الحويرث: ما له قد أكثر التنكيس؟ إن هذا لأمر حدث - وذلك فى الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ - فجعل عثمان بن الحويرث يقول:

أيا صنم العيد الذى صف حوله ... صناديد قوم من بعيد ومن قرب
تنكستَ مغلوبا فماذاك قل لنا ... بغاك سفيه أم تنكست للعب
فإن كان عن ذنب أتينا فإننا ... نبوء بإقرار ونلوى عن الذنب

---

(١) عن يحيى بن عروة عن أبيه.

وإن كنت مغلوبا تنكست صاغرا   فما أنت فى الأوثان بالسيد الرب

قال : فأخذوا الصنم فردوه على حاله . فلما استوى هتف بهم بصوت جهير وهو يقول :

تردى لمولود أنارت بنوره	جميع فجاج الأرض بالشرق والغرب
وخرت له الأوثان طُرًّا فأرعدت	قلوب ملوك الأرض طرا من الرعب
ونار جميع الأرض باخت وأظلمت	وقد بات شاه الفرس فى أعظم الكرب
وسارت عن الكهان بالغيب جنها	فلا مخبر منهم بحق ولا كذب
فيا لقصى ارجعوا عن ضلالكم	وهبوا إلى الإسلام والمنزل الرحب

فلما سمعوا ذلك خلصوا نجيا . فقال بعضهم لبعض : تصادقوا . . إلى آخر ما ذكره ابن القطان فى هذا الخبر . وفى آخره : عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه خرج يطلب الدين حتى لقى بالحيرة – بلد بالعراق – راهبا . فأخبره بالذى يطلب . فقال : إنك لتطلب دينا ما تجد ما يحملك عليه . ولكن قد أظل زمان نبى يخرج من بلدك بدين الحنفية . فلما قال له ذلك رجع يريد مكة . فعدت عليه لخم . فقتلوه [1] أ . هـ .

لقد حملت به آمنة تسعة أشهر كاملة وهى ترفرف عليها أعلام السعادة مما حدثت به فى نومها وما رأته فى يقظتها من أمر الحبيب المنتظر وقلبها يعتصر ألما على عبد الله الذى لم تكتحل عيناه برؤية ولده سيد الأنام ﷺ .

ولما تمت أشهر حمله وضعته ﷺ كاملا مسرورا مختونا ساجدا لربه عز ولج . فقرت به عيناها ﷺ ورجت أن يجعله الله تعالى لها عوضا عن أبيه الذى لم تكتحل برؤيته عيناه ولكن الله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد . وما كانت تدرى هى الأخرى أنها سوف تلحق أباه بعد أربع سنوات وتترك ابنها وحيدا فريدا فى رعاية ربه عز وجل .

---

(١) ذكره السيوطى فى الخصائص الكبرى (١ / ٨٨) .

(جـ) إيمان عبد الله وآمنة ونجاتهما

إن هذه القضية مثار خلاف بين العلماء. وهى قضية مهمة وترجع أهميتها لاتصالها بسيد الأنام ﷺ. لذلك تكلم فيها من العلماء ثلاث فرق:

الأولى: وهى الفرقة الأعظم والأكثر عددا قالوا:

إن أبوى النبى ﷺ مؤمنان وهما من أهل الجنة.

قال العلامة المحقق الشيخ أحمد بن حجر الهيثمى - رحمه الله - فى «المنح» إن آباء النبى ﷺ - غير الأنبياء - وأمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم كافر. لأن الكافر لا يقال: أنه مختار ولا كريم ولا طاهر بل نجس كما فى آية ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقد صرحت الأحاديث السابقة بأنهم مختارون وأن الآباء كرام والأمهات طاهرات. وأيضا فهم إلى إسماعيل - عليه السلام - كانوا من أهل الفترة وهم فى حكم المسلمين بنص الآية الآتية. وكذا من بين كل رسولين وأيضا قال تعالى: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٩] على أحد التفاسير فيه أن المراد تنقل نوره من ساجد إلى ساجد.

ولذا أجمع أهل الكتابين على أن «آزر» عم إبراهيم - عليه السلام - واسم أبيه «تارح» كآدم. أو تيرح أو غير ذلك كما سيأتى. وحملوا قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ [الانعام: ٧٤] على المجاز والعرب تسمى العم أبا. وقد جاء فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] مع أنه عم يعقوب. بل لو لم يجمعوا على ذلك وجب تأويله بهذا جمعا بين الأحاديث. فمن أخذ بظاهر الآية كالبيضاوى وغيره فقد تساهل واستروح قال: وحينئذ فهذا صريح فى أن أبوى النبى ﷺ آمنة وعبد الله من أهل الجنة لأنهما أقرب المختارين له ﷺ وهذا هو الحق. بل فى حديث صححه غير واحد من الحفاظ ولم يلتفتوا لمن طعن فيه: أن الله تعالى أحياهما له فآمنا به خصوصية لهما وكرامة له ﷺ.

وقال خاتمة المحققين التقى الصالح الشيخ إبراهيم خليل اليمنى الزبيدى فى كتابه « المنهج الأعدل فى شرح مولد الأهدل » أقول . وقد نصر هذا القول وأيده غير واحد من الجهابذة النقاد كالتقى السبكى والجلال السيوطى وغيرهما فلا مرية فى حقيته . . أ . هـ.

ويقول الشيخ جعفر البرزنجى [١] معلقا على قول ابن حجر :

وممن نصر هذا القول الإمام المحقق والسهام المدقق مجدد المائة الحادى عشرة جدنا المرحوم السيد محمد البرزنجى وألف فيه رسالة سماها : (سداد الدين وسداد الدَين فى إثبات النجاة والدرجات للوالدين) وهى تزيد على نحو خمس عشرة كراسة وأتى فيها بما يشفى قلب الحبيب ويقصم ظهر المعاند الغضيب .

قال : وقد قال بنجاتهما جمع كثير وجم غفير ممن جمع بين الحديث والفقه والأصول كابن العربى وابن شاهين وابن المنير وابن ناصر الدمشقى والإمام الفخر الرازى والسبكى والقرطبى والآبى والمحب الطبرى وابن سيد الناس والشرف المناوى ونقله سبط ابن الجوزى فى كتابه « مرآة الزمان » عن جماعة . والحافظ ابن حجر العسقلانى والإمام حافظ الدين الحنفى صاحب جامع السلوك فى شرح مناقب الإمام أبى حنيفة – رضى الله عنه – .

قال : وممن استهتر بهذه المسألة . خاتمة الحفاظ الإمام المجتهد مجدد المائة التاسعة أبو الفضل جلال الدين السيوطى فإنه ألف فى المسألة : خمس تاليفات [٢] وبسط القول فيها . والإمام العلامة المحقق الشهاب أحمد بن حجر الهيثمى المكى فإنه بسط القول فيها بعض البسط فى « النعمة الكبرى » وفى « الفتاوى » وفى « شرح الهمزية » وأتى فيها بالعجب العجاب . أ هـ.

وللعارف بالله العلامة الشيخ عبد الله البسنوى الرومى شارح فصوص الحكم

---

(١) الكواكب الدرية : ١١٣ .

(٢) هى : أحاديث فى نجاة أبوى النبى ﷺ . التعظيم والمنة فى أن أبوى النبى فى الجنة رسالة فى والدى الرسول – سبل النجاة فى والدى النبى . مسالك الحنفا فى والدى المصطفى .

لابن عربي والمتوفى سنة ١٠٥٤ هـ كتابا قيما سماه « مطالع النور السنى عن طهارة النسب العربى » وهو من أجل وأقيم الكتب المؤلفة فى شئون النبى ﷺ وأدلها على جلالة مؤلفه ومعرفته بعلو قدره عليه الصلاة والسلام. وقد أثبت فيه بالحجة والأسانيد والأدلة القاطعة على إيمان أبوى النبى ﷺ عبد الله وآمنة وأنهما ناجيان ومن أهل الجنة. إذ هما من المسلمين الذين أخبر الله بالآيات عن دعوة إبراهيم عند رفعه القواعد من البيت وشهد بها فى حق إبراهيم. وبالآيات الدالة على بقاء ملة إبراهيم فى ذريته وعدم اندراسها إلى بعثة سيدنا محمد ﷺ. ثم استدل بالأحاديث التى دلت على طهارة نسبه ﷺ إلى آدم عليه الصلاة والسلام. وقد دافع عن صحة حديث إحياء أبويه له وإيمانهما به ﷺ ثم رد على المخالفين ودحض حجتهم.

قال رحمه الله تعالى: فإذا ثبت امتداد الإسلام وعدم انقطاعه من إبراهيم عليه السلام إلى زمان بعثة نبينا ﷺ وثبت وجود الأمة المسلمة التى بعث فيها منها. ثبت توحيد أبيه عبد الله وإسلامه وتوحيد أمه آمنة وإسلامها على طريق أخرى لأنه لا يتصور وجوده فيهم ومنهم. وهما من ملة دونهم. ولما ثبت كونه منهم بحسب القرابة الطينية ثبت كونه منهما وكونهما أمة مسلمة بحسب القرابة الرحيمة على طريق أخرى لأن مادة جسمه البشرى ما تعينت إلا فى أبيه ﷺ وما كملت صورته البشرية إلا فى رحم أمه. فثبت كونهما أمة مسلمة. كما قال تعالى فى حق إبراهيم عليه السلام (إن ابراهيم كان أمة قانتا) ولو لم يوجد مسلم غيرهما وقال: لا يخلق - الله - محمدا من نطفة مشرك أبدا ولا يحصل الزوجية بين مشرك ومشركة ليكون هو نتيجة عنهما ولا يريد أن تحمل مشركة من نطفة مشرك محمدا ﷺ الذى هو رحمة الوجود ومفتاح خزائن الكرم والجود لأنه يخالف حكمته ولا تحجير عليه ولا مجبر له على ذلك حاشا لأنه مستخرج من حضرة الألوهية على الصورة الجمعية الأسمائية ولأن وجوده ﷺ قصدا خاصا لله تعالى لإظهار أحكام ربوبيته وانتشار رأفته على بريته. بخلاف حال سائر الكمل من الأولياء والرسل فافهم.

ثم ذكر فى المطلع الرابع من كتابه بعض الأحاديث التى تدل على طهارة نسب النبى ﷺ إلى آدم عليه السلام. نذكر منها:

أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذى كنت فيه) وأخرج البيهقى فى دلائل النبوة عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ما افترق الناس فرقتين إلا جعلنى الله فى خيرهما فأخرجت من بين أبوى فلم يصبنى شئ من عهد الجاهلية).

وأخرج البيهقى فى سننه (ما ولدنى من سفاح الجاهلية شئ ما ولدنى إلا نكاح الإسلام).

وأخرج الطبرانى وأبو نعيم وابن عساكر (خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ولم يصبنى من سفاح الجاهلية شئ) وأخرج مسلم والترمذى وصححه عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم. واصطفانى من بنى هاشم).

قال جلال الدين السيوطى: اعلم أن الأحاديث المذكورة تصرح أكثرها لفظا وكلها معنى أن آباء النبى ﷺ وأمهاته إلى آدم وحواء مطهرون من دنس الشرك والكفر ليس فيهم كافر لأنه لا يقال فى حقه مختار ولا طاهر ولا مصغى بل يقال: نجس قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾ فوجب أن لا يكون فى أجداده مشرك.

مازال منقولا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة. وما زال ينقل نوره من ساجد إلى ساجد كما قال الله تعالى ﴿**الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ أ. هـ.

وقال السيوطى أيضا فى كتاب مسالك الحنفا: وقد أطبقت أئمتنا الأشاعرة من أهل الكلام والأصول والشافعية الفقهاء على أن من مات ولم تبلغه الدعوة. يموت ناجيا. قال: وفى قوله ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ هذه الآية أطبقت أئمة أهل السنة على الاستدلال بها فى أنه لا تعذيب قبل البعثة. وردوا بها على المعتزلة ومن وافقهم فى تحكيم العقل أ.هـ.

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيره عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ قال: إن الله ليس بمعذب أحدا حتى يسبق إليه من الله تعالى خبر وتأتيه من الله بينة.

ويقول الشيخ عبد الله البسنى: وإن اعتربت الآيات التى دلت على دعوة إبراهيم عليه السلام لذريته بالإسلام وبقاء ملته فى عقبه إلى بعثة نبينا محمد ﷺ من ذريته وعدم زوال ملته والأحاديث التى دلت على طهارة نسبه إلى آدم. فأبواه أولى بذلك وأحق من الكل لظهوره منهما على الطهارة الأصلية والنزاهة الذاتية الكلية التى اقتضت كونه مظهرا للصورة الإلهية والجمعية الذاتية واقتضت نزول النسخة القرآنية الجامعة لجميع الكتب الإلهية والحاوية لجميع الكمالات والأخلاق الكمالية الإنسانية على قلبه ﷺ. أ. هـ.

وإذا تقرر هذا فنقول: اعلم أنه لم يثبت لا من الكتاب ولا من السنة ولا من الإجماع ولا من القياس دليل على أن الأبوين الشريفين فى النار ولم يذكر ذلك أحد من الأئمة المجتهدين ولا من أتباعهم. وليس هذا من المسائل التى تتعلق بالاعتقاد الواجب فى شريعتنا. بل الذى يجب اعتقاده واعتماده بعدما أوردنا ما سبق. أن والدى النبى ﷺ من أهل التوحيد وأنهما ناجيان غير معذبين وأنهما من أهل الجنة وأنهما مبرآن من عيب الجاهلين لأنهما أبوان لخير البرية ﷺ.

وأما الفريق الثانى: فقد آثر السلامة وفوض العلم بحالهما إلى الله تعالى.

وأما الفريق الثالث: فقد قال أصحابه بكفرهما وأنهما فى النار، واستدل

هؤلاء ببعض الآيات وبالأحاديث الواردة والتى فهموا منها ذلك قال البرزنجى يرد على هؤلاء :

وأما الأحاديث الدالة على كفرهما وأنهما في النار كحديث «ليت شعرى ما فعل أبواى فنزلت ﴿ **وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ** ﴾ وحديث أنه استغفر لأمه فضرب جبريل فى صدره وقال: لا تستغفر لمن مات مشركا. وحديث: أنه نزل فى أمه ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ** ﴾ .

وحديث أنه قال لابنى مليكة: «أمكما فى النار» فشق عليهما فدعاهما فقال: «إن أمى مع أمكما» فقد أجاب الجلال السيوطى بأن غالب ما يروى فى ذلك ضعيف. ولم يصح فى أم النبى ﷺ سوى حديث: «أنه استأذن فى الاستغفار لها فلم يؤذن له» ولم يصح أيضا فى أبيه إلا حديث مسلم خاصة. وسيأتى الجواب عنهما.

وأما الأحاديث التى ذكرت فحديث: ليت شعرى ما فعل أبواى فنزلت الآية.

لم يخرج فى شئ من كتب الحديث المعتمدة وإنما ذكر فى بعض التفاسير بسند منقطع لا يحتج به ولا يعول عليه.

ثم قال: ثم إن هذا السبب مردود بوجوه أخر من جهة الأصل والبلاغة وأسرار البيان. وذلك أن الآيات من قبل هذه الآية ومن بعدها كلها فى اليهود من قوله تعالى ﴿ **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ** ﴾ ولهذا اختتمت القصة بمثل ما صدرت به. وقوله تعالى ﴿ **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ** ﴾ الآيتين فتبين أن المراد بأصحاب الجحيم كفار أهل الكتاب وقد ورد ذلك مصرحا به فى الأثر.

والجواب عن حديث الاستئذان فى الاستغفار لأمه على التسليم بصحته

على أنه ليس فيه إلا النهى عن الاستغفار فقط دون الكفر أو الكون فى النار فمن أخذ بظاهره كالبيضاوى وغيره فقد تساهل واستروح.

أما أولا: فلأنه لا يلزم من عدم الإذن فى الاستغفار كفرهما بدليل أنه كان فى صدر الإسلام ممنوعا من الصلاة على من عليه دين وهو مسلم فلعله كانت عليها تبعات غير الكفر فمنع من الاستغفار لها بسببها قاله السيوطى.

وأما ثانيا: فلأنه قد عارضته أدلة أرجح منه فى عدم تعذيب أهل الفترة من الآيات والأحاديث واتفق عليها علماء الأصول والكلام فوجب إلغاء هذا أو تأويله وتقديم تلك الأدلة كما هو مقرر فى الأصول ولا يمكن إلغاء تلك الأدلة لقطعيتها.

وأما ثالثا: فلأن الأحاديث الواردة فى الأبوين الشريفين منسوخة بقوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ وأمثاله من الآيات.

كما أجابوا بذلك عن الأحاديث الواردة فى أطفال المشركين أنهم فى النار مع كثرتها بقوله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

ومن هنا علم الجواب عن حديث مسلم الوارد فى أبيه فتنبه.

ثم رأيت المحقق ابن حجر فى (النعمة الكبرى) قد جمع بين أحاديث الاستغفار والإحياء بأن الله تعالى منعه من ذلك حتى يعظم المنة عليه بإحيائهما وإيمانهما وتصديقهما. فتنقلا من حال أهل الفترة - الذى لا يخلو عن تفضيل - إلى حال الإيمان الذى هو أكمل الأحوال وأعلاها. وبكاؤه ﷺ يحتمل أنه لفوات هذه المرتبة فمن الله عليه بتحصيلها لهما. أ. هـ.

وأقول: إن منع النبى ﷺ من الاستغفار لأمه لا يدل على كفرها. وإنما كان المنع لأن أمه ليست من أمته كونها ماتت قبل بعثته ﷺ. وهو لم يؤمر بالاستغفار إلا لمن بعث فيهم وآمنوا برسالته ﷺ. أما هى فمن أهل الفترة. وأهل الفترة ناجون.

وأما ما نسب إلى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه من القول بأنهما ماتا على الكفر وعمه أبو طالب مات كافرا.

فإن ابن حجر الهيثمى فى فتاويه قد بين أن هذا القول لأبى حنيفة محمد ابن يوسف البخارى وليس لأبى حنيفة النعمان إمام المذهب الحنفى فجاءت الشبهة من تشابه اسميهما.

وقال الشيخ عبد الله البسنوى فى المطلع السادس من كتابه المشار إليه سلفا:

يرد على من استدل بحديث «مسلم» على أنهما فى النار وعدم جواز الحكم به على ذلك روى مسلم عن أنس رضى الله عنه: أن رجلا قال: يا رسول الله. أين أبى؟

قال «فى النار» فلما قام دعاه. قال: «إن أبى وأباك فى النار».

روى مسلم أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه ﷺ استأذن فى الاستغفار لأمه. فلم يؤذن له.

اعلم أن لفظة قوله: «إن أبى وأباك فى النار» لم يتفق على ذكرها الرواة وإنما ذكرها حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه. وهى الطريق التى رواها مسلم منها، وقد خالفه معمر عن ثابت. فلم يذكر أن أبى وأباك فى النار. ولكن قال: «إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار».

وهذا اللفظ لا دلالة فيه على والده ﷺ بأمر البتة.

وأخرج البزار والطبرانى والبيهقى من طريق إبراهيم بن سعد عن الزهرى عن عامر بن سعد عن أبيه: أن أعرابيا قال: يا رسول الله. أين أبى؟ قال «فى النار» قال: فأين أبوك؟ قال: «حيث ما مررت بقبر كافر فبشره بالنار».. وهذا إسناد على شرط الشيخين. فتعين الاعتماد على هذا اللفظ وتقديمه على غيره. وقد زاد الطبرانى والبيهقى فى آخره قال: فأسلم الأعرابى بعده. فقال: (لقد كلفنى

رسول الله ﷺ تعبا ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار) فهذه الزيادة أوضحت بلا شك أن هذا اللفظ العام هو الذى صدر منه ﷺ . وأن الأعرابى بعد إسلامه رأى ذلك أمرا مقتضيا للامتثال . فلم يسعه إلا امتثاله ولو كان الجواب باللفظ الأول لم يكن فيه أمر بشئ البتة . فعلم أن اللفظ الأول من تصرف الراوى . وغيره أثبت منه . كذا ذكره السيوطى .

وقال – السيوطى – أيضا : لو فرض اتفاق الرواة على اللفظ . كان معارضا بما تقدم من الأدلة . والحديث الصحيح إذا عارضته أدلة أخرى أرجح منه . وجب تأويله وتقديم تلك الأدلة عليه كما هو مقرر فى الأصول .

وبهذا الجواب الآخر يجاب عن حديث عدم الإذن فى الاستغفار لأمه على أنه يمكن فيه دعوى عدم الملازمة . بدليل أنه كان فى صدر الإسلام ممنوعا عن الصلاة على من عليه دين وهو مسلم فلعلها كانت عليها تبعات غير الكفر فمنع من الاستغفار لها بسببها .

وقال البسنوى أيضا : فلما طلب ﷺ الإذن بالاستغفار لأمه علم أنها قبضت فى الإسلام على الإيمان لأنه ﷺ لا يطلب المحال ولا الأمر الذى لا يرضى به ربه . فمجرد طلبه الإذن بالاستغفار لها فيه كفاية فى الدلالة على سعادتها سواء أذن فى الاستغفار لها أم لم يؤذن . أو استغفر لها أو لم يستغفر فلا يستدل مسلم بحديث (مسلم) على أن أبويه من أهل النار أ . هـ.

والذى أعتقده وأومن به – طول حياتى – أن والدى النبى ﷺ ناجيان وأنهما فى الجنة وما ترددت فى هذا أبدا لأمرين أساسيين هما :

الأول : أن أبوى النبى ﷺ يدخلان فى الرحمة ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ﴾ وسوف يرضيه ربه فى أصوله وفروعه وأمته ونسائه .

الثانى : هما من أهل الفترة . وأهل الفترة ناجون بإجماع علماء الأصول والعقيدة والله تعالى أعلم بالصواب .

تحذير ورجـــاء

روى أحمد فى مسنده والترمذى فى سننه والطبرانى واللفظ له: قال رسول الله ﷺ: «لا تؤذوا الأحيـاء بسب الأمـوات» وروى السـهـيلى فى الروض الأنف الحديث «لا تسبوا مضر ولا ربيعة فإنهما كانا مؤمنين».

وأخرج وكيع بسنده عن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا ربيعة ولا مضر فإنهما كانا مسلمين» فالحذر الحذر من ذكر أبوى النبى ﷺ بنقص قد يؤذيه ﷺ. وقد منع العلماء والمحققون من إطلاق الكفر عليهما أو كونهما فى النار.

روى أن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه حين قال له كاتبه أصلح الله الأمير ما على من كان أبوه كافرا. كان أبو النبى ﷺ مشركا. فقال عمر: آه ثم سكت. ثم رفع رأسه ثم قال: اقطع لسانه؟ أقطع يده ورجله؟ أضرب عنقه؟ ثم قال: لا تلى لى شيئا ما بقيت ثم عزله عن ولايته عزل الأبد. وبمثل عمر بن عبد العزيز يقتدى فى الدين وقال جلال الدين السيوطى: وجدت بخط الشيخ كمال الدين الشمنى الحنفى ما نصه: سئل القاضى أبو بكر بن العربى – المالكى الفقيه الأصولى المحدث المفسر – عن رجل قال: إن أبا النبى ﷺ فى النار.

فأجاب بأنه ملعون لأن الله تعالى قال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا** ﴾ ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبيه أنه فى النار.

وقال السـهـيلى فى الروض الأنف بعد إيراده حديث مسلم: وليس لنا أن نقول ذلك فى أبويه لقوله ﷺ «لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات» وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..** ﴾.

وقال الباجى: لا يجوز أن تؤذى النبى ﷺ بمباح ولا غيره وقال العلامة ابن حجر الهيثمى فى فتاويه: وإياك أن يسبق لسانك إلى غير ما قلناه – يعنى من

النجاة - فتكون ممن آذى رسول الله ﷺ فتستحق اللعنة بنص القرآن كما قدمناه عن ابن العربى . وإذا كان رسول الله ﷺ قال لما اشتكى إليه عكرمة بن أبى جهل قول الناس هذا ابن أبى جهل (لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات) هذا مع كونه أبا جهل . فما ظنك بمن يتكلم فى آبائه ﷺ وهو ما قرره أيضا فى كتابه « النعمة الكبرى » . فهذه تصريحات العلماء ومقولاتهم التى تنهى عن ذكر آباء النبى ﷺ بما يكره من نسبتهما إلى الكفر والحكم عليهما بدخول النار .

وأعتقد أنه لا يجوز لمسلم أن يتفوه بالقبيح من القول فى أبوى النبى ﷺ . لأن ذلك يتنافى مع ادعاء محبة الرسول ﷺ ولولا مخافة التطويل لذكرنا العديد من مقالات العلماء وتقريراتهم . ونكتفى بهذا القدر لمن كان له قلب ملئ بحب الله وحب رسوله ﷺ وأختم هذا القول بذكر ما كتبه إلى أخ فاضل [1] محب لله ولرسوله ﷺ ونصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم . وصلاة الله وسلامه على سيد المرسلين - أشهد الله أنى رأيت سيدتنا وأمنا السيدة آمنة بنت وهب وهى تخرج من داخل مستطيل يعلو على الأرض بحوالى متر تقريبا إلى سهل فسيح . وهو سهل الأنوار والسعادة وقد انعكس هذا السهل على كل من حوله وفيه علمت أن هذه هى سيدتنا آمنة بنت وهب .

وأشهد الله أن سيرة سيدتنا عليها رضوان الله لم تخطر على بالى منذ بضع سنين ولم ترد فى أى حديث مع شخص آخر معى منذ أمد بعيد . والله على ما أقول شهيد) فهذه رؤيا صادقة منَّ الله تعالى عليه بها . وهو رجل نثق فى معرفته ودينه وصدقه وإخلاصه . أرجوا الله تعالى أن يديم عليه نعمة التوفيق والهداية والله المستعان . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وبعد تسجيل هذه الرؤيا - والتى اعتبرتها خاتمة الحديث عن هذا المسألة -

---

(١) الأخ الحاج محمد محمود هاشم بارك الله فيه .

أحسست برغبة فى النوم . فنمت . فرأيت فى نومى السيدة : آمنة فى صورة طيبة يعلوها البهاء . ومعها غلمان صغار . وعلمت من خلال الرؤيا أنها كانت على فطرة الإسلام وماتت عليها وعرفت أن هؤلاء الصبيان هم ولدان أهل الجنة . فقمت من نومى مستبشرا . اللهم أرضى نبيك وحبيبك المصطفى ﷺ فى أبويه وفى أهله وذويه وفى أمته وفى ذريته . كما وعدته ﷺ إنك نعم المولى ونعم النصير .

(١) خاتم النبيين ﷺ

سيدنا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين جميعا . ختم الله تعالى به النبوة والرسالة . وختم بكتابه الكتب السماوية . فهو مسك الختام .

إنه آخر المرسلين وجودا ورسالة . وأولهم رتبة ومنزلة فهو سيد ولد آدم فى الدنيا وفى الآخرة . اصطفاه ربه عز وجل من المصطفين الأخيار . واختاره من أعلى سلالات بنى آدم قال الله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

وروى أن النبى ﷺ قال : (إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه . وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة . وجعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتا . فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا) [رواه أحمد] .

وروى أن رسول الله ﷺ قال : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وما من نبىٌ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى) [رواه الترمذى] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال فى قوله تعالى : ﴿ **وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ** ﴾ [الشعراء : ٢١٩] قال : من نبى إلى نبى حتى أخرجك نبيا) [أخرجه البزار وأبو نعيم وابن سعد بسند صحيح] .

وقال الإمام جعفر بن محمد (الصادق) رضى الله عنهما : علم الله عجز

خلقه عن طاعته . فعرفهم ذلك . لكى يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته . فأقام بينهم وبينه مخلوقا من جنسهم فى الصورة وألبسه من نعته الرأفة والرحمة وأخرجه إلى الخلق سفيرا صادقا وجعل طاعته . طاعته . وموافقته . موافقته فقال تعالى : ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ [النساء: ٨٠] وقال ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] . أ.هـ .

(٢) نسبه الشريف ﷺ

هو : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . الذى ينتهى نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام .

وأمه : آمنة بنت وهب من بنى زهرة والذى يتصل نسبها بهذا النسب الشريف .

فكل آبائه وأجداده ﷺ هم من السادة الأشراف ونسبه من أشرف الأنساب ولم يبعث الله نبيا إلا فى أشرف نسب . روى البخارى فى الصحيح : لما سأل (هرقل) ملك الروم أبا سفيان عن رسول الله ﷺ قال : كيف نسبه فيكم؟ قال : هو فينا ذو نسب . فأجابه هرقل بقوله (كذلك الرسل تبعث فى أنساب قومها) يعنى فى أكرم قومها حسبا وأشرفها قبيلة .

وقد كانت ولادته ﷺ ولادة الطهر والشرف ولم يصبه من عهر الجاهلية شئ . لقد كان بنكاح صحيح يشبه نكاح الإسلام .

قال ﷺ : (إنى خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح) وفى رواية عائشة (ولدت من نكاج غير سفاح) وقال ﷺ (إن الله اصطفى من ولد ابراهيم . إسماعيل واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم) وفى بعض الروايات (فأنا خيار من خيار من خيار) رواه مسلم .

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ من أنفسكم ﴾ قال : (نسبا وصهرا وحسبا ليس فى آبائى من لدن آدم سفاح كلنا نكاح) السفاح : الزنا .

قال ابن الكلبى - محمد بن السائب المفسر النسابة - كتبت للنبى ﷺ خمسمائة أم . فما وجدت فيهن سفاحا ولا شيئا مما كان عليه الجاهلية .

(٣) ولادته ﷺ :

ولد النبى ﷺ فى يوم الإثنين . الثانى عشر من ربيع الأول عام الفيل (سنة ٥٧٠ ميلادية) .

قال ابن كثير فى البداية والنهاية : (وهذا ما لا خلاف فيه أنه ولد يوم الإثنين) .

وروى أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين واستنبئ يوم الإثنين وخرج مهاجرا من مكة إلى المدينة يوم الإثنين وتوفى يوم الإثنين) وأما كونه ولد عام الفيل فلا خلاف فيه . ولكنهم اختلفوا فى اليوم والشهر . والجمهور على أنه فى الثانى عشر من ربيع الأول . كما نص عليه ابن إسحاق فى السيرة .

وروى عن ابن عباس أنه قال : (ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الإثنين . الثانى عشر من شهر ربيع الأول . وفيه عرج به إلى السماء - فيه نظر - وفيه هاجر وفيه مات) .

قال فى البداية والنهاية : وهذا هو المشهور عند الجمهور .

لقد وضعته أمه بعد تمام حمله . وقد صاحب حمله ﷺ ووضعه الإرهاصات الدالة على نبوته وعظم شأنه وقد أتتها البشائر الواحدة تلو الأخرى بما أثلج صدرها ورأت فى القادم ﷺ عوضا لها عن فقدها لأبيه الذى خطفه الموت قبل أن تكتمل به سعادتها التى انتزعت منها بعد أربعين يوما من زواجها

لم تحظ منها فى معيته سوى عشرة أيام فقط رحل بعدها فى قافلة التجارة ولم يعد إليها إلا خبر وفاته، فكان الوليد ﷺ أكبر وأعظم عوض لها ومسح الله به دموعها التى لم تجف حزنا على زوجها الذى لن تكتحل عيناه برؤية ولده التى عرفت من بشرياتها أن ابنه سيكون له شأن. ولكن ما هذا الذى ينتظره. وما حقيقته؟ إنها لا تدرى وما علمت أنها أم لسيد بنى آدم. رحمة الله للعالمين.

ولما وضعته ﷺ طار الخبر إلى جده: عبد المطلب الذى فتت الحزن كبده حزنا على ولده - فجاء إليها مسرعا. ولم تكد عيناه تقع على المولود حتى ذهب حزنه. واستبدله فرحا وسرورا فحمله على يديه وذهب به إلى بيت الله الحرام والسعادة تغمر قلبه وطاف به حول البيت.

ويسأله من حول الكعبة: ماذا سميت ولدك؟

إنى سميته محمدا. رجاء أن يحمد فى السماء ويحمده أهل الأرض وكذلك فرح بمولده أعمامه وعماته. حتى أن عمه أبا لهب لما بشرته جاريته بولادته. أعتقها حرة لوجه الله تعالى. سبحان الله تعالى فما كان أبو لهب ساعتئذ يدرى أنه سوف يكون بعد أربعين عامًا من ألد أعداء الوافد الجديد ﷺ حتى أنزل الله تعالى فيه قرآنا يتوعده بالعذاب الأليم ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ وعاد به عبد المطلب إلى أمه بعد أن طاف به حول البيت الحرام وطلب منها أن ترعاه وأن تحافظ عليه. وما كان عبد المطلب يدرى أن أمر رعايته والعناية به ليس متروكا لأهل الأرض وإنما هو فى عناية الله تعالى ورعايته ﴿ **فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** ﴾. ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ** ﴾.

واحتضنته السيدة آمنة وهى تحلم وتتمنى أن تراه رجلا كبيرا وشابا فتيا يشار إليه بالبنان كسائر فتيان أهل مكة وخيرة شبابها وما كان يقع فى مخيلتها ما آل إليه أمر ولدها. فلم يكن سيدا لشباب مكة فحسب. وإنما هو سيد العالمين. المبعوث رحمة للعالمين ﷺ.

(٤) أسماؤه ﷺ :

هو سيدنا محمد ﷺ ويكنى (أبا القاسم) و(أبا إبراهيم) (تسموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى) ﷺ .

وله ﷺ عدة أسماء وصفات عدها البعض أكثر من مائتى اسم وصفة وردت فى القرآن وفى السنة وذكر البعض أن الله عز وجل قد خلع عليه من أسمائه وصفاته سبعين اسمًا وصفة، وأقول إن لأسمائه ﷺ حقيقة تخالف حقيقتها بالنسبة لله تعالى . فالرب . رب والنبى نبى . والفارق بين الخالق والمخلوق لا حدود له ولا نهاية له إن لله عز وجل الكمال المطلق فى أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى وتعدد أسماء وصفات النبى ﷺ إنما هو للتشريف ورفع الرتبة وعلو المنزلة . فافهم . إن تعدد الأسماء يدل على شرف المسمى وقد ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية من أسمائه ﷺ محمد وأحمد والماحى الذى يمحو الله به الكفر . والعاقب الذى ليس بعده نبى والحاشر الذى يحشر الناس على قدميه . ونبى الرحمة ونبى التوبة ونبى الملحمة . والفاتح . وطه ويس . وخاتم النبيين وقال القاضى عياض فى الشفا : وقد سماه الله تعالى فى كتابه محمدا وأحمدا . فمن خصائصه تعالى له أن ضمن أسماءه ثناءه . وطوى – كتم وأخفى – أثناء ذكره عظيم شكره .

ويقول : فى هذين الإسمين من عجائب خصائصه وبدائع آياته فن آخر وهو أن الله جل اسمه : حمى أن يسمى بهما أحد قبل زمانه أما أحمد الذى أتى فى الكتب وبشرت به الأنبياء . فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمى به أحد غيره . ولا يدعى به مدعو قبله حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أوشك .

وكذلك محمد أيضا لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده ﷺ وميلاده أن نبيا يبعث اسمه : محمد . فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك . رجاء أن يكون أحدهم هو . والله أعلم حيث يجعل رسالاته .

وهم : محمد بن أحيحه بن الجُلاح الأوسى . ومحمد بن مسلمة الأنصارى ومحمد بن براء البكرى ومحمد بن سفيان بن مجاشع ومحمد بن حمران الجعفى ومحمد بن خزاعة السلمى . لا سابع لهم .

ثم حمى الله كل من تسمى به أن يدعى النبوة أو يدعيها أحد له أو يظهر عليه سبب يشكك أحدا فى أمره حتى تحققت السمتان له ﷺ ولم ينازع فيهما .

هذا وقد أورد القاضى والسيوطى والقسطلانى وغيرهم للنبى ﷺ أسماء وأوصاف كثيرة فى كتبهم التى تعدد خصائصه ﷺ [1] .

(٥) مرضعاته ﷺ :

أرضعته ﷺ أمه (آمنة بنت وهب) و(ثويبة الأسلمية) و(أم أيمن الحبشية) و(خولة بنت المنذر) وأكثرهن إضاعا له (حليمة السعدية) رضى الله عنها .

قدمت حليمة إلى مكة مع عشر نسوة من بنى سعد إلى مكة المكرمة يلتمس الرضعاء فى سنة شهباء شديدة المجاعة . فعرض عليهن ﷺ لإرضاعه . فما قبلته امرأة منهن لأنه يتيم وجاءت حليمة إلى جده عبد المطلب . تطلب رضيعا فقال لها : إن عندى غلاما يتيما وقد عرضته على نساء بنى سعد فأبين أن يأخذنه . فهل لك أن ترضعيه فعسى أن تسعدى به ؟ .

فعرضت الأمر على زوجها (الحارث بن عبد العزى) فقال لها (لا بأس عليك أن تفعلى فعسى أن يجعل الله لنا فيه خيرا وبركة) وهو ما كان بفضل الله تعالى .

تقول حليمة رضى الله عنها : فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلى فأقبل

---

(١) الشفا للقاضى عياض والمواهب للقسطلانى والخصائص الكبرى للسيوطى وسنذكر فيما بعد أسماءه بالتفصيل .

عليه ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى روى وشرب أخوه حتى روى وقام زوجى إلى شارفنا فإذا بها مملوءة لبنا . ثم شرب وشربنا حتى روينا فبتنا بخير ليلة . فقال زوجى : يا حليمة والله إنى لأراك أخذت نسمة مباركة . ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة .

ثم خرجنا راجعين فقطعت الركب بأتانى حتى ما يسبقنى أحد . فكلما مررت على صواحبى قلن لى . يا حليمة . هذه أتانك التى خرجت عليها معنا؟ فأقول نعم والله إنها لهى . فيقلن والله إن لها لشأنا . قالت : حتى أتينا أرض سعد . وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها . فكانت غنمى تسرح ثم ترجع شباعا لبنا نحلب منها ما شئنا . وترجع أغنامهم جياعا ما فيها قطرة لبن . فلم يزل الله تعالى يرينا الخير والبركة حتى بلغ سنتين فكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاما جفرا قويا . [ذكره ابن إسحاق فى السيرة] وقال أيضا : إن بعض الصحابة سألوا رسول الله ﷺ فقالوا :

خبرنا عن نفسك قال : نعم . أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام رأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام واسترضعت فى بنى سعد بن كعب . فبينا أنا فى بهم لنا أتانى رجلان عليهما ثياب بيض . معهما طست من ذهب مملوء ثلجا فأضجعانى فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها . ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى إذا أنقياه رداه كما كان . ثم قال أحدهما لصاحبه زنهُ بعشرة من أمته فوزننى بعشرة فوزنتهم ثم قال زنه بمائة من أمته فوزننى بمائة فوزنتهم ثم قال : زنه بألف من أمته فوزننى بألف فوزنتهم . فقال : دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم . قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد قوى . وهو مروى فى الصحيحين إ.هـ.

والصحيح أن النبى ﷺ قد شق صدره أربع مرات مرة عند حليمة السعدية ومرة فى استقباله لشبابه ومرة عند رسالته والرابعة عند قيامه برحلتى الإسراء والمعراج .

ولما وقعت حادثة شق صدره خافت عليه حليمة. فعادت به إلى أمه بمكة فقالت لحليمة وزوجها: ما شأنكما لقد كنتما عليه حريصين؟ فقالا لها: لقد خشينا عليه التلف والحدث - وحدثاها بالقصة - فقالت: أخشيتما عليه الشيطان؟ كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل. والله إنه لكائن لابني هذا شأن. ثم قالت: ألا أخبركما خبره؟ فقلنا: بلى، قالت: إني لما حملت به ما حملت حملا قط أخف منه. فأريت في النوم حين حملت به كأنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام. ثم لما ولدته رأيت منه عجبا. رأيته رافعا رأسه إلى السماء معتمدا على يديه. كأنه يريد أن يتكلم. فدعا عنكما. أ. هـ.

هذا وقد أول بعض العلماء حادثة شق الصدر بتأويلات تخالف حقيقة الواقع. وما علموا أن ذلك أمر هين على من يقول للشئ كن فيكون ولو كانوا فى عصرنا هذا فماذا كانوا يقولون عن عمليات شق الصدر وزرع القلب. أليس شق صدر رسول الله ﷺ أمرا ممكنا وقد وقع كما روى فى صحيح الروايات.

ولما بلغ أربع سنوات أرجعته حليمة السعدية رضى الله عنها إلى أمه فبقى عندها فى رعاية جده: عبد المطلب وتحت عنايته فى كلاءة الله ورعايته وحفظه. ينبته الله نباتا حسنا لما هو مقبل عليه.

(٦) حياة الرسول ﷺ :

نشأ رسول الله ﷺ على اليتم والاغتراب وخشونة العيش وآلام الحياة. لقد توفى أبوه وهو فى بطن أمه فولد يتيما محروما من عطف الأب وحنانه.

ولما بلغ من العمر ست سنوات أخذته أمه (آمنة بنت وهب) وذهبت به إلى المدينة المنورة لزيارة بنى النجار أخوال أبيه فماتت وهى راجعه إلى مكة فى (الأبواء) مكان بين مكة والمدينة فعادت به جاريته التى ورثها عن أبيه (أم أيمن الحبشية) إلى مكة فأصبح رسول الله ﷺ يتيم الأبوين وهو ما زال بعد غلاما صغيرا. فكفله جده عبد المطلب عامين. وكان جده يحبه ويكرمه. كما كان

يدنيه منه ويجلسه على فراشه الذى كان يفرش له فى ظل الكعبة. ويقدمه بذلك على أعمامه فإذا حاول أحدهم منعه يقول لهم أبوهم: دعوا ابنى فوالله إن له لشأنا ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويلاطفه.

وهذا من عناية الله تعالى به وجميل إحسانه إليه ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ** ﴾.

وبعد وفاة جده عبد المطلب كفله عمه أبو طالب تنفيذا لوصية أبيه له وهو ابن أخيه. وقد عاش فى كفالة عمه حتى بلغ سن الشباب فاشتغل برعى الغنم – وتلك سنة الأنبياء – ثم تركها واشتغل بالتجارة. فذهب مع عمه فى قافلة التجارة إلى بلاد الشام وفى هذه الرحله تيقن أبو طالب بأن ابن أخيه سيكون له شأن ثم اشتغل بالتجارة فى مال السيدة: خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فكان يذهب مع قوافل التجارة يبيع ويشترى وكان يأتيها بالمال الوفير فعجبت به.

ولما بلغ عمره خمسة وعشرين عاما عرضت خديجة عليه – عن طريق إحدى النساء – أن يتزوجها. لقد اختارته دون غيره لما رأت فيه من أمارات الخير والبركة. فتزوجها رضى الله عنها. وكانت لبيبة عاقلة وثرية غنية ﴿ **وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ** ﴾ أى كنت فقيرا فأغنيناك بمال خديجة. وكان له منها الولد فلقد ولدت لـــه:

١ – (القاسم) وهو أكبر أبنائه وبه يكنى صلوات الله وسلامه عليه وقد عاش سنتين ثم مات.

٢ – (عبد الله) وهو الثانى من الذكور ومات صغيرا فى حياة النبى.

٣ – (زينب) وهى أكبر بناته تزوج منها أبو العاص ابن خالتها.

٤ – (رقية) تزوج منها عثمان بن عفان وتوفيت والمسلمون عائدون من بدر.

٥ – (أم كلثوم) تزوج منها عثمان بن عفان بعد وفاة رقية بعام.

٦ - (فاطمة الزهراء) صغرى بناته . وهى سيدة نساء العالمين تزوج منها على بن أبى طالب فولدت له الحسن والحسين ومحسن - مات رضيعا - وزينب (أم هاشم) وأم كلثوم (زينب تزوج منها عبد الله بن جعفر وأم كلثوم تزوج منها عمر بن الخطاب ماتت زينب ودفنت بمصر وماتت أم كلثوم ودفنت بالمدينة) وكل الذرية الصالحة من آل بيت النبوة هم أبناء على وفاطمة .

٧ - (إبراهيم) ولدته مارية القبطية . مات رضيعا قبل وفاة النبى ﷺ بستة أشهر .

وكل أبنائه ﷺ وبناته ماتوا فى حياته إلا السيدة فاطمة الزهراء فهى التى ماتت بعد وفاته بستة أشهر رضى الله عنهم جميعا .

ولم يتزوج رسول الله ﷺ بأخرى إلا بعد وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها .

لقد عاش رسول الله ﷺ مع السيدة خديجة رضى الله عنها عيشة هنية مرية . غمرته فيها بحنانها وأوسعته بما لها وأسعدته بما أنجبته من أولاده رضى الله عنهم .

وكانت تعد له ما يتجهز به للخلوة فى (غار حراء) مدة شهر فى السنة يتعبد فيه بعيدا عن الناس . ولكن ماذا كان شكل هذه العبادة وما كيفيتها؟ .

(أ) فى غار حراء :

قد اختلف العلماء : هل كان ﷺ قبل بعثته متعبدا بشرع من قبله أم لا ؟

فقال جماعة : لم يكن متعبدا بشئ وهو قول الجمهور واحتجوا بأنه لو كان كذلك لنقل . ولما أمكن كتمه وستره فى العادة . إذ كان من مهم أمره . وأولى ما اهتبل به من سيرته . ولفخر به أهل تلك الشريعة . ولاحتجوا به عليه . ولم يؤثر شئ من ذلك .

وذهب طائفة إلى امتناع ذلك عقلا . قالوا : لأنه يبعد أن يكون متبوعا من عرف تابعا . . والتعليل الأول المستند إلى النقل أولى .

وذهب آخـرون إلى الوقف فى أمـره ﷺ وترك قطع الحكم عليـه بشئ من ذلك . إذ لم يحل الوجـهين منهـما العـقل وهذا مـذهب الإمام أبو المعالى إمام الحرمين وكـذا الغزالى والآمـدى وقال آخـرون : كـان عـاملا بشـرع من قـبله . ثم اختلفوا : هل يتعين ذلك الشرع أم لا؟ فوقف بعضهم عند التعيين وأحجم وجسر بعضهم على التعيين وصمم . ثم اختلفت هذه المعينة فيمن كان يتبع . فقيل نوح وقيل ابراهيم وقيل موسى وقيل عيسى (عليهم السلام) .

فهذه جملة المذاهب فى هذه المسألة . والأظهر فيها ما ذهب إليه القاضى أبو بكر – الباقلانى –وأبعدها مذاهب التعيين . إذ لو كان شئ من ذلك لنقل – كما قدمناه – ولم يخف جملة . ولا حجة لهم فى أن عيسى عليه السلام آخر الأنبياء . فلزمت شريعته من جاء بعده . إذ لم يثبت عموم دعوة عيسى – فدعوته كانت لبنى إسرائيل – بل الصحيح أنه لم يكن لنبى دعوة عامة إلا لنبينا ﷺ . أ.هـ. ما لخصه القسطلانى من كلام القاضى عياض فى الشفا ثم أتبعه بقوله : وهو كلام حسن بديع . لكن قوله : فهذه جملة المذاهب . فيه نظر . لأنه بقى منها شئ . فقد قيل شريعة آدم أيضا وهو محكى عن ابن برهان . وقيل : جميع الشرائع . حكاه صاحب « المحصول » من المالكية .

وقال شيخ الإسلام البلقينى فى شرح البخارى : لم تجئ فى الأحاديث التى وقفنا عليها كيفية تعبده ﷺ . لكن روى ابن إسحاق وغيره . أنه ﷺ كان يخرج إلى حمراء فى كـل عـام شـهرا من السنة يتنسك فيه . وكـان مـن تنسك قريش فى الجـاهليـة أن يطعـم الرجل من جـاءه من المسـاكين . حـتى إذا انصـرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة . وحمل بعضهم التعبد على التفكر وقال : وعنـدى أن هـذا التعـبد يشـتمل على أنواع : وهى الانعزال عن الناس . كـما صنع ابراهيم عليـه السلام باعـتزاله قـومـه والانقطاع إلى الله تعالى . فـإن « انتظار الفرج عـباده » كـما رواه على بن أبى طالب مرفوعا . وينضم إلى ذلك الأفكار .

وعن بعضهم: كانت عبادته ﷺ في حراء التفكر [1] . انتهى وأنا أميل إلى القول بما ذكره الإمام البلقيني الشافعي رحمه الله لأن الخلوة هي بعد عن الناس الذين انتشر بينهم فساد في العقيدة وظهور البدع والمنكرات . وقد كان ذلك بمكة المكرمة فالانعزال يكون عندئذ ضروري ليخفف عن الصدر ما ضاق به منتظراً أمر ربه عز وجل . وهو يفكر ويتأمل في تدبير الله في ملكه . والنبي ﷺ على فطرة النبيين التي لم تقبل ولم تستسغ ما عليه قومه . لذلك كان دائما بعيدا عنهم وعن منتدياتهم .

وقد ظل هكذا وهو يتطلع إلى قدوم فرج الله عز وجل حتى بلغت سنه الأربعون عاما . وهو في خلوته بغار حراء إذ فاجاه الوحي بأمر الله عز وجل . وهذا هو الفرج المنتظر للبشر كلهم .

(ب) بعثته ﷺ :

في سنة (٦١٠ ميلادية) من ميلاد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بعث الله عز وجل نبيه محمدا ﷺ بشيرا ونذيرا وأرسله رحمة للعالمين وكافة للناس يدعوهم إلى الله عز وجل ليؤمنوا به ويعبدوه عبادة خالصة لوجهه الكريم ووعدهم على ذلك المثوبة والأجر العظيم . وكان ذلك في شهر رمضان وهو بغار حراء بعد تمام الأربعين من عمره الشريف ﷺ . فنزل عليه الوحي بأمر الله عز وجل .

روى البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم . وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب له الخلاء . وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله . ويتزود

---

(١) حديث علي بن أبي طالب أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي والديلمي وراجع ما نقله القسطلاني في المواهب اللدنية ٤ / ١١ – ١٤ .

لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها . حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثالثة . ثم أرسلنى فقال ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده . فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زملونى . زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم . وتحمل الكل وتكسب المعدوم . وتقرى الضيف . وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزى - ابن عم خديجة - وكان امرءا تنصر فى الجاهلية . وكان يكتب الكتاب العبرانى . فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب . وكان شيخا كبيرا قد عمى . فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة . يا ابن أخى ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزّل الله على موسى . يا ليتنى فيها جذعا . ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ أو مخرجى هم؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى . وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة أن توفى . وفتر الوحى) [1] .

وروى البخارى . أن جابر بن عبد الله الأنصارى . قال : وهو يحدث عن فترة الوحى - فقال فى حديثه - : بينما أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء . فرفعت بصرى . فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض . فرعبت منه فرجعت . فقلت : زملونى . فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا

---

(١) فتح البارى ١ / ٢٨ ، ٢٩ .

﴿ الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ – إلى قوله – وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ فحمى الوحى وتتابع [1] لقد نبئ رسول الله ﷺ بسورة اقرأ. وأرسل بسورة المدثر.

لقد كانت دعوة أبينا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧ – ١٢٩].

وقال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

[آل عمران: ١٦٤]

وما بشر به سيدنا عيسى عليه السلام ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦].

فالكتاب. هو القرآن الكريم. والحكمة هى السنة كما قرره وحققه الإمام الشافعى رضى الله عنه فى «الرسالة».

أرسل نبيه محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا * مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٨، ٢٩].

فهو رسول الله ورسالته باقية ولم تنته بوفاته ﷺ. ولكن الذى توقف بالوفاة هو التبليغ ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

قال أبو المعين النسفى [2] صاحب «التبصرة» فى علم التوحيد:

---

(١) فتح البارى ١ / ٣٦، ٣٧.

(٢) غير النسفى صاحب التفسير، والنسفى صاحب العقائد النسفية.

إن الأشعرى قال: إنه ﷺ الآن فى حكم الرسالة وحكم الشئ يقوم مقام أصل الشئ. ألا ترى أن العدة تدل على ما كان من أحكام النكاح. انتهى.

وقال غيره: إن النبوة والرسالة باقية بعد موته ﷺ حقيقة. كما يبقى وصف الإيمان بعد موته. لأن المتصف بالنبوة والرسالة والإيمان هو الروح. وهى باقية لا تتغير بموت البدن. انتهى.

وتعقب بأن الأنبياء أحياء فى قبورهم فوصف النبوة باق للجسد والروح معا.

وقال القشيرى: كلام الله تعالى لمن اصطفاه: أرسلتك أن تبلغ عنى. وكلامه تعالى قديم. فهو ﷺ قبل أن يوجد كان رسولا. وفى حال كونه وإلى الأبد رسولا. لبقاء الكلام وقدمه واستحالة البطلان على الإرسال الذى هو كلام الله تعالى.

ونقل السبكى فى طبقاته عن ابن فورك أنه قال: إنه ﷺ حى فى قبره رسول الله إلى أبد الآباد على الحقيقة لا المجاز. انتهى [1].

وقال تعالى في مقام المن على هذه الأمة: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾

[الجمعة: ٢]

أمة أمية بعث فيهم نبيا أميا ومعجزته الخالدة هى القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٨] ومع ذلك – رغم تصديقهم له – لم يؤمنوا برسالته وكذبوا بما جاء به. ﴿ **فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ [الانعام: ٣٣].

---

(١) ذكر هذه الأقوال القسطلانى فى المواهب ٣/١٥٤، ١٥٥.

روى أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

إن رجلا قال : والله يا محمد ما كذبتنا قط فنتهمك اليوم ولكنا إن نتبعك نتخطف من أرضنا فنزلت هذه الآية .

وروى ابن أبى حاتم قال : روى أن أبا جهل لقيه فصافحه فقيل له : أتصافحه؟ فقال : والله إنى لأعلم أنه نبى . ولكن متى كنا تبعا لبنى عبد مناف؟ فأنزل الله الآية .

وروى مثله عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال أبو جهل للنبى ﷺ : إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به . فأنزل الله تعالى الآية .

والمعنى : أنهم بحسدهم وعصبيتهم ينكرونه مع العلم بصحته إذ الجحد هو الإنكار مع العلم . فهم يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ولكن الله سبحانه وتعالى قد هدى غيرهم فآمنوا به استجابة لله ولرسوله ﷺ .

فكان في طليعة هؤلاء : السيدة : خديجة بنت خويلد زوجه وأم أولاده التى شرفها الله تعالى بأن أعقب منها كل أبناء رسول الله ﷺ وذريته إلى يوم القيامة .

لقد آمنت برسول الله ﷺ منذ الوهلة الأولى ووقفت بجواره تؤيده وترعاه بدفئها وحنانها وإيمانها به وبما جاء به حتى وفاتها ثم زيد بن حارثة . مولاه . ثم على بن أبى طالب كرم الله وجهه ثم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ثم عثمان بن عفان رضى الله عنه ثم عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ثم تبعهم وجاء من بعدهم سعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام وسعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب وعمار بن ياسر وأبوه وأمه . وبلال ، وطلحة بن عبيد الله وعمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وحمزة بن عبد المطلب وغيرهم رضى الله عنهم وأخذت مسيرة الدعوة المحمدية تمشى رويدا . رويدا . والنبى ﷺ يواجه أهل مكة ويحاورهم فى موقف قوى وصلب وجرأة لا نظير لها وهو يقول لعمه أبى طالب : (والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى

أبلغه أو أهلك دونه) لقد كانت عظمة المصطفى ﷺ تتجلى فى شجاعته وجرأته وصلابته وقوته فى إظهار الحق وتبليغ دعوة ربه عز وجل . فما أيس وما ضعف وما وهنت عزيمته وما خارت قواه ﷺ ولا غرابة . فهو رسول الله الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله بالحجة والبيان وبالنصر والغلبة والتأييد حتى يظهر على مخالفيه ويكون منصورا .

وكما تعرض لأهل مكة تعرض أيضا للقبائل المحيطة بها ولحجاج بيت الله الحرام وذهب إلى الطائف فأعرض عنه أهلها وأحالوا عليه صبيانهم وعبيدهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين فشكا لربه عز وجل (اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس . يا رب المستضعفين أنت ربى إلى من تكلنى إلى قريب بتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى . يا رب . إن لم يكم بك غضب على فلا أبالى) .

فجاءت رسل السماء بأمر ربها عز وجل (لو أمرتنى أن أطبق عليهم الأخشبين – الجبلين – لفعلت) .

فرفع يديه مرة أخرى وقال : (اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون) فقال له سيدنا جبريل عليه السلام (سبحان من سماك الرؤوف الرحيم) فعاد النبى ﷺ وهو حزين على أمته حزت خوف عليهم من الهلاك .

وتصدى الجبابرة من أهل مكة لدعوته . وأرهقوا أتباعه بالتنكيل بهم فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة وقال لهم (إن بها ملكا لا يظلم عنده أحد) وهاجروا إليها مرتين يتقدمهم سيدنا عثمان بن عفان وزوجته السيدة رقية بنت الرسول ﷺ .

ولم يفت هذا فى عضد النبى ﷺ . فقد كانت عزيمته تزداد يومًا بعد يوم وعظمته تجلو بهاء ونورا فى كل يوم وإصراره على تبليغ رسالته يقوى فى كل لحظة . وتوكله على الله يزيده حسنا وبهاء . وفى كل يوم بل فى كل لحظة يزداد

ثقة فى تحقيق آماله فى إثبات نبوته عند الناس فيدخلون فى دين الله أفواجا وأفرحه أخبار النجاشى الذى أسلم واحتضن أتباعه وأصحابه ففتح بذلك ميدانا جديدا للدعوة ومركزا ثانيا للتبليغ فعبر الإسلام بذلك إلى افريقيا . فى أقوى مركز للكنيسة النصرانية .

وفى السنة الحادية عشرة من البعثة مات عمه أبو طالب وتوفيت زوجته العظيمة السيدة خديجة رضى الله عنها ودفنت بالمعلى – مقبرة أهل مكة – بجوار ولديها : القاسم وعبد الله عليهما السلام . وبذلك ذهب الاثنان : أبو طالب وخديجة وهما كانا الصدر الحنون لرسول الله ﷺ فبكاهما وحزن عليهما .

(جـ) الإسراء والمعراج :

إن قصة الإسراء والمعراج من أشهر المعجزات وأظهر البراهين وأقوى الحجج المحكمات وأصدق الأنباء وأعظم الآيات . وأتم الدلالات الدالة على تخصيصه ﷺ بعموم الكرامات . ثابتة بالقرآن والسنة وإجماع الأمة .

منَّ الله بها على سيدنا رسول الله ﷺ وحده دون سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين إعلانا لقدره ومنزلته وعلو شأنه ورفعة مكانته . فأراه من آياته الكبرى . ومنحه وأمته من عظيم فضله وجليل إحسانه . وحباه بمزيد من الفضل والإنعام . وشرفه بالعبودية والإقدام على بساط القرب والتجلى فما زاغ البصر وما طغى . وما كذب الفؤاد ما رأى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى . وحظى من فضل ربه بالعطية العظمى . وكلفه ربه عز وجل بالصلاة فعاد بها إلى أمته يهتف قلبه بالبشرى ﷺ ، هذا وسوف نذكر القصة فى خصائص النبى ﷺ مفصلة إن شاء الله تعالى .

(د) الهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة)

كان النبى ﷺ يلتقى بالحجاج القادمين إلى مكة المكرمة ليعرض عليهم الإسلام . وكان من بينهم حجاج يثرب التقى بهم فى العقبة مرتين فى عامين

متتالين عرض عليهم الإسلام وبين لهم ما عليه الناس من الشرك فآمن بدعوته بعضهم وأرسل معهم مصعب بن عمير رضى الله عنه ليبين لهم قضية الإيمان ويشرح لهم ما نزل من الأحكام حتى جاءوا فى العام التالى مبايعين النبى ﷺ على النصرة والدفاع عن الدعوة إن هو هاجر إليهم. واشترطوا عليه وشرطوا له. وقد حضر بيعة العقبة الكبرى معه عمه العباس رضى الله عنه.

وبمقتضى هذه البيعة أذن النبى ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى يثرب، فكان أول المهاجرين. أبو سلمة: عبد الله بن أسد الأسدى رضى الله عنه فى أول المحرم فى السنة الرابعة عشرة من البعثة. وبه وضع سيدنا عمر رضى الله عنه بداية التاريخ الهجرى.

وخرج المسلمون إلى يثرب فرادى وجماعات مهاجرين إلى الله ورسوله. ولم يبق بمكة إلا العبيد والمستضعفون.

ولم يخرج الرسول ﷺ حتى أذن الله تعالى له وبقى معه أبو بكر وعلى رضى الله عنهما.

ولما علم أهل مكة بخروج المسلمين طار صوابهم واجتمعوا فى دار ندوتهم يبحثون هذا الأمر. واتفقوا على قتل النبى ﷺ فأعلمه الوحى بما دار بينهم وبما اتفقوا عليه. ونزل قول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وأمر الوحى رسول الله ﷺ أن لا يبيت على فراشه وينام مكانه على بن أبى طالب كرم الله وجهه ويتسجى ببردة النبى ﷺ.

وخرج رسول الله ﷺ فى صحبة أبى بكر الصديق رضى الله عنه إلى غار ثور جنوبى مكة ليعمى على أهلها طريق سيره ومكثا به ثلاثة أيام خرجا بعدها يستأنفون السير إلى يثرب فى ظروف طبيعية صعبة. يشقون الصحراء القاحلة تحت ضوء الشمس ولهيبها حتى وصلا يثرب فنزلا بقباء حيث كان المهاجرون

والأنصار فى شرف استقبالهما . وكانت البداية بناء مسجد قباء . ثم انتقل النبى ﷺ إلى داخل المدينة ونزل ضيفا على أبى أيوب الأنصارى ثم بنى مسجده الشريف وبنى حوله بيوته وبنى المهاجرون بيوتهم بجوار المسجد وسميت هذه البقعة المدينة المنورة ثم غلب الاسم على كل يثرب .

ولحق به على بن أبى طالب كرم الله وجهه الذى تركه بمكة ليخرج ما عنده من ودائع وأمانات ويؤديها لأصحابها الذين كانوا قد أودعوها عند رسول الله ﷺ ، ثم هاجر بعدها مصاحبا لأهل بيت النبوة : السيدة سودة بنت زمعه أم المؤمنين وبنات النبى ﷺ .

ولم يخرج رسول الله ﷺ من مكة خائفا ولا هاربا وإنما خرج منها وسبقه أصحابه ولحق به من لم يهاجر قبله لفتح ميدان جديد للدعوة . بعدما توقف - تقريبا - المد الإسلامى بمكة بسبب زيادة نشاط أهل مكة وتصديهم للدعوة بكل ما يملكون من قوة . فاذن له ربه عز وجل بالهجرة من مكة إلى المدينة المنورة التى استقبله أهلها هو وأصحابه أعظم استقبال وأحسنوا ضيافتهم . ونفذوا ما وعدوا رسول الله ﷺ به فى بيعة العقبة الكبرى . فى حب وصدق وإخلاص لله ولرسوله قال الله تعالى : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر : ٨ ، ٩] .

(هـ) ما بعد الهجرة :

أخذ رسول الله ﷺ يؤسس دولة الإسلام ويضع اللبنات الأولى لقيامها فى المدينة المنورة .

بنى مسجدى قباء ومسجده الشريف . وأقام معاهدة إخاء بين المهاجرين والأنصار فى وثيقة دستورية رائعة . يضع فيها عنصرى الأمة - المهاجرين

والأنصار – في بوتقة واحدة ليكونا على قلب رجل واحد – وحدد فيها موقف الدولة من أهل الكتاب وموقفهم منها كما حدد أوضاع المشركين ممن بقى منهم بالمدينة وخيرهم بين البقاء بها أو الرحيل عنها. فاختاروا البقاء بها ثم أسلموا بعد ذلك.

ثم أخذ يعد بناء الجيش الإسلامي القوى لحماية أمن وأمان الدولة وأنشأ بيت مال المسلمين ومؤسستهم الاقتصادية.

ومع ذلك لم يتوانى لحظة عن تبليغ دعوة ربه عز وجل وأخذ القرآن الكريم يتنزل عليه بآيات الأحكام وبيان الحلال والحرام.

وفي المدينة المنورة: فرض الصوم والزكاة والحج والجهاد في سبيل الله وأخذت مسيرة الدعوة تنشط وتغزو قبائل العرب حضرها وبدوها وأخذ المسلمون يخوضون سلسلة جديدة من الجهاد والكفاح ففي ليلة النصف من شعبان سنة اثنين من الهجرة الشريفة منَّ الله على نبيه ﷺ بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وكان تحويل القبلة إلى المسجد الحرام إشارة للمسلمين ودعوة لهم وشحذا لهممهم لكي يعملوا على تطهير قبلتهم.

وكانت البداية غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان من السنة نفسها بعد شهر واحد من الأمر بتحويل القبلة.

(و) بدر الكبرى:

بداية الصراع المسلح بين الحق والباطل. بداية استخدام القوة العسكرية ضد المعتدى حماية للدولة وتثبيتاً للسلام وصونا له، لقد علم النبي ﷺ بقدوم قافلة تجارة أهل مكة من بلاد الشام بقيادة أبي سفيان بن حرب بن أمية. فقال النبي

ﷺ لأصحابه : هذه تجارة قريش فإن أردتم أن تخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها عوضا لكم عما فقدتموه بمكة . فافعلوا) وكان الحديث موجها للمهاجرين .

وخرج مع رسول الله ﷺ ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا من المهاجرين والأنصار فى قلة من العدد والعدة وظل الباقون بالمدينة . لأن خروج رسول الله ﷺ ومن معه ليس إلا لاعتراض تجارة قريش فحسب وفى الذين خرجوا كفاية . ولم يكن أحد من المسلمين يدرى أن الله تعالى يدبر أمرا آخر .

وفى خروج النبى ﷺ بمن معه أمر خطير إنه بداية حرب اقتصادية على قريش وقطع التجارة القادمة من الشام وإليها عليهم . وفى هذا تكمن الخطورة لأن فيه تهديد لحياتهم . ولما علم أبو سفيان بخروج المسلمين بعث إلى أهل مكة يطلب النجدة منهم . ثم غير طريق التجارة المار بالمدينة وسلك طريقا آخر على شط البحر الأحمر وبذلك نجا بتجارته .

وواصل المسلمون السير حتى وصلوا بدرا . وخرج مكة فى تسعمائة وستين مقاتلا مدججين بالسلاح والعتاد . فقابلهم أبو سفيان وقد نجا بتجارتهم . وطالبهم بأن يعودوا إلى مكة . فأبوا وقالوا : لا بد من أن نرد بدرا لنؤدب محمدا وأصحابه . وواصلوا السير حتى وصلوا قريبا من بدر . وعلم النبى ﷺ بوصولهم فاستشار أصحابه لخطورة الموقف .

فقام أبو بكر ومن بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنهما فقالا قولا وأحسنا فيه . ثم قام المقداد بن عمرو وقال : يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . ولكنا نقول لك : إنا معكما مقاتلون . ثم نظر النبى ﷺ إلى الأنصار فقام إليه سعد بن معاذ وقال لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ امض لما أمرك الله . إنا لصُبُر فى الحرب صُدُق عند اللقاء فوالله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك) وهكذا أجمع القادة على لقاء العدو رغم ضعف إمكاناتهم عددا وعدة . فهذا أمل كانوا ينتظرونه، وهذا قدرهم الذى أخفى عنهم وعمن بقى بالمدينة .

وأوقف النبى ﷺ جيشه فى مكان طرف بدر فقام إليه الحباب بن المنذر – خبير فى فنون الحرب والقتال – وقال : يا رسول الله أهذا المنزل – المكان – أنزلكه الله تعالى أم هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال النبى ﷺ (لا . إنما الرأى والحرب والمكيدة) فقال يا رسول الله ليس هذا بمنزل . أرى أن نرد ماء بدر فنقيم عليها فنشرب ولا يشربون وهذا أخطر ما يصيب القوات المحاربة . لأن الجندى المحارب إذا فقد شيئا من شئونه الإدارية . ينهار ولا يستطيع قتالا . وخصوصا أنه سيحارب فى صحراء قاحلة . ولا يوجد إلا فى بئر بدر .

واستجاب النبى ﷺ لمشورة الحباب بن المنذر وانتقل الجيش إلى بئر بدر وسيطر على مائها . وتم بناء عريش (مركز قيادة) لرسول الله ﷺ وقام على حراسته أبو بكر وسعد بن معاذ رضى الله عنهما .

وأرسل النبى ﷺ مفرزة استطلاع مكونة من حمزة بن عبد المطلب وسعد ابن أبى وقاص وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم ليجمعوا له معلومات عن العدو . وهذا من أساسيات النظام فى القوات المسلحة فى كافة العصور .

وقام النبى ﷺ بتقدير الموقف وقال لأصحابه (إن قريشا قد بعثت لكم بفلذات أكبادها) .

ورجع النبى ﷺ إلى عريشه يدعو ربه ويطلب منه النصر لهذه الفئة المؤمنة الصابرة .

وقامت المعركة ودارت رحاها واشتد بأسها وحمى وطيسها وأمد الله عباده بجمع من الملائكة يقاتلون معهم منفذين أمر ربهم ﴿ **فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** ﴾ وتحقق نصر الله لأوليائه . وتوقف القتال وفرَّ جيش قريش هاربا من أرض المعركة . وكانت نتيجة المعركة استشهاد أربعة عشر صحابى . هم شهداء بدر رضى الله عنهم . وقتل من المشركين سبعون . وأسر سبعون . وأتم الله نعمته على أحبابه ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ وجمع المسلمون الأسرى والغنائم . فاستشار أصحابه فى أمرهم

فأشار عليه أبو بكر بأخذ الفدية منهم وتركهم وأشار عمر رضى الله عنه على رسول الله ﷺ بقتلهم . فأخذ النبي ﷺ برأى أبى بكر رضى الله عنه . فأنزل الله تعالى ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ . . .** ﴾ الآية .

وهكذا يكون نصر الله تعالى لأوليائه . إن أطاعوا الله ورسوله فرغم قلة عدد المسلمين وعدتهم بالنسبة لعدة وعتاد أعدائهم إلا أن الله تعالى نصرهم وأعزهم لصدقهم وإخلاصهم واحترام قيادتهم . وكان الأمر شورى بينهم فاختاروا الله ورسوله دفاعا عن الحق والعقيدة . وحماية لرسول الله ﷺ فى صبر وإيمان وعزيمة وإقدام فأنزل الله عز وجل عليهم ملائكته ليثبتوهم وليقاتلوا معهم عدوهم .

فهذه المعركة هزت كيان أهل مكة الذين فقدوا الكثير من زعمائهم كأبى جهل وأمية بن خلف وشيبة وربيعة ابنا المغيرة .

كما أنها حركت الخوف والرعب فى قلوب اليهود . وجعلت شيوخ القبائل المحيطة بالمدينة يراجعون حساباتهم وقدم بعضهم إلى المدينة يشهرون إسلامهم .

فكان يوم بدر بحق هو يوم الفرقان وكان النبى ﷺ فيه عظيما حيث أدار المعركة بكفاءة واقتدار مقدرا كل الظروف والملابسات مراعيا لحق رجاله فى المشورة وإبداء الرأى . مستعينا بربه عز وجل وداعيا له أن ينصر هذه الفئة المؤمنة الصابرة لقد غيرت معركة بدر الكبرى وجه التاريخ وثبتت أركان الدولة المسلمة الفتية . وفتحت للمسلمين طريق الجهاد والكفاح وحمل السلاح فى وجه كل من تسول له نفسه الاعتداء على حرمة الدولة ومقدساتها وصدق الله العظيم ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ .

(ز) معركة أحد :

كانت معركة بدر الكبرى درسا قاسيا لأهل مكة المكرمة لقنه المسلمون لهم فى معركة كانت قريش فيها الأكثر عددا وعدة . ولكن كان سلاح المسلمين هو الأمضى والأقوى والهدف أوضح وأبين .

كان سلاحهم الإيمان الصادق والصبر العالى . وهدفهم هو نصرة دين الله عز

وجل وحماية نبيه المصطفى ﷺ . فكان النصر حليفهم وعناية الله تعالى ترعاهم وتحفظهم . فهم الفئة المؤمنة وقدر الله النصر لهم فى أول معاركهم ليشحذ هممهم وليدفعهم فى ثبات لكى يخوضوا ما ينتظرهم من معارك وغزوات نصرة للإسلام ولنبيه ﷺ .

لقد ذلت قريش . قتل وأسر فى صفوفهم . وما كادوا يضمدون جراحهم ويفدون أسراهم حتى أخذوا ينادون بعضهم بعضا بالثأر من محمد وأصحابه . وخرجوا من بلدهم فى ثلاثة آلاف مقاتل وخرج إليهم الرسول ﷺ فى ألف مجاهد تقاعس منهم ثلثمائة وعادوا من الطريق وقالوا للرسول ﷺ **(لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ)** .

وسار النبى ﷺ فى سبعمائة مجاهد أخلصوا العمل لربهم عز وجل . حتى وصلوا أحدا . ونظم النبى ﷺ صفوف قواته، وعين منهم فريقا ليكونوا رماة فيصعدون الجبل ولا يتحركون ليحموا ظهور المقاتلين .

والتقى الجمعان واحتدم القتال . وأخذ المسلمون يعملون سيوفهم وحرابهم فى رقاب العدو حتى كانت الغلبة لجند الله عز وجل الذين فر العدو من أمامهم . ولما رأى ذلك الرماة نزلوا من على جبل أحد وظنوا المعركة قد انتهت . ولما رأى ذلك المشركون قفلوا راجعين وأخذ خالد بن الوليد فريقا من المشركين وصعد بهم الجبل وأخذ يرمى المسلمين بالنبل وعاد بقية جيش المشركين وخاصة مع المسلمين جولة أخرى من القتال فحقق جيش الكفر نصرا فى هذه الجولة وسقط من المسلمين سبعين شهيدا وتفرق الناس اللهم إلا نفر قليل مع النبى ﷺ الذى لم يترك مكانه مقاتلا شجاعا قويا حتى كسرت رباعيته وشج رأسه فستره أصحابه . ونادى منادى قريش أن محمدا قد قتل . فتملكهم الفرح والسرور بذلك الخبر وحملوا متاعهم وعدتهم وقفلوا راجعين فتعقبهم المسلمون بقيادة على بن أبى طالب فى حمراء الأسد ودار بينهما القتال فى جولة ثالثة كتب الله فيها النصر للمسلمين وفر القريشيون من ساحة المعركة هاربين .

وهكذا كانت مسيرة المعركة – نصر ثم هزيمة ثم نصر . وكانت نتيجة

المعركة درسا بالغا للمسلمين من الرماة الذين خالفوا أمر القائد وتركوا مكانهم ليبحثوا عن حطام الدنيا وجمع الغنائم. فشتان بين بدر وأحد وتفقد النبى ﷺ الشهداء من أصحابه فوجد من بينهم عمه سيد الشهداء: حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه وقد بقرت بطنه وأخرجت كبده هند بنت عتبة ولاكتها تثأر لقتل أبيها وأخيها وغيرهم.

حزن النبى ﷺ لما رأى عمه وقال: لئن ظفرت بقريش لأمثلن بسبعين منهم فأنزل الله عليه قوله تعالى ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾

[النحل: ١٢٦ - ١٢٨]

وقال الله عز وجل مواسيا للنبى ﷺ ولأصحابه: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤٣]

﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ** ﴾ فى أحد ﴿ **فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ** ﴾ أى فى بدر ﴿ **وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ** ﴾ أى كنتم دائما تطلبون الإذن بالقتال لتنالوا النصر أو الشهادة في سبيل الله. وقد جاءكم الإذن والحرب هزيمة ونصر ﴿ **وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ فيوم لك ويوم عليك وكلها بأقدار الله عز وجل ومشيئته.

(ح) يـوم حنـين:

وفى يوم حنين قدم المشركون فى ثلاثة آلاف وخرج إليهم الرسول ﷺ فى عشرة آلاف وأصبح مختلفا عن ذى قبل وتهامس بعض المسلمين فيما بينهم

يقولون: لن نغلب اليوم من قلة وكان لا بد لهم أن يلقنوا درسا فى حسن التوكل على الله وتفويض الأمر له عز وجل وطلب النصر منه لا من عددهم وعدتهم.

ويصور القرآن هذا الأمر الخطير فيقول الله تعالى لأوليائه وأحبابه: ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٦].

(ط) وماذا بعد ذلك؟

لقد ذكرنا من تاريخ العسكرية الإسلامية فى عصر النبوة ثلاثة نماذج فى ثلاث معارك (بدر - أحد - حنين).

فى بدر صدقوا الله ورسوله فيما عاهدوه عليه وصبروا على ما قدر لهم فأعزهم الله تعالى بتأييده ونصره.

وفى أحد. خالف الرماة أمر القائد ﷺ ونسوا أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله تعالى. فكانت الهزيمة بعد نصر قد تحقق ويوم حنين لم يحسنوا التوكل وبنى بعضهم تحقيق النصر على كثرة عددهم فأوقعهم الله فى محنة شديدة. ثم أمد نبيه ﷺ ومن ثبت معه من أصحابه رضى الله عنهم بملائكته.

والحمد لله تعالى لقد استوعب المؤمنون الدرس وما عادوا لمثلها بعد ذلك ولقد خاض المسلمون أكثر من ثلاثين معركة وغزوة وسرية قادهم فى أكثرها سيدنا رسول الله ﷺ. وانتشر بين العرب والبلاد المحيطة أخبار انتصارات المسلمين وهزائم خصومهم فأخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا وخاصة بعد صلح الحديبية الذى يعتبر وثيقة سياسية أعترفت فيها قريش برسالة محمد ﷺ كما قد فتحت له الباب أمام فتح مكة لكى تصبح من بلدان الدولة الإسلامية الأولية. وبذلك صارت مكة العاصمة الثانية للمسلمين ومركزا رئيسيا - كما كانت فى البداية - لتبليغ الدعوة.

ثم أخذ النبى ﷺ يبعث برسائله وكتبه إلى الملوك والرؤساء للبلدان المحيطة به يدعوهم فيها للدخول فى الإسلام . فى أدب جم محافظا لهم – فى رسائله – على هيبتهم ومراكزهم القيادية عند شعوبهم وطهر المدينة المنورة من اليهود فأجلاهم عنها وقال : (أخرجوا يهود من جزيرة العرب) .

وتوافد عليه رؤساء القبائل وحكام بعض البلدان ليشهروا إسلامهم وإسلام أتباعهم من رعيتهم .

وفى السنة العاشرة من الهجرة حج حجة الوداع . وبعدها بثلاثة أشهر تقريبا انتقل إلى الرفيق الأعلى فى يوم الإثنين (١٢ من ربيع الأول سنة ١١ هـ) ودفن فى بيت السيدة عائشة رضى الله عنها وخلف من بعد أصحابه فقد مات ﷺ وهو عنهم راض صلوات الله وسلامه عليه .

* * *

أخلاق النبوة وأوصاف النبى ﷺ

الله سبحانه وتعالى خلق كل شئ فقدره تقديرا . وأحسن خلقه وترتيبه . وخلق الإنسان فى أحسن تقويم وصوره فى أحسن صورة . وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا .

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٧٠] و أدب نبيه ورسوله سيدنا محمدا ﷺ فأحسن تأديبه . وزكى أوصافه وأخلاقه . ثم اتخذه صفيه وخليله وقال له فى كتابه ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم : ٤] .

ووفق — سبحانه وتعالى — للاقتداء به من أراد تهذيبه . وحرم عن التخلق بأخلاقه ﷺ كل من أراد تخييبه قال عز وجل ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ .

لذا اهتم الإسلام بهذا الجانب العظيم فى شريعته ﷺ لأن الأخلاق الفاضلة والتحلى بالصفات الحميدة بها كمال الإيمان وتجويده وتحسينه . وهى أيضا ثمرته وعنوانه .

فإن فى آداب الظواهر عنوان آداب البواطن . وحركات الجوارح ثمرات الخواطر . والأعمال نتيجة الأخلاق . والآداب رشح المعارف وسرائر القلوب هى مغارس الأفعال ومنابعها . وأنوار السرائر هى التى تشرق على الظواهر فتزينها وتجليها . وتبدل بالمحاسن مكارهها ومساوئها . ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية لم يغض على ظاهره جمال الآداب النبوية والأنوار المحمدية والأخلاق والصفات المصطفوية ومن حرم من ذلك فقد بعد كثيرا عن مقام الصديقية . لأنه لم يحسن الاقتداء بخير البرية وصفوة الإنسانية صلى الله عليه وآله وسلم والطريق مرسوم ومعبّد ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ .

ومن أراد استفاد . ومن اهتدى فقد هدى إلى صراط مستقيم ومن طلب العلى بلغ المنى ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً** ﴾ .

ومن أحبه الله تعالى جعل قلبه مشكاة للأنوار القدسية . وأفاض عليه من الأنوار المحمدية . ورفعه إلى مقام الصديقية . وكان فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

اللهم امددنا بمدد نبيك ﷺ وأفض علينا من أنواره وأدبنا بآدابه وصفاته فنحظى بسعادة الدارين .

(١) كان خلقه القرآن :

لقد أدب الله تعالى حبيبه وصفيه وخيرة خلقه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن الكريم فأحسن تأديبه . زينه وجمله بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق .

وكان رسول الله ﷺ كثير الضراعة والابتهال دائم السؤال من الله تعالى أن يحقق له ذلك .

فقد روى أحمد عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يقول فى دعائه (اللهم أحسنت خلْقى فأحسن خُلُقى) .

وروى الترمذى والحاكم واللفظ للترمذى من حديث قطبة بن مالك . أن من دعائه ﷺ (اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق) فاستجاب الله عز وجل دعاءه وأدبه وهذبه بالقرآن فكان خلقه ﷺ القرآن .

روى مسلم عن سعد بن هشام قال : دخلت على عائشة – رضى الله عنها وعن أبويها – فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت : (كان خلقه القرآن) .

وفى القرآن الكريم جملة من الآداب والتوجيهات والإرشاد إلى مكارم الأخلاق . تبلغ العشرات من الآيات وأكثر من ذلك وكذلك آيات العتاب . وروى أيضا فى السنة الشريفة الأحاديث الكثيرة التى تدعو إلى ذلك .

يقول الإمام الغزالى فى الإحياء [١] : بعد أن سرد العديد من هذه الآيات : وأمثال هذه التأديبات فى القرآن الكريم لا تحصر، وهو عليه السلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب . ثم منه يشرق النور على كافة الخلق . فإنه – ﷺ – أدب بالقرآن وأدب الخلق به . ولذلك قال ﷺ : (بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق) [٢] .

---

(١) إحياء علوم الدين ٢ / ٣٨٧ .

(٢) أخرجه أحمد والحاكم والبيهقى من حديث أبى هريرة وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم .

ثم رغب الخلق فى محاسن الأخلاق. ثم يقول الإمام الغزالى: ثم لما أكمل الله تعالى خُلُقه – ﷺ – أثنى عليه.

فقال تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ فسبحانه ما أعظم شأنه وأتم امتنانه. ثم انظر إلى عميم لطفه وعظيم فضله كيف أعطى ثم أثنى؟ فهو الذى زينه بالخلق الكريم ثم أضاف إليه ذلك. فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

ثم بين رسول الله ﷺ للخلق أن الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفاسفها [1].

قال على – بن أبى طالب – رضى الله عنه: يا عجبا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم فى حاجة. فلا يرى نفسه للخير أهلا. فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا، لقد كان ينبغى له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق فإنها مما تدل على سبيل النجاة. فقال له رجل: أسمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم وما هو خير منه لما أتى بسبايا طئ. وقفت جارية فى السبى. فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب فإنى بنت سيد قومى وإن أبى كان يحمى الذمار ويفك العانى ويشبع الجائع ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط. أنا ابنة حاتم الطائى. فقال ﷺ: (يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه. خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق).

فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله. الله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال: (والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الخلق).

وقال الإمام الغزالى:

ومن ذلك: حسن المعاشرة. وكرم الصنيعة. ولين الجانب. وبذل المعروف وإطعام الطعام. وإفشاء السلام. وعيادة المريض المسلم براكان أو فاجرا. وتشييع جنازة المسلم. وحسن الجوار لمن جاورت – مسلماكان أو كافرا – و توقير ذى الشيبة المسلم. وإجابة الطعام والدعاء عليه. والعفو. والإصلاح بين الناس. والجود

---

(١) أخرج البيهقى من حديث سهل بن سعد ورفعه: (إن الله يحب معالى الأخلاق ويبغض سفاسفها).

والكرم. والسماحة والابتداء بالسلام. وكظم الغيظ والعفو عن الناس. واجتناب ما حرمه الإسلام من اللهو والباطل والغناء والمعازف كلها. وكل ذى وتر. وكل ذى دخل والغلبة والكذب والبخل والشح والجفاء والمكر والخديعة والنميمة. وسوء ذات البين وقطيعة الأرحام. وسوء الخلق والتكبر والفخر والاختيال والاستطالة والبذخ والفحش والتفحش والحقد والحسد والطيرة والبغى والعدوان والظلم.

قال أنس رضى الله عنه (فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها. ولم يدع غشا - أو قال: عيبا أو قال: شيئا - إلا حذرناه ونهانا عنه). ويكفى من ذلك كله هذه الآية: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾.

وقال معاذ - بن جبل رضى الله عنه -: أوصانى رسول الله ﷺ فقال: (يا معاذ: أوصيك باتقاء الله. وصدق الحديث والوفاء بالعهد. وأداء الأمانة. وترك الخيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم. ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقه فى القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح. وأنهاك أن تسب حكيما أو تكذب صادقا أو تطيع آثما. أو تعصى إماما عادلا أو تفسد أرضا. وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر. وأن تحدث لكل ذنب توبة. السر بالسر. والعلانية بالعلانية) [1] فهكذا أدب عباد الله ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب. أ. هـ.

* * *

(٢) بيان جملة من محاسن أخلاقه وآدابه

لقد اقتبس العلماء والباحثون من القرآن الكريم ومن السنة الشريفة جملا من محاسن أخلاق النبى ﷺ وآدابه ووضعوا فى ذلك العديد من المصنفات والكتب والرسائل القيمة التى زينوا بها مؤلفاتهم وجملوا بها مصنفاتهم وتقربوا

---

(١) أخرجه الخرائطى والبيهقى وأبو نعيم وإسناده ضعيف والمعانى صحيحة لأنها وردت فيها آيات وأحاديث أخرى صحيحة.

بذكرها وتبيينها إلى حضرته الشريفة وعطروا بذكرها أوراقهم وأقلامهم وألسنتهم التى تحدثت بذكرها إلى العامة والخاصة .

إن المئات من العلماء قد كتبوا والآلاف قد تحدثوا . وسيظل المسلمون يكتبون ويتحدثون عن الخلق العظيم والأدب الجم لسيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد كان الإمام الغزالى والقاضى عياض والترمذى وسائر أصحاب الحديث حظهم أوفر من غيرهم فى جمع شمائله وصفاته وآدابه صلوات الله وسلامه عليه . ونكتفى فى هذا الباب بذكر ما كتبه أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى . لأنه مما أجمع العلماء عليه .

يقول : كان ﷺ أحلم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس . وأعف الناس . لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها . أو تكون ذات محرم منه . وكان أسخى الناس . لا يبيت عنده دينار ولا درهم . وإن فضل شئ ولم يجد من يعطيه وفجاه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه . لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك فى سبيل الله لا يسأل شيئا إلا أعطاه . ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شئ . وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم فى مهنة أهله . ويقطع اللحم معهن . وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره فى وجه أحد . ويجيب دعوة العبد والحر ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافئ عليها ويأكلها ولا يأكل الصدقة . ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين يغضب لربه ولا يغضب لنفسه . وينفذ الحق وإن عاد ذلك بالضرر عليه أو على أصحابه . وعرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو فى قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده فى عدد من معه فأبى . وقال : أنا لا أنتصر بمشرك .

وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم ولا

زاد على ما أمر به الحق بل وداه بمائة ناقة . وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به . وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع . ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال . وإن وجد تمرا دون خبز أكله وإن وجد شواء أكله . وإن وجد خبز بر أو شعير أكله . وإن وجد حلوا أو عسلا أكله . وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به . وإن وجد بطيخا أو رطبا أكله . لا يأكل متكئا ولا على خوان . منديله باطن قدميه لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية . حتى لقى الله تعالى إيثارا على نفسه لا فقرا ولا بخلا . يجيب الوليمة ويعود المرضى . ويشهد الجنائز ويمشى وحده بين أعدائه بلا حارس أشد الناس تواضعا . وأسكنهم فى غير كبر وأبلغهم فى غير تطويل . وأحسنهم بشرا لا يهوله شئ من أمور الدنيا ويلبس ما وجد فمرة شملة ومرة برد حبرة يمانيا ومرة جبة صوف . ما وجد من المباح لبس وخاتمه فضة يلبسه فى خنصره الأيمن والأيسر يردف خلفه عبده أو غيره يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة يمشى راجلا حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة يعود المرضى فى أقصى المدينة . يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة . ويجالس الفقراء ويؤا كل المساكين ويكرم أهل الفضل فى أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم لا يجفو على أحد . يقبل معذرة المعتذر إليه . يمزح ولا يقول إلا حقا يضحك من غير قهقهة . يرى اللعب المباح فلا ينكره يسابق أهله وترفع الأصوات عليه فيصبر . وكان لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها وكان له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم فى مأكل ولا ملبس ولا يمضى له وقت فى غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد له منه من صلاح نفسه، يخرج إلى بساتين أصحابه لا يحتقر مسكينا لفقرة وزمانته ولا يهاب ملكا لملكه . يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستويا قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب . نشأ فى بلاد الجهل والصحارى فى فقره وفى رعاية الغنم يتيما لا أب له ولا أم، فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة

وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز في الآخرة . والغبطة والخلاص في الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول . أ . هـ .

ومما روى من أخلاق النبي ﷺ . ما رواه أبو البحتري قال : ما شتم رسول الله ﷺ أحدا من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة « متفق عليه من حديث أبي هريرة » وما لعن امرأة قط ولا خادما بلعنة « متفق عليه من حديث عائشة » وقيل له وهو في القتال : لو لعنتم يا رسول الله فقال : (إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا) « مسلم عن أبي هريرة » .

وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له) « أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة » وما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى . وما انتقم من شئ صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله . وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك . « متفق عليه من حديث عائشة مع اختلاف يسير » .

وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته . « رواه البخاري عن أنس » وقال أنس رضي الله عنه : والذي بعثه بالحق ما قال لي في شئ كرهه لم فعلته ؟ ولا لا مني نساؤه إلا قال (دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر) « متفق عليه » .

قالوا : وما عاب رسول الله ﷺ مضجعا . إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض « رواه الترمذي في الشمائل » .

وقد وصفه الله تعالى في التوراة قبل أن يبعثه في السطر الأول فقال :

محمد رسول الله عبدي المختار لا فظّ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة . ولكن يعفو ويصفح . مولده بمكة وهجرته بطابة وملكه بالشام يأتزر على وسطه هو ومن معه دعاة للقرآن والعلم يتوضأ على أطرافه . وكذلك نعته في الإنجيل .

وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام . ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف . وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر . وكان إذا لقى أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة . ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته عليها . وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال : (ألك حاجة؟) فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته .

وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة (رواه الترمذى فى الشمائل من حديث أبى سعيد الخدرى وروى البخارى مثله عن عمر) ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس . وما رؤى قط مادا رجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد إلا أن يكون المكان واسعا لا ضيق فيه وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التى تحته فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل . وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للمجالس إليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة . قال الله تعالى : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] (١) .

ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم إكراما لهم واستمالة لقلوبهم ويكنى من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به . ويكنى أيضا النساء اللاتى لهن الأولاد واللاتى لم يلدن يبتدئ لهن الكنى ويكنى الصبيان فيستميلن به قلوبهم . وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا . وكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس

(١) الإحياء : ٢ / ٣٩٤ - ٣٩٧ بتصرف .

وأنفع الناس للناس ولم تكن ترفع في مجلسه الأصوات . وكان إذا قام من مجلسه قال : (سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك) ثم يقول (علمنيهن جبريل عليه السلام) « رواه النسائى والحاكم » أ . هـ.

* * *

(٣) ذكر بعض صفاته وأخلاقه ﷺ

لقد تميزت شخصية المصطفى ﷺ بالعديد من الجوانب المضيئة النورانية والهادية لكل من يريد أن يسمو بنفسه ويترقى بروحه إلى أعلى درجات الكمال ويحصن نفسه حتى لا ينزلق في مهاوى الضعة والخمول والانحطاط ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ .

وكان الجانب الإنسانى فى شخصية الرسول ﷺ قبل النبوة وبعدها موضع اهتمام العلماء والباحثين دائما لأنه منهل عذب صافى يجب على المسلم أن ينهل منه حتى يروى ظمأه ويأخذ منه زاده ليبنى نفسه ويضعها على طريق الجادة المحفوف بالأنوار المحمدية القدسية ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ .

عند ذلك تكتمل سعادة المسلم ويحظى برضا ربه عز وجل ويباركه المصطفى ﷺ ويحبه أهل السموات ويوضع له القبول فى الأرض فيكون محل احترام وتقدير كل من حوله من بنى آدم عليه السلام وملامح شخصية الرسول ﷺ فى جانبها الإنسانى يتجلى أهم مظاهرها فيما يلى :

(١) حسن الخلق :

كان ﷺ حسن الأخلاق قبل النبوة وبعدها . وقد شهد له بذلك كل أهل مكة قبل النبوة حتى أنهم كانوا يلقبونه ويصفونه بأعظم وأجل صفتين يوصف بهما الإنسان (الصادق الأمين) والصدق والأمانة من صفات السمو والرفعة . لأنهما يحققان للفرد الطمأنينة وللمجتمع الأمن والأمان .

وبعد النبوة يؤكد القرآن الكريم على ذلك فيصف النبى ﷺ بعظيم الخلق فيقول الله تعالى لحبيبه ﷺ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال الحسن رضى الله عنه : هو آداب القرآن .

وقال قتادة : هو ما كان يأمر به من أمر الله وينهى عنه الله . والمعنى : إنك لعلى الخلق الذى آثرك الله به فى القرآن .

وقال ابن القيم فى مدراج السالكين : إن الله تعالى جمع لرسوله ﷺ مكارم الأخلاق فى قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

[الأعراف : ١٩٩]

قال جعفر الصادق رضى الله عنه : أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق . وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية .

وروى أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ لسيدنا جبريل عليه السلام : ما هذا؟ قال : لا أدرى حتى أسأل ، فسأل . ثم رجع إليه فقال : (إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك) .

وروى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

(لم يكن النبى ﷺ سبابا ولا فحاشا ولا لعانا . كان يقول لأحدنا عن المعتبة . ماله تربت جبينه) .

وروى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : (خدمت النبى ﷺ عشر سنين . فما قال لى : أف ولا لم صنعت؟ ولا ألاّ صنعت) .

وروى أيضا عن جابر رضى الله عنه قال : (ما سئل النبى ﷺ عن شئ قط . فقال : لا) .

وروى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . أن النبى ﷺ قال : (فأى المؤمنين لعنته شتمته جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة) .

وأخرج مسلم من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا) .

وقد مر بنا سلفا ما يدل على حسن خلقه وحميد صفاته ﷺ .

(٢) رحمته ولين جانبه :

كان ﷺ كما وصفه ربه عز وجل فى قوله : ﴿ **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ ، ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ .

لقد كان رسول الله ﷺ هينا لينا يحب الرفق فى قضاء الأمور ويأمر باليسر وينهى عن العسر وما خير فى أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما . وقد كانت رحمته ورأفته ولين جانبه ﷺ سببا فى إقبال الناس عليه ودخولهم فى دين الله أفواجا .

أخرج البخارى عن جرير بن عبد الله عن النبى ﷺ قال : (من لا يَرحَم لا يُرحمَ) .

وأخرج أيضا عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : تقبلون الصبيان . فما نقبلهم . فقال النبى ﷺ : (أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة) ؟

وأخرج أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قبل رسول الله ﷺ . الحسن ابن على – رضى الله عنه – وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالسا . فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا . فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال : من لا يرحم لا يرحم) . .

وروى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى سيف القَيْن . وكان ظئرا لإبراهيم عليه السلام [١] فأخذ رسول الله

---

(١) القَيْن : أى الحداد . واسمه : البراء بن أوس الأنصارى . والظئر : المرضعة ولد غيرها . وزوجها ظئر لذلك الرضيع . وزوجة البراء كانت مرضعة لسيدنا إبراهيم بن سيدنا رسول الله ﷺ .

ﷺ إبراهيم فقبله وشمه ثم دخلنا عليه بعد ذلك . وإبراهيم يجود بنفسه . فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان . فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : وأنت يا رسول الله . فقال : يا ابن عوف : (إنها رحمة) ثم اتبعها بأخرى . فقال ﷺ : (إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا . وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون) .

وأخرج البخارى أيضا عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ فى سفر وكان معه غلام أسود يقال له : أنجشة . يحدو . فقال له رسول الله ﷺ : (ويحك يا أنجشة . رويدك بالقوارير) .

قال العلماء : سمى النساء قوارير لضعف عزائمهن . تشبيها بقارورة الزجاجة لضعفها وأسراع الانكسار إليها .

وروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليكم (١) .

قالت عائشة : ففهمتها . فقلت : وعليكم السام واللعنة . قالت : فقال رسول الله ﷺ : (مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق فى الأمر كله) فقلت : يا رسول الله ولم تسمع ما قالوا؟ .

قال رسول الله ﷺ : (قد قلت وعليكم) .

وروى أيضا عنها قالت : ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما . فإن كان إثما كان أبعد الناس منه . وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شئ قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم بها لله .

وروى أيضا عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن أعرابيا بال فى المسجد . فقاموا إليه . فقال رسول الله ﷺ : (لا تزرموه . ثم دعا بدلو من ماء فصب عليه) .

---

(١) السام : هو الدعاء بالموت أو هو الموت . لذلك ردت عليهم السيدة عائشة رضى الله عنها .

وروى أصحاب السنن والسيرة: أنه ﷺ لما دخل مكة ومعه أصحابه عام الفتح. نظر إلى أهلها - وهم الذين آذوه وأصحابه وقتلوا من قتلوا وأخرجوه من بلده - وقال لهم: ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرا. أخ كريم وابن أخ كريم فقام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال لهم: أقول لكم كما قال أخى يوسف: ﴿ **لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [يوسف: ٩٢] لقد شملت رحمته ﷺ الناس جميعا وكذا الحيوان وغيرهما لذا قال له ربه عز وجل فى القرآن الكريم: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

(٣) الحلم والعفو

العفو من شيم الكرام وهو من أبرز صفات الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لذلك دعانا الله عز وجل إلى التحلى بهذه الصفة النبيلة فقال (وأن تعفوا أقرب للتقوى).

وقال لحبيبه ﷺ ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾

[الأعراف: ١٩٩]

وقال له أيضا: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩] لقد كان رسول الله ﷺ حليما عفوا كريما وكان أقدر الناس على ذلك وأسبقهم إليه ولم يرو عنه عليه الصلاة والسلام أنه انتقم لنفسه مرة. وإنما كان ينتقم لربه عز وجل إذا انتهكت الحرمات وارتكبت الآثام.

روى أبو حامد الغزالى فى الإحياء (١) عن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال: يا عجبا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه

---

(١) إحياء علوم الدين ٢ / ٣٨٨ وقال العراقى: الحديث أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول بإسناد فيه ضعف.

للخير أهلا . فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا . لقد كان ينبغى له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق . فإنها مما تدل على سبيل النجاة .

فقال له رجل : أسمعته من رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم وما هو خير منه . لما أتى بسبايا طئ . وقفت جارية فى السبى . فقالت يا محمد . إن رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب . فإنى بنت سيد قومى . وإن أبى كان يحمى الذمار ويفك العانى ويشبع الجائع ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط . أنا ابنة حاتم الطائى فقال ﷺ : (يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه . خلو عنها . فإن أباها كان يحب مكارن الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق) .

فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول الله . الله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال : (والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق) .

وقال الإمام الغزالى [1]:

كان ﷺ أحلم الناس وأرغبهم فى العفو مع القدرة حتى أتى بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه . فقام رجل من أهل البادية . فقال : يا محمد لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك تعدل فقال : (ويحك فمن يعدل عليه بعدى) ؟ فلما ولى . قال : (ردوه على رويدا) (أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر بإسناد جيد) .

وروى جابر [2] أنه ﷺ كان يقبض للناس يوم خيبر فى ثوب بلال فقال له رجل : يا رسول الله أعدل . فقال له رسول الله ﷺ : (ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل فقد خبت وخسرت إن كنت لا أعدل) فقام عمر فقال : الا أضرب عنقه فإنه منافق . فقال : (معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى) وكان رسول الله ﷺ فى حرب فرأوا من المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال : من يمنعك منى؟ فقال : « الله » فقال : فسقط السيف من يده

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٤٠٨ ، ٤٠٩ . (٢) قال العراقى : الحديث . رواه مسلم .

فأخذ رسول الله ﷺ السيف وقال: من يمنعك منى. فقال: كن خير آخذ قال: قل: أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله. فقال: لا غير أنى لا أقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله. فجاء أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس [1].

وروى أنس: أن يهودية أتت النبى ﷺ بشاة مسمومة ليأكل منها فجئ بها إلى النبى ﷺ فسألها عن ذلك. فقالت: أردت قتلك. فقال: ما كان الله ليسلطك على ذلك.

قالوا: أفلا نقتلها؟ فقال: لا (متفق عليه).

وقال على رضى الله عنه: بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب. فخذوه منها. فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ فقلنا: أخرى الكتاب. فقالت: ما معى من كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لننزعن الثياب. فأخرجته من عقاصها. فأتينا به النبى ﷺ. فإذا فيه: من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمرا من أمر رسول الله ﷺ عليه . فقال: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل على إنى كنت امرأ ملصقا فى قومى وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب منهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتى ولم أفعل ذلك كفرا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ولا ارتدادا عن دينى.

فقال رسول الله ﷺ: إنه صدقكم.

فقال عمر رضى الله عنه: دعنى أضرب عنق هذا المنافق.

فقال ﷺ: (إنه شهد بدرا. وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم). (متفق عليه) هذا: وتعدد صور

---

(1) الحديث متفق عليه ورواه أيضا أحمد فى مسنده وسمى الرجل: غورث بن الحارث.

العفو والحلم عند رسول الله ﷺ كثيرا فى السلم وفى الحرب وقد شهد له بذلك الأعداء قبل الصحب الكرام.

وكيف لا يكون كذلك وهو رحمة الله للعالمين؟ وهو القدوة والمثل فى تحقيق مكارم الأخلاق والتحلى بحميد الصفات وجميل الأفعال.

(٤) الشجاعة والنجدة

قال علماء الأخلاق. إن الشجاعة وسط بين رذيلتين هما: الجبن والتهور. فالشجاع - دائما - لا يكون جبانا كما أنه لا يكون متهورا لأن فى الصفتين: الهلكة والدمار.

ولقد كان سيدنا رسول الله ﷺ شجاعا فى كل المواطن وفى شتى المواقف.

أخرج الدارمى من حديث ابن عمر بسند صحيح: (ما رأيت أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أرمى من رسول الله ﷺ).

وللشيخين عن أنس رضى الله عنه قال: (كان أشجع الناس وأحسن الناس ..).

وأخرج أبو الشيخ فى أخلاق النبى ﷺ عن على رضى الله عنه قال: لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا).

وروى النسائى عن على كرم الله وجهه قال: (كنا إذا احمر البأس ولقى القوم. القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه) وروى مسلم نحوه من حديث البراء بن عازب وأخرج أبو الشيخ من حديث سعد بن عياض مرسلا: (وكان ﷺ قليل الكلام قليل الحديث. فإذا أمر الناس بالقتال تشمر، وكان من أشد الناس بأسا).

وقال البراء: والله إذا حمى الوطيس نتقى به وإن الشجاع منا الذى يحاذى به) رواه مسلم.

وقال عمران بن حصين: (ما لقى رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب) رواه أبو الشيخ.

وكان ﷺ قوى البطش (ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول:

أنا النبى لا كذب — أنا ابن عبد المطلب

فما رؤى يومئذ أحد كان أشد منه (متفق عليه من حديث البراء).

وروى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: (كان النبى ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس. ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبَل الصوت فاستقبلهم النبى ﷺ وقد سبق الناس إلى الصوت. وهو يقول: «لن تراعوا لن تراعوا» وهو على فرس لأبى طلحة عرى ما عليه سرج فى عنقه سيف. فقال: لقد وجدته بحرا أو إنه لبحر).

لقد كانت شجاعته ﷺ تفوق كل شجاعة وقوته تفوق كل قوة. فلم يكن رسول الله ﷺ يوما ضعيفا ولا خائفا. وحسبه صلوات الله وسلامه عليه أنه قد وقف وحيدا يعلن فى جرأة وشجاعة وقوة: أنه رسول رب العالمين. وأنه نذير لقومه بين يدى عذاب شديد. فلم ترهبه مكة بجبروتها وصلفها ويوما قال له عمه أبو طالب: يا ابن أخى ابق على وعلى نفسك فأنا لا أقدر على قومك فقال له: يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن اترك هذا الأمر فلن أتركه حتى يبلغه الله أو أهلك دونه.

فوقع هذا الكلام منه على عمه نزول الصاعقة. فقال له: يا ابن أخى أعمل ما شئت فوالله لا أسلمك إليهم أبدا.

ولما تصدى له أهل مكة لم يهن ولم يضعف. بل كان يتعرض للقبائل حولها ولحجاج بيت الله الحرام يدعوهم إلى الدخول فى الإسلام دون خوف أو ضعف وذهب إلى الطائف يدعو أهلها فأعرضوا عنه وأحالوا عليه صبيانهم يرمونه بالحجارة. وقد لقى فى مكة ما لقى من تعنت أهلها وتصديهم

وتهديدهم له وتعذيبهم لأتباعه وقتل بعضهم. ولكنه كان دائما يزداد قوة وجرأة وشجاعة.

وقد وهم بعض المؤرخين أنه ﷺ قد خرج من مكة مهاجرا إلى يثرب خائفا من أهل مكة.

أبدا. والله ما هاجر رسول الله ﷺ خائفا. ولكنه خرج مهاجرا للبحث عن ميدان جديد للدعوة. وكان ﷺ يمكنه أن يقاتل أهل مكة بمن معه من المسلمين. وهم كانوا أكثر ممن حضر بدرا ولكن لم يؤذن له فى القتال بمكة لان الدعوة كانت فى مهدها فإذا ما بدأها بقتال انصرف الناس وأغلقوا عقولهم عن سماع ما يدعو إليه. لأن عيونهم عندما تنظر إلى بريق السيوف صمت الآذان وأغلقت القلوب وكلت العقول.

لذا تأخر الإذن بالقتال حتى تمت الهجرة واستعت رقعة الأرض التى يقف عليها المسلمون وأخذت القبائل بمكة والمدينة وما حولهما يسمعون بخبر الدعوة وبعضهم قد أقبل على رسول الله ﷺ وشهد له بالرسالة.

هذا. وقد خاض رسول الله ﷺ المعارك المعركة تلو الأخرى غير هياب ولا خائف ولكنه دائما كان أقوى أصحابه وأشجع وأنجد ممن سمعت به البشرية. ولم يكن رسول الله ﷺ يوما ضعيفا ولا مهانا. ويخطئ كثيرا من يظن أن رسول الله ﷺ كان ضعيفا فى بعض الأمور. فالضعف والوهن ليس من صفات الأنبياء والمرسلين ولا يكون أبدا فيمن يقتدى بهم. ولنا فى رسول الله الأسوة الحسنة.

(٥) تواضعه وحياؤه:

كان رسول الله ﷺ أشد الناس تواضعا فى علو منصبه وقد عرف عنه صحابته رضى الله عنهم ذلك فاقتدوا به وتعلموا منه. قال الله تعالى له: ﴿ واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمن اتَّبعَكَ مِنَ المؤْمنِينَ ﴾ وروى عنه ﷺ قوله: (إن الله أوحى إلى أن تواضعوا) روى الترمذى والنسائى. قال ابن عامر: رأيته يرمى الجمرة على ناقة شهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك).

وركب الحمار والفرس والناقة ومشى رجلا . وكان يعود المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة السيد والعبد ويخصف النعل ويرقع الثوب . وكان يكون فى مهنة أهله وفى حاجتهم . وكان يكره أن يقوم له الناس إذا دخل عليهم . وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم وكانوا يدعونه ليتناول الغداء معهم فينزل من على دابته ويجلس معهم ويأكل معهم ويداعبهم .

وأخرج الحاكم من حديث جرير : أتى برجل إلى رسول الله ﷺ فأرعد من هيبته فقال له : (هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد) وقال صحيح على شرط الشيخين وكان يجلس بين أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل عنه حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلسا يعرفه الغريب فبنوا له دكانا من طين فكان يجلس عليه .

وكان يقول : (إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأشرب كما يشرب العبد ولو دعيت إلى ذراع لأجبت ولو أهدى إلى كراع لقبلت) .

وقال العلماء : كان التواضع أبرز صفات النبى ﷺ ولما اقتدى به أصحابه الكرام فى شيمه وصفاته سادوا الدنيا وفتح الله عليهم البلاد والأمصار .

وكان ﷺ يوصف بالحياء الشديد وقد جمع الله له الحياء بنوعيه : الفطرى والمكتسب . والحياء من الإيمان والإيمان فى الجنة . قال سيدنا أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : ما سئل رسول الله ﷺ عن شئ فقال : لا . وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها) [1] ولم يمنعه الحياء أن ينصر الحق وأن ينتصر له ﷺ .

(٦) سخاؤه وجوده :

كان ﷺ أجود الناس وأسخاهم فى شهر رمضان كالريح المرسلة لا يمسك شيئا (رواه الشيخان من حديث أنس) .

وروى الترمذى : وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبى ﷺ قال : (كان

---

(١) أخرجه البخارى .

أجود الناس كفا . وأوسع الناس صدرا . وأصدق الناس لهجة . وأوفاهم ذمة . وألينهم عريكة . وأكرمهم عشيرة من رآه بديهة هابه . ومن خالطه معرفة أحبه . يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله) .

وروى الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال : (وما سئل عن شئ قط على الإسلام إلا أعطاه) .

وروى أنه ﷺ قال : (من سألكم بالله فأعطوه) .

وروى الشيخان من حديث جابر رضى الله عنه قال : (وأن رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإن محمدا - ﷺ - يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة . وما سئل شيئا قط فقال : لا) .

وأخرج الترمذى فى الشمائل من حديث عمر رضى الله عنه : (وجاءه رجل فسأله . فقال : ما عندى شئ . ولكن ابتع على فإذا جاءنا شئ قضيناه . . فقال عمر : يا رسول الله ما كلفك الله مالا تقدر عليه فكره النبى ﷺ ذلك . فقال الرجل : أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا . فتبسم النبى ﷺ وعرف السرور فى وجهه) .

إن رسول الله ﷺ كان أكرم الناس وأسخاهم وأجودهم . والجود والكرم من صفات الأسخياء الأوفياء .

لقد تفوق ﷺ على الناس جميعا فى هذا الأمر حتى أنه كان يؤثر سائله على نفسه ﷺ فقال الله تعالى له : ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾ [الإسراء : ٢٩] .

إنه رسول الله ﷺ أعلى الناس قدرا وأسماهم شرفا ورفعة . إنه محمد ﷺ الإنسان الكامل .

لقد امتزجت صفات الرحمة بصفات الشجاعة والقوة وشدة البأس عند رسول الله ﷺ واجتمع حسن خلقه ﷺ مع عدله وإقامته حدود الله فى الأرض

من غير خشية ولا وهن، حتى كان ﷺ الإنسان الكامل فكان فى أعلى مراتب الإنسانية.

وأعتذر لسيدى رسول الله ﷺ عن عجزى عن استيفاء هذا الجانب العظيم من جوانب شخصية الرسول ﷺ وهو الجانب الإنسانى لأنك يا سيدى قد جمعت كل ألوان الكمالات فى ذاتها فأنت يا سيدى عظيم. ولا يوفيك فى الحديث عنك إلا الرب العظيم لأنه خلقك وأدبك وعلمك وأرسلك.

أما أنا وغيرى فلن نستطيع أن نصف النور إلا بأنه نور صلى الله عليك وآلك وصحبك وسلم.

* * *

(٧) أوصافه ﷺ

أعلم أن من تمام الإيمان به ﷺ. الإيمان بأن الله تعالى جعل خلق بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلق آدمى مثله. فيكون ما يشاهد من خلق بدنه آيات على ما يتضح لك من عظيم خلق نفسه الكريمة. وما يتضح من عظيم أخلاق نفسه آيات على ما تحقق له من سر قلبه المقدس. ولله در البوصيرى حيث قال:

فهو الذى تم معناه وصورته ثم اصطفا حبيبا بارئ النسم

منزه عن شريك فى محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

يعنى: حقيقة الحسن الكامل كائنة فيه. لأنه الذ تم معناه دون غيره. وهى غيرمنقسمة بينه وبين غيره، وإلا لما كان حسنه تاما لأنه إذا انقسم لم ينله إلا بعضه فلا يكون تاما وفى الأثر: أن خالد بن الوليد خرج فى سرية من السرايا. فنزل ببعض الأحياء. فقال سيد ذلك الحى: صف لنا محمدا. فقال: أما إنى أفصل فلا. فقال الرجل: أجمل. فقال: (الرسول على قدر المرسل) ذكره ابن المنير فى أسرار الإسرار. ذكره القسطلانى فى المواهب اللدنية.

وقد ذكر القرطبى فى كتاب الصلاة عن بعضهم أنه قال: (لم يظهر لنا تمام حسنه ﷺ لأنه لو ظهر لنا تمام حسنه لما أطاقت أعيننا رؤيته ﷺ).

يقول البوصيرى رحمه الله تعالى:

أعيى الورى فهم معناه فليس يرى   للقرب والبعد فيه غير منفحم

كالشمس تظهر للعينين من بعد   صغيرة وتكل الطرف من أمم

* (صفة رأسه الشريف)

روى الترمذى فى جامعه بسنده إلى هند بن أبى هالة قال: كان رسول الله ﷺ عظيم الهامة.

وقال نافع بن جبير: وصف لنا على بن أبى طالب رضي الله عنه رسول الله ﷺ. فقال: كان عظيم الهامة.

* (صفة وجهه الشريف ﷺ)

روى الشيخان من حديث البراء قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجها. وأحسنهم خلقا ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير البائن.

وروى أحمد والترمذى والبيهقى قال أبو هريرة رضى الله عنه: ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجرى فى وجهه.

وقال البراء رضى الله عنه لمن سأله: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ فقال لا. بل مثل القمر أى في التدوير لقد شبهه البراء بالقمر لأن القمر يملأ الأرض بنوره ويؤنس كل من يشاهده، ونوره لين غير حار.

وقال أبو هريرة كان أسيل الخدين.

وأخرج البخارى عن كعب بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا سرّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر. وكنا نعرف ذلك منه.

وفيما أخرجه الترمذى من حديث ابن أبى هالة: كان رسول الله ﷺ فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر.

* (صفة بصره الشريف ﷺ)

قال الله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يرى بالليل فى الظلمة كما يرى فى النهار فى الضوء [رواه البخارى].

وروى البيهقى عن عائشة رضى الله عنها مثله.

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (هل ترون قبلتى هاهنا. فوالله ما يخفى على ركوعكم ولا سجودكم إنى لأراكم من وراء ظهرى).

وفى حديث ابن أبى هالة: وإذا التفت التفت جميعا خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء جل نظره الملاحظة.

* (صفة سمعه ﷺ).

روى الترمذى عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون. أطت السماء وحق لها أن تئط. ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد لله تعالى).

* (صفة جبينه وبعض جسمه ﷺ)

روى البيهقى عن رجل من الصحابة قال: رأيت رسول الله ﷺ. فإذا رجل حسن الجسم عظيم الجبهة. رقيق الحاجبين وروى مسلم من حديث جابر: أنه ﷺ كان ضليع الفم – يعنى واسعه – وكذا وصفه به ابن أبى هالة.

وروى الترمذى فى الشمائل عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أفلج الثنيتين. إذا تكلم رؤى كالنور يخرج من ثناياه.

* (صفة ريقه وعرقه ﷺ)

روى الشيخان عن سهل بن سعد: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه. يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله» فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها.

قال: أين على بن أبى طالب فقالوا: هو يا رسول الله يشتكى عينيه. قال: فأرسلوا إليه فاتى به. فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع.

وروى أبو نعيم: أنه ﷺ بزق فى بئر فى دار أنس فلم يُر فى المدينة بئر أعذب منها.

وكان الصحابة رضى الله عنهم يسلتون عرقه الشريف ويضعونه فى طيبهم. وكان بالمدينة عائلة يستخدمون عرقه ﷺ فى طيبهم. حتى كانوا يسمون (المطيبين) لطيب ريحهم وهكذا كان رسول الله ﷺ حسن الخَلْق والخُلُق. كان جميل المحيا طيب الرائحة.

يقول أنس رضى الله عنه: ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله ﷺ وما شممت طيبا ولا ريحا أطيب من ريح رسول الله ﷺ وكان إذا مر من طريق عرفناه لطيب ريحه ﷺ.

* * *

الفصل الثانى
الخصائص والكمالات النورانية

إن الله سبحانه وتعالى قد أنعم على نبينا سيدنا محمد ﷺ بخصائص وكمالات نورانية حظى بها وحده.

ونزل بها الوحى فى آيات قرآنية متعددة فى سور شتى.

وهى إن دلت على شئ فإنها إنما تدل على قدره وشرفه ورفعة كمالاته وعلو شأنه وعظيم مجده، وصدق تبليغه واخلاص عبوديته وحسن ولايته وسمو أخلاقه وأرفع صفاته. وأزكى استسلامه وانقياده لأمر ربه عز وجل. فكان له عند ربه عز وجل المقام الأسنى والرتبة العليا والمقام المحمود والجزاء الأوفى والرضا والرضوان وكان له وعد ربه عز وجل ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾.

لقد خلقه ربه سبحانه وتعالى ورباه وأدبه وطهره وعلمه. وجمله وكمله. وخلع عليه من حلل البهاء والجمال والنور والإيمان ما بين فى آيات القرآن سر تقدمه على سائر الأنبياء والمرسلين.

سيدى يا رسول الله يعجز القلم عن أن يسطر ما يترجم عما فى القلب من معانى ومشاعر تفيض لك حبا وعرفانا ولربى عز وجل حمدا وشكرا على ما أولاك به من النعم. وكان فضل الله عليك عظيما وما سجلته على هذه الصفحات هو قليل يكثر نفعه من كثير يصعب حصره. وفيه بإذن الله تعالى - بغية كل طالب وتحفة كل راغب. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

أولا: القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو كتاب الله عز وجل أنزله على حبيبه المصطفى ورسوله المجتبى سيدنا محمد ﷺ بواسطة الوحى فى اليقظة التامة. وليس مناما ولا إلهاما.

أنزله الله تعالى هداية ورحمة ونورا ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢].

وهو كلام الله القديم نزل بلفظه ومعناه. وهو المعجزة الكبرى والآية العظمى الباقية إلى أن يرفعه الله تعالى من الصدور تحدى الله تعالى به الخلق جميعا: تحدى به العرب. وهو نزل بلغتهم فى فصاحته وبلاغته وبيانه. وتحدى به غير العرب فى شرائعه وقوانينه وأحكامه. لأنه معجزة دالة على نبوة سيدنا محمد ﷺ قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

وقال عز وجل: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤].

فالقرآن الكريم أنزله العلى الكبير على النبى الأمين سيدنا محمد ﷺ ليكون للعالمين دليلا ومنهاجا وشريعة وأحكاما قال الإمام القرطبى فى مقدمة جامعه: [(١)].

والمرسل رسوله بالبيان محمدا ﷺ ما اختلف الملوان وتعاقب الجديدان. أرسله بكتابه المبين. الفارق بين الشك واليقين الذى أعجزت الفصحاء معارضته. وأعيت الألباء مناقضته.

وأخرست البلغاء مشاكلته فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. جعل أمثاله عبرا لمن تدبرها. وأوامره هدى لمن استبصرها وشرح فيه واجبات

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١ / ٥.

الأحكام. وفرق فيه بين الحلال والحرام وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام. وضرب فيه الأمثال وقص فيه غيب الأخبار. فقال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] خاطب به أولياءه ففهموا. وبين لهم فيه مراده فعلموا. فقرأة القرآن حملة سر الله المكنون. وحفظة علمه المخزون. وخلفاء أنبيائه وأمناؤه. وهم أهله وخاصته. وخيرته وأصفياؤه قال رسول الله ﷺ (إن لله أهلين منا) قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال: (هم أهل القرآن أهل الله وخاصته) أخرجه ابن ماجة فى سننه وأبو بكر البزار فى مسنده.

فما أحق من علم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه. ويتذكر ما شرح له فيه. ويخشى الله ويتقيه. ويراقبه ويستحييه. فإنه قد حمّل أعباء الرسل. وصار شهيدا فى القيامة على من خالف من أهل الملل قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله. أوكد منها عن من قصر عنه وجهله ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع. وزجرته نواهيه فلم يرتدع. وارتكب من المآثم قبيحا. ومن الجرائم فضوحا. كان القرآن حجة عليه وخصما لديه. قال رسول الله ﷺ: (القرآن حجة لك أو عليك) خرجه مسلم. فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته ويتدبر حقائق عبارته ويتفهم عجائبه ويتبين غرائبه. قال الله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ [ص: ٢٩] وقال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤] جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته ويتدبره حق تدبيره) أ.هـ.

فهؤلاء الذين يدعون بشرية القرآن وأنه من تأليف النبى ﷺ. هم كذابون وضالون ومضلون لكفرهم بما أنزل الله تعالى وادعائهم زيفه وتزويره خذلهم الله تعالى وأصمهم وأعمى أبصارهم وختم على قلوبهم ولهم عذاب عظيم.

قال الله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾

[البقرة: ٢٨٥]

وقال الله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٣، ٤].

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال الله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢].

وقال الله تعالى: ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف: ٢، ٣].

وقال الله تعالى: ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [ابراهيم: ١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

[الحجر: ٩]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف: ١ - ٣].

وقال عز وجل: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

وقال عز وجل: ﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ١، ٢].

وقال عز وجل: ﴿ الٓمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

[السجدة: ١، ٢]

وقال الله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ١ - ٤].

والآيات المنزلة فى هذا الشأن كثيرة ويكفينا هذا للاستدلال على أن القرآن الكريم منزل من رب العالمين على حبيبه الأمين ﷺ وقد بدأ نزوله فى شهر رمضان فى ليلة مباركة هى ليلة القدر.

قال الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣].

وقال المولى عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١].

إن هذا القرآن هو المنحة الكبرى والهدية العظمى والمعجزة الباقية التى آثر الله بها رسوله محمدا ﷺ وأمته، أنزل الله تعالى القرآن الكريم ثم جعل إلى رسوله ﷺ بيان ما كان منه مجملا، وتفسير ما كان منه مشكلا وتحقيق ما كان منه محتملا. ليكون له مع تبليغ الرسالة. ظهور الاختصاص به. ومنزلة التفويض إليه ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾

[النحل: ٤٤]

وقال عز وجل: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

[الشورى: ٥٢]

ثم جعل الله إلى العلماء بعد رسول الله ﷺ استنباط ما نبه على معانيه. وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد. فيمتازوا بذلك عن غيرهم. ويختصوا بثواب اجتهادهم قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١] فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا. واستنباط العلماء له إيضاحا وتبيانا. قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] والقرآن كلام الله وهو نور يرسل إلى القلوب. والقلوب أوعية يتلون ذلك النور بلونها. وكل عالم يرسل بتفسيره شعاعا حسب استعداده وقابليته. وما استودع فيه من الهبات الإلهية النورانية.

يقول سيدنا الإمام على رضى الله عنه وهو يشير إلى صدره: (إن هاهنا علوما جمة. لو وجدت لها حملة).

وروى عنه أيضا أنه قال: (لو شئت لأوقرت من تفسير الفاتحة سبعين بعيرا).

هذا ويجب على قارئ القرآن أن يتلو آياته بتدبر وخشوع لله وخضوع ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

وقال الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه: (والله لقد تجلى الله تعالى لخلقه فى كلامه ولكن لا يشعرون).

وقال أيضا – وقد سألوه عن حالة لحقته فى الصلاة حتى خر مغشيا عليه. فلما سُرّى عنه قيل له فى ذلك. فقال: (ما زلت أردد الآية على قلبى حتى سمعتها من المتكلم بها. فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته) وقال العالم العارف ابن عجيبة رحمه الله تعالى:

فدرجات القراءة ثلاث:

أدناها: أن يقرأ العبد كأنه يقرأ على الله تعالى واقفا بين يديه وهو ناظر له ومستمع منه، فيكون حاله السؤال والتملق والتضرع والابتهال.

والثانية : أن يشهد بقلبه كأن الله تعالى يخاطبه بالفاظه ويناجيه بإنعامه وإحسانه . فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم .

والثالثة : أن يرى فى الكلام المتكلم فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته . بل يكون فانيا عن نفسه غائبا فى شهود ربه . لم يبق له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار .

فالأولى لأهل الفناء فى الأفعال والثانية لأهل الفناء فى الصفات والثالثة لأهل الفناء فى شهود الذات . رضى الله عنهم وحشرنا على منهاجهم . آمين . أ . هـ[1] .

أما أولئك الذين يقرءون القرآن وقلوبهم عنه غائبة وعقولهم عنه شاردة . هم يسيئون إلى كتاب الله . وذلك هو الخسران المبين، ذكر الإمام الحافظ أبو الحسن رزين وأبو عبد الله الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث حذيفة أن رسول الله ﷺ قال : (اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها . وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابين . وسيجئ بعدى قوم يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم) ورواه القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن .

لقد أوتى رسول الله ﷺ القرآن وقد أمر بتبليغه وبيانه – كما ذكرنا سلفا – وبيانه هو ما ورد فى سنته الشريفة من تفسير مبهمه وتفصيل مجمله وتخصيص عامه . وبيان شرائعه وأحكامه . فالسنة لازمة للقرآن ولا تنفك عنه . ويتجلى ذلك فيما يلى :

أولا : السنة تؤكد على أحكام القرآن .

وثانيا : السنة تفصّل وتوضح أحكاما جاءت مجملة فى القرآن .

وثالثا : السنة تنشئ أحكاما لم يذكرها القرآن الكريم .

وهو ما قرره الإمام الشافعى رضى الله عنه فى كتابه « الرسالة » مبينا العلاقة

---

(١) البحر المديد ١ / ٧٣ .

بين القرآن والسنة وقد شرح ذلك الموضوع بوضوح [1]. وبعد : إن القرآن الكريم بدرره ولآلئه وأصدافه وبأنواره وإشراقاته وبأسراره ظاهره وباطنه. نعمة كبرى ومنة عظمى اختص الله بها نبيه وأمته. وصدق الله العظيم : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

وروى البخاري عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه).

اللهم اجعل القرآن حجة لنا لا علينا .. آمين.

* * *

ثانيا : رحمة الله للعالمين وعموم رسالته

إنه عالم قد شارف النهاية. كفر بالله عز وجل وجاهلية سوداء قاتمة، يهودية محرفة وضالة مضللة حاقدة على ما سواها من البشر. ونصرانية هزيلة مزيفة. لقد كفر أتباع اليهودية بربهم ووصفوه بأبشع الأوصاف وأبشعها.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾

[المائدة: ٦٤]

وقالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

[المائدة: ١٣، ١٤]

---

(١) راجع كتابنا : الإمام الشافعي فقيها ومحدثا.

وقال عز وجل: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

[التوبة: ٣٠، ٣١]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة: ١٨]. كانت تلك حالة اليهود والنصارى.

كما كانت هناك الوثنية المتعددة التي أخذت من مظاهر الطبيعة ومن الأصنام ومن الأشخاص والحيوانات آلهة تعبدها من دون الله عز وجل.

وأما عرب الجزيرة فقد كانوا يعبدون الله بما بقى من دين اسماعيل عليه السلام ولطخوه بوثنيتهم التي صنعوها بأيديهم فعبدوا الأصنام والأوثان وقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ وكاد ليل البشرية أن يطول وهي ترزح في ظلام الكفر والشرك والوثنية والأقل من القليل من البشر حائرون. يرفضون بفطرتهم ما عليه جموع الناس. ولا يدرون ماذا يفعلون وإلى أي وجهة يتجهون. إن كثيرا من الأحبار والرهبان والقساوسة وسدنة المعابد والأوثان ضالون ومضلون.

وبينما النفر القليل يتطلعون إلى ظهور من يبدد لهم حيرتهم ويكشف للبشرية كلها عن معرفة المعبود وبيان حقيقة العبادة اللائقة به، وإذا بالفجر يبزغ ضوءه وشمس الضحى ترسل أشعتها الذهبية على أنحاء المعمورة.

وتنبأ المتنبئون بقرب ظهور نبي آخر الزمان وأخذوا يبشرون بذلك. وولد الأمل من جديد عند بعض الناس.

وكانت رحمة الله بعباده في طريق الظهور. وإذا بالقادم على البشرية كلها:

سيد الأنام وناشر نور الحق ليبدد به الظلام ويقيم شريعة العدل والبر والإحسان . فكان سيدنا محمد ﷺ . الأمل المرجو والمفاجأة المبيدة لدعاة عبادة الطواغيت . فاستقبله الكون كله بالفرح والسرور والترحيب والإجلال .

ولما أتم الأربعين من عمره الشريف وفي ليلة القدر من شهر رمضان نزل عليه الوحي ليبلغه بتكليفه بالقيام برسالة ربه إلى أهل الأرض جميعا . فكان أول ما نزل من القرآن الكريم : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق : ١ - ٥] . ففى هذه الآيات ما يوحى بعالمية الدعوة . وأنها ليست للعرب خاصة بل هي للبشرية عامة . ولا يعترض عليه بمثل قوله تعالى : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ .

فهذا أمر طبيعى وعادى أن يبدأ بمن حوله لأنهم أعرف الناس به . وتصديقهم له سوف يكون دعوة لغيرهم للدخول فى دين الله أفواجا وهو ما يؤيده الواقع ومسيرة الدعوة النورانية المحمدية .

إن مما خص به صلوات الله وسلامه عليه هو عالمية الدعوة فالإسلام للبشرية كلها فى كل بقاع الأرض . وهو مما تميز به سيدنا رسول الله ﷺ على سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

قال رسول الله ﷺ : (أعطيت خمسا لم يعطهن نبى قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا وتربتها طهورا وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد من قبلى وأعطيت الشفاعة . وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت للناس عامة) .

وفى القرآن الكريم عدة آيات تبين أن رسول الله ﷺ قد خصه الله عز وجل بعموم رسالته وعالمية دعوته . منها قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ففى هذه الآية دلالة على أنه ﷺ مبعوث إلى كافة

الثقلين. وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عن النبى ﷺ أنه قال: (والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ولا يهودى ولا نصرانى ومات. ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار).

وقال الله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩].

فلقد خاطب الله أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمدا ﷺ خاتم النبيين الذى لا نبى بعده ولا رسول . بل هو المعقب لجميعهم ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ .

فالله عز وجل قد بعثه على فترة من الرسل وطموس من السبل وتغير الأديان وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان فكانت النعمة به أتم والنفع به أعم.

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بنى إسرائيل) وفى رواية مسلم: «من أهل الكتاب».

إن الدين كان قد التبس على أهل الأرض جميعا حتى بعث الله تعالى رسوله المصطفى ﷺ فهدى به الثقلين.

وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور. وتركهم على المحجة البيضاء والشريعة الغراء صلوات الله وسلامه عليه.

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ولا رحمة مع التكليف بما لا يفهم.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: ﴿ رحمة للبر والفاجر. لأن كل نبى إذا كُذّب أهلك الله من كذبه. ومحمد - ﷺ - أخرّ من كذبه إلى الموت أو إلى القيامة. وأما من صدقه فله الرحمة فى الدنيا والآخرة).

وذكر القاضي عياض في الشفا قال: قال أبو بكر بن طاهر: زين الله تعالى محمدا ﷺ بزينة الرحمة فكان كونه رحمة. وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق فمن أصابه شئ من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه. والواصل فيهما إلى كل محبوب. أ. هـ.

وقال نصر بن محمد السمرقندي: رحمة للعالمين يعني الجن والإنس. وقيل: لجميع الخلق: للمؤمنين رحمة بالهداية. ورحمة للمنافق بالأمان من القتل. ورحمة للكافر بتأخير العذاب قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وروى البيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنما أنا رحمة مهداه) (١).

وقال بعض العارفين: (الأنبياء خلقوا كلهم من الرحمة. ونبينا ﷺ عين الرحمة) (القسطلاني في المواهب).

وقال الله عز وجل: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان: ١].

فهذه الآية أيضا تدل على عموم رسالته ﷺ ﴿ **لِيَكُونَ** ﴾ أي القرآن الكريم أو محمد ﷺ ﴿ **لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ فرسول الله ﷺ منذر بما جاء به لكل من أعرض عن ذكر الله عز وجل والتصديق بنبوته ﷺ وقال الله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [سبأ: ٢٨].

إن كل إنسان وجد على ظهر الأرض منذ بعثة رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة هو مطالب من ربه عز وجل أن يؤمن به ربا واحدا يعبده ولا يعبد سواه وأن يصدق بنبوة الرسول ﷺ. فكل البشر مخاطبون بالقرآن (يا أيها الناس) وقد

---

(١) ورواه الحاكم وصححه على شرطهما وأقره الذهبي.

تعددت فى القرآن الكريم ينادى على أمة الدعوة. ليؤمن من لم يؤمن. ويسلك الطريق القويم طريق التقوى من آمن وصدق بنبوة المصطفى ﷺ.

وروى مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون) والرسول ﷺ هو النبى الخاتم فلا نبى بعده.

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولا يقدح فى هذا نزول سيدنا عيسى عليه السلام فى آخر الزمان ونزوله من علامات الساعة. لأنه إذا نزل كان على دين نبينا ﷺ ومنهاجه. ويدعو أمته للإيمان برسالة محمد ﷺ ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ وإنه لعلم للساعة).

وفى الصحيح (ينزل فيكم أخى عيسى حكما عدلا بينكم يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية حتى يفيض المال ولا يجد من يأخذه).

قال أبو حيان: ومن ذهب إلى أن النبوة مكتسبة لا تنقطع أو إلى أن الولى أفضل من النبى فهو زنديق يجب قتله والله أعلم. إن ما سبق يؤكد أن سيدنا رسول الله ﷺ قد بعثه الله سبحانه وتعالى للإنس والجن على السواء. وأن رسالته عامة. وعلى هذا أجمعت الأمة كلها. ولا ينكر هذا إلا جاهل بالإسلام أو حاقد عليه أو على النبى ﷺ.

كما روى عن طائفة العيسوية من اليهود – وهم أتباع عيسى الأصبهانى – أنهم قالوا: إن محمدا صادق مبعوث إلى العرب غير مبعوث إلى بنى إسرائيل.

وهذا القول باطل لقول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وبعض الناس من المتعالمين يرددون مثل هذا القول الذى قالت به هذه

الطائفة. فقد قرأنا لمن يقول: إن رسول الله ﷺ مبعوث إلى العرب خاصة وواجب عليهم اتباعه وما عدا العرب ممن سمع ببعثته مخير في الإيمان به والعمل بشريعته.

وهذا القول ظاهر البطلان لما ذكرناه من صريح القرآن ومن صحيح السنة كما مر سلفا.

وصدق الله العظيم في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾.

● منهجه ﷺ في الدعوة:

يقصد بالمنهج: الطريقة والأسلوب والبشكل الذى كان يستخدمه ﷺ في تبليغ دعوته السامية للبشرية تنفيذا لأمر ربه عز وجل: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقال الله عز وجل: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فمن هذه الآيات نستطيع أن نستخلص شروط الداعية كما يلي:

١- أن يكون الداعية ملما بموضوع الدعوة ومدركا لقضاياها والرسول ﷺ كان على علم تام بموضوع دعوته ومصدره في ذلك ما يوحى الله به إليه.

﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ** ﴾ [النجم: ١ - ٥].

٢- أن يجيد لغة التخاطب: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾.

والرسول ﷺ كان قرشيا وقد نزل القرآن الكريم بلغة قريش من العرب وهى لغة أهل الجنة كما روى.

وواضح أنه ﷺ كان قادرا على تبليغ قومه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾.

٣ – أن يكون رحيما لينا مرنا فى مقاله بما لا يبعده عن قول الحق ولا يكون فظا غليظ القلب فينفض عنه الناس ويرفضون دعوته. وكذلك كان رسول الله ﷺ رحيما يستخدم اللين فى أسلوبه مما جعل العقلاء من الناس يؤمنون به ويصدقون برسالته.

٤ – أن يلتزم الحكمة. وهى وضع الأمور فى نصابها. وأن يستخدم الموعظة الحسنة فى بيانه.

ومن من الناس كان أكثر حكمة من رسول الله ﷺ وأقدر منه على الموعظة الحسنة؟

إنه رسول الله ﷺ الذى رباه ربه عز وجل وأدبه وعلمه وآتاه الحكمة وفصل الخطاب.

٥ – أن لا يجادل فى آيات الله بغير علم. وأن يجادل أهل الكتاب بالتى هى أحسن. وغيرهم من المشركين عبدة الأصنام بالحجة والبرهان فى حسن وأدب حتى لا ينفرهم من دعوته. فإن آمنوا به وصدقوه فبها ونعمت. وإن لم يصدقوا به كان الباب مفتوحا أمامه وأمامهم للمراجعة والمحاورة والنقاش فى غير عصبية أو جمود. وذلك كان أسلوب رسول الله ﷺ. وقد أفلح عليه الصلاة والسلام فى ذلك وحقق نتائج عظيمة. يحنى التاريخ رأسه احتراما وتبجيلا للداعية.

٦ – أن يكون الداعية على خلق عظيم. يتحلى بمكارم الأخلاق وحميد الصفات وجميل الأفعال، ومن أعظم خلقا من رسول الله ﷺ الذى أثنى عليه المولى عز وجل فى قوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ لقد كان خلقه القرآن ﷺ.

وأما منهج الداعية ﷺ وخطته فقد كانت كما يلى:

أولا : فى مكة المكرمة (المرحلة الأولى) :

قام رسول الله ﷺ ليبلغ دعوة الله عز وجل لعباده فى مكة المكرمة ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ .

لأنهم أعرف الناس به . لأن قد نشأ وتربى حتى بلغ سن الأربعين بينهم وتربطه بهم صلة الدم والنسب . مما يساعدهم على الإيمان بنبوته والتصديق برسالته لما يعرفونه عنه من الصدق والأمانة وكرم الخلق .

وكانت طريقته في الدعوة معهم ولهم تقوم على أساسين هما :

الأول : نبذ عبادة الأصنام وتفنيد آرائهم وعقيدتهم فيها . وبين لهم أنها عبادة شرك لله عز وجل . لأن الله وحده المخصوص بالعبادة ولا يتوجه العبد بأى لون من ألوان العبادة إلا لله وحده .

والثاني : دعوتهم للإيمان بوحدانية الله عز وجل والتصديق بنبوته ورسالته ﷺ . فإن من فعل ذلك فاز ونجا ومن أعرض عن ذلك فقد خسر خسرانا مبينا وتمسك ﷺ بما دعا إليه . فهددوه وساوموه وفرضوا عليه وعلى أهله وذويه وأصحابه الحصار فى شعب أبى طالب وقاطعوهم وضربوا وقتلوا بعض أصحابه فلم تخر له عزيمة ولم يضعف . وقام يعلنها صريحة (والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى حتى أترك هذا الأمر فلن أتركه حتى أبلغه أو أهلك دونه) [1] ولما رأى عمه منه هذا الإصرار وأبصر فيه هذه القوة وتلك الجرأة التى تبين عن عظمته ﷺ . فقال : (يا ابن أخى : امضى لما أمرك الله فوالله لا أسلمك إليهم أبدا) . ووقف عمه بجواره يؤيده ويسانده حتى مات وفى مكة المكرمة عاش رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاما قويا صلبا . ولم تخيفه مكة بشيوخها وشبابها ولكنه كان يعلنها دائما فى قوة وعزة وصلابة (إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد) .

---

(١) وفى رواية : حتى يظهره الله تعالى أو أهلك دونه .

فآمن به نفر قليل بمكة أكثرهم من أبناء سادتها وكبرائها : السيدة خديجة . أبو بكر الصديق . عثمان بن عفان . على بن أبى طالب سعد بن أبى وقاص . حمزة بن عبد المطلب . عمر بن الخطاب . الزبير بن العوام ومن على شاكلتهم رضى الله عنهم .

وكان رسول الله ﷺ يمكنه بمن معه أن يرفع السيف فى وجوه أعدائه بمكة ولكن لم يأذن الله له بقتال أهلها لأن الدعوة لم تزل فى مهدها وستكون عاقبة ذلك انصراف الناس .

وظل يدعو إلى ربه بمكة وما حولها ويتعرض للحجاج ويعرض عليهم دعوته . وكان عند الناس بمكة قناعة بصدقة وصدق ما جاء به ولكنه الحقد والحسد :

قال الله تعالى مؤكدا هذه الحقيقة : ﴿ **فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ .

لقد كانوا يجحدونها رغم معرفتهم بها ولذلك لم يقل ﴿ **ينكرون** ﴾ ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ** ﴾ .

وظل حال الدعوة بمكة هكذا تمشى الهوينى حتى كانت الهجرة الشريفة إلى يثرب (المدينة المنورة) على ساكنها أفضل الصلاة والسلام .

ثانيا : فى المدينة المنورة (المرحلة الأخيرة) :

هاجر رسول الله ﷺ من مكة المكرمة إلى يثرب (المدينة المنورة) بإذن ربه عز وجل ليجاهد فى تبليغ رسالته فى ميدان جديد بعد أن توقف المد الإسلامى بمكة . وأصبح الذين يدخلون فى الإسلام لشدة وطأة أهل مكة ووقوفهم فى وجه الدعوة ومضايقتهم للمسلمين وصدهم وإعراضهم عما جاء به رسول الله ﷺ .

وعلى مشارف يثرب كان اللقاء المرتقب بين رسول الله ﷺ وبين أصحابه الذين سبقوه بالهجرة وأهل يثرب الكرام. وكان اللقاء عظيما وحميما تفجرت فيه المشاعر وتلاقت فيه الآمال وظهر فيه صدق أهل يثرب فيما وعدوا به المصطفى ﷺ.

وفى هذا المكان كان بناء المسجد وهو أول فعل يقدم عليه رسول الله ﷺ لأن المسجد هو المدرسة الأولى للإسلام وفيه تجسد العقيدة وفيه تحسن العبادة.

فكان بناء مسجد قباء ﴿ **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾.

وبعد أيام من بناء مسجد قباء انتقل ﷺ والمهاجرون إلى المدينة حيث قدر الله تعالى له أن تكون إقامته إلى الانتقال إلى الرفيق الأعلى. وقد حقق الله تعالى للنبى ﷺ ما كان يصبوا إليه فلقد أصبحت المدينة – بعد خمولها – كخلية نحل لا تنقطع فيها الحركة وأخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا.

وقد اتخذ النبى ﷺ عدة إجراءات وسلك سبلا جديدة – هى امتداد لما كان قد بدأه بمكة – وذلك على النحو التالى:

(١) بناء مسجده الشريف ليكون مركزًا لنشر الدعوة ولتدار منه أمور الدولة الإسلامية الفتية التى بدأ ﷺ فى تأسيسها.

(٢) عقد معاهدة مؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. ليصهر أفراد المجتمع المسلم فى بوتقة واحدة وليقرب بين جناحى الأمة المهاجرين والأنصار حتى لا يكون بينهم تناقضات وليتحقق فيهم الانتماء الحقيقى للدولة الجديدة تحت رعاية رسول الله ﷺ.

وقد حدد فيها موقف اليهود والمشركين من الدولة وموقف الدولة منهما وتتكون وثيقة دستور دولة النبى ﷺ فى المدينة من إثنين وخمسين مادة. خص منها اليهود بخمس عشرة مادة.

ذكرت هذه الوثيقة فى سيرة ابن هشام وفى نهاية الأرب . وقد حققها محمد حميد الله الحيدر أبادى [١].

وسيدنا رسول الله ﷺ بهذه المعاهدة قد حدد المواقف لعناصر الدولة الجديدة (المسلمون واليهود والمشركون) .

ثم إنه بذلك قد قطع الطريق على مكة فلن يكون لهم بالمدينة من يناصرهم أو يساعدهم فى الكيد للرسول ﷺ ولأصحابه وبذلك يكون قد أمن على الدولة المسلمة من حقد هؤلاء . ولم يبق أمامه سوى قريش وحدها .

(٣) ولما تم له ﷺ عقد هذه المعاهدة أخذ يعد الجيش الإسلامى القوى — والقوات المسلحة هى الدرع الواقى للدولة من كيد أعدائها — ليكون دائما على استعداد للقاء العدو . إن فرض عليه العدو ذلك .

والقتال فى الشريعة الإسلامية شرع للدفاع عن العقيدة وعن النفس وحماية للعرض وصيانة للوطن . كما أنه شرع صونا للسلام وتثبيتا له . وليس للعدوان وسلب الحقوق .

قال الله عز وجل : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

(٤) ولم توقف هذه الإجراءات رسول الله ﷺ عن مواصلة مسيرة الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ الرسالة المكلف بها ، لقد كان يدعو إلى ربه هنا وهناك . ويعلم المسلمين أحكام الله تعالى وشريعته . وأخذ الوحى ينزل عليه بالسور والآيات المتتابعات بالأحكام والشرائع التى تبين العبادة وتحدد صيغ المعاملات وتفسر وتوضح نظام المعاملات والحقوق والواجبات وإدارة شئون الدولة وعلاقات الأفراد بها وعلاقتها بهم وشريعة الجهاد والحكم والقضاء وغير ذلك مما هو مبين فى كتب الفقه والشريعة .

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة : ١٥ — ٢١ ط القاهرة .

(٥) إعلان الجهاد المسلح ضد المعتدين والمعارضين لقيام دولة الإسلام فوقعت سلسلة من المعارك والغزوات لم يبدأها رسول الله ﷺ والمسلمون. ولكن الأعداء هم الذين هيأوا أسبابها - فكانت - دائما - الدائرة عليهم بفضل الله تعالى ومعونته.

(٦) الانتقال بالدعوة من داخل المدينة المنورة إلى ما حولها من القبائل المختلفة والأمصار العديدة فتحركت الوفود من عند رسول الله ﷺ وأتته الوفود من جهات متعددة يعلنون إسلامهم وأقوامهم أو يعلنون حيادهم وعدم مناصرة أعداء الإسلام والمسلمين.

(٧) دعوة أهل الكتاب إلى الدخول فى الإسلام ومحاورتهم وجدالهم بالتى هى أحسن: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ولما تمرد أهل الكتاب (اليهود) ونقضوا العهد والميثاق أجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة. وكانت تلك عاقبة أمرهم لأنهم لا عهد لهم ولا ذمة.

(٨) أخذ ﷺ يرسل الكتب والرسائل مع سفرائه ومندوبيه إلى الملوك والرؤساء يدعوهم فيها للدخول فى الإسلام وذلك فى العامين السادس والسابع بعد أن انهارت قوى العدو من اليهود وقريش. بقوة المسلمين أو بالمعاهدات التى عقدت معهم. فلقد انتصر على اليهود فى العام الخامس من الهجرة ووقع صلح الحديبية مع قريش فى العام السادس. وأخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا.

لقد استمر إرسال هذه الكتب والرسائل التى صيغت بمنتهى الحكمة والبراعة. وكان الرسول ﷺ فيها سمحا يدعو ولا يهدد يخاطب الملوك والرؤساء بألقابهم ومكانتهم ويقرر لهم أن سلطانهم سيظل قائما فى ظل الإسلام. فهو لا يطلب ملكا ولا يطمع فى مغنم وإنما هو مرسل بأمر الله عز وجل. واستمر ذلك حتى وفاته ﷺ كما ذكره الطبرى فى تاريخه (٢ / ٦٤٥).

وكان على رأس من أرسل إليهم: هرقل ملك الروم. وكسرى عظيم فارس. والمقوقس عظيم مصر وزعيمها وإلى النجاشى ملك الحبشة وإلى ملكى عمان وأمير دمشق وملك البحرين وملك اليمامة وغيرهم من ملوك ورؤساء أهل الأرض.

وكان ﷺ يخاطب كلا منهم بما يليق به لأن بعضهم كانوا من أهل الكتاب وبعضهم كان وثنيا.

روى الطبرانى فى التاريخ: أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات غداة فقال لهم [1]:

(إنى بعثت رحمة للعالمين. وللناس كافة فادوا عنى يرحمكم الله).

وهكذا كان رسول الله ﷺ فى المدينة المنورة داعيا إلى ربه عز وجل ومعلما ومربيا لجيل أثرى الحياة البشرية بالعطاء والإيمان والخلق الرفيع.

ولا عجب فهم الصحابة الكرام الذين استقبلوا عن الله من فيِّ رسول الله ﷺ وعليهم تسطع أنواره المحمدية وترهف أسماعهم بصوته الندى الذى ينطق بالحكمة وفصل الخطاب ويزكيهم ويعلمهم بما نزل به الوحى عليه السلام وتمس شغاف قلوبهم إشعاعاته النورانية فى كلماته الإيمانية الأخاذة فتضطرب القلوب وتسكن الأفئدة وتلهج الألسنة بذكر الله عز وجل وتتعب الأجساد مجاهدة صابرة لكى تحظى بما أعده الله للمؤمنين المتقين فى الدار الآخرة.

لقد جاهدوا صابرين. رهبان بالليل وفرسان بالنهار فى ظل حياة دنيوية قاسية زادهم وزوادهم هو فضل الله وإحسانه يمتعهم فى دنياهم رؤية الرسول ﷺ ومجالسته يبصرون بأنواره ويستنشقون ريحه وريحانه ويروون قلوبهم الظامئة بما يخرج من بين شفتيه وثنايا أسنانه. يغمرهم بحنانه ويعطف عليهم برحمته ورأفته ﴿ **بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ ﷺ حتى فارق الدنيا وهو عنهم راض. فحملوا

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٦٤٥.

أرواحهم على أكفهم وأسلحتهم على أكتافهم يسلكون سبيله ويعملون بطريقته حتى فتح الله عليهم البلاد والأمصار . وأخذت رايات الإسلام ترفرف في شتى البقاع والأسقاع . فعاشوا كرماء وماتوا سعداء صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليما كثيرا .

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح: ٢٩] .

رضي الله عنهم وأرضاهم ورزقنا محبتهم وحشرنا في زمرتهم آمين . .

* * *

ثالثا : إقسام الله تعالى له تشريفا وتقديرا

لقد أقسم الله عز وجل في آيات كثيرة لرسول الله ﷺ بيانا لقدره وعلو منزلته وشرفه، وتعظيما لخلقه وتحقيقا لرسالته وصدق نبوته وثبوت ما أوحى إليه من آياته وعلو رتبته ومكانته، ولله عز وجل أن يقسم بأمور على أمور . وإنما أقسم بنفسه الموصوفة بصفاته وآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته .

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه . ولكن ليس للعباد أن يقسموا إلا بالله عز وجل أو بصفة من صفاته أو باسم من أسمائه الحسنى أو بالقرآن الكريم لأنه كلام الله تعالى . والكلام صفه له روى في الحديث . قال ﷺ : (من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت) وروى أيضا (من حلف بغير الله فقد أشرك) وجوز الحلف برسول الله ﷺ أبو حنيفة وأحمد بن حنبل ومنع الحلف به مالك والشافعي رضي الله عنهم قال الله تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ❁ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ❁ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ❁ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ❁ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾

[الواقعة: ٧٥ - ٧٩]

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ يس ❁ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ❁ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ❁ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يس: ١ - ٤] .

وقال عز وجل: ﴿ **وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ** ﴾

[الذاريات: ١ - ٦]

ففى هذه الآيات. ذكر الله تعالى: ثلاثة أمور متلازمة. فمتى ثبت أن الرسول ﷺ حق. ثبت أن القرآن حق وثبت المعاد. ومتى ثبت أن القرآن حق ثبت صدق الرسول ﷺ الذى جاء به. ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق. ثبت صدق الرسول ﷺ الذى جاء به.

وأذكر فى هذا المقام بعض الآيات التى نزلت وفيها يقسم الله تعالى لحبيبه ﷺ بما يكشف لعباده عن علو مرتبة نبيه ورفعه شانه ورفيع منزلته ومكانته.

(١) قسمه تعالى على ما خصه من الخلق العظيم:

قال الله تعالى: ﴿ **نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ لقد أقسم الله لحبيبه ﷺ بالكتاب وآلته وهى القلم الذى هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذى جرى به قدره وشرعه. وكتب به الوحى وقيد به الدين وأثبتت به الشريعة وكتب ما كان وما يكون وما هو كائن من قضاء الله وقدره على أن رسول الله ﷺ ليس مجنونا كما اتهمه أعداؤه وأن له أجرا عظيما وثوابا مستمرا غير منقطع لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير.

ثم أثنى الله تعالى عليه بما منحه فقال: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته.

سئلت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: (كان خلقه القرآن) (رواه أحمد ومسلم وأبو داود).

قال ابن عباس رضى الله عنهما: معناه: على دين عظيم. لا دين أحب إلىَّ ولا أرضى عندى منه وهو دين الإسلام.

وقال الحسن رضى الله عنه: هو آداب القرآن بدليل أن عائشة لما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به ﷺ من أوامر الله وينتهى عنه من نهى الله تعالى والمعنى وإنك على الخلق الذى أمرك الله به فى القرآن. يقول العلامة الصاوى فى حاشيته على الجلالين وهذا أعظم مدح له ﷺ. ولذا قال العارف البوصيرى:

فهو الذى تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيبا بارئ النسم

هذا، ولقد أدبه ربه عز وجل ومنحه الخلق العظيم ثم هو يمن عليه بذلك إعلاء لشأنه وتشريفا له كونه قد وصف بما ربى عليه وأعطى له فحفظ المنحة وحافظ عليها والتزمها حتى صارت وصفا له يوصف به ويمدح به صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه.

(٢) قسمه تعالى على ما أنعم به عليه:

قال الله تعالى: ﴿ **وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ...** ﴾ السورة، لقد أقسم الله عز وجل بمتقابلين: ساعة من النهار اشتد فيها ضوء الشمس ضياء وساعة من الليل اشتد فيها ظلامه حتى تكاد أن تكون الرؤية فيها منعدمة.

أقسم تعالى على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه له ما يرضيه. فهو تصديق له ودليل على صحة نبوته وعلى جزائه فى الآخرة. أى أنه قسم على صحة النبوة وثبات المعاد لقد شمت به الأعداء عندما غاب عنه الوحى مدة فقالوا: ودع محمداً ربُه وهجره. فأقسم الله له وردا على أعدائه بالضحى والليل إذا سجى. بأن الوحى آتيه بنوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه، فأنعم عليه بثلاث:

﴿ **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ﴾.

ما تركك ربك يا محمد وما هجرك. ولقد أعد لك الأجر العظيم فى الآخرة

والثواب الذى لا ينقطع. وسيرضيك ربك فى نفسك وفى أهلك وذويك وفى أمتك.

سئل سيدنا على (زين العابدين) بن الحسين رضى الله عنهم عن أرجى آية فى كتاب الله تعالى فقال: (أرجى آية فى كتاب الله هى قوله تعالى: ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ﴾ فإن محمدا ﷺ لا يرضى حتى يخرج الله آخر أحد من أمته من النار).

ومعنى عدم رضاه: هو أن يستمر فى الشفاعة فى المذنبين ملحا وراجيا حتى يتوب الله عليهم ويخرجهم من النار وكل بقضاء وقدر.

وليس معنى عدم رضاه هو الرفض. فالرسول ﷺ يرضيه ما يرضى الله عز وجل. وسوف يرضيه المنعم عز وجل فى أمته ثم أقام ربنا دلائل ثلاثة على هذه النعم الثلاث فقال: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ** ﴾ ثم أمره سبحانه وتعالى أن يقابل هذه النعم بشكر المنعم عز وجل والقيام بما يحقق ذلك فنهاه عن ثلاث:

﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾

ثم يذكر رسوله ﷺ بأمور ثلاثة قد منحه إياها. ويزيد بذلك الأمر وضوحا ومنًّا وكرما وجودا وسخاء فقال سبحانه: ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** ﴾.

فقلد أوتى رسول الله ﷺ العطاء قبل أن يطلبه من ربه عز وجل كما طلب موسى ﴿ **رب اشرح لى صدرى** ﴾ [طه: ٢٥].

وعصمناك عن فعل الذنوب والأوزار التى تثقل كهل فاعلها فعصمناك وزكيناك عطاء منا ونعمة أنعمنا بها عليك. ثم رفعنا شأنك فى العالمين. فحيث أذكر تذكر معى فى الآذان وفى الخطبة وفى الصلاة. ولا تصح أى منها إذا لم تذكر.

لذا فاعلم واعمل ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ** ﴾ .

إنه عطاء وأى عطاء إنه عطاء المنعم لحبيبه ورسوله ﷺ يعلى به شأنه ويرفع به قدره ويعلى به منزلته ويرفع به مكانه . ولا عجب . فهذا عطاء الحبيب لحبيبه إنه الحب كله ممن يملك كل شئ لحبيبه الذى أحب ربه عز وجل وأخذ يقدم فى خدمته كل شئ، حتى اشتد على نفسه وشدد عليها فرفق به مولاه فقال له ﴿ **طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ** ﴾ ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾ ﴿ **إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ** ﴾ رفق وحنان من العلى الكبير برسوله ﷺ .

(٣) قسمه تعالى على تصديقه فيما أوحى إليه :

قال الله تعالى : ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ [النجم: ١ - ١٨] .

أقسم الله تعالى على تنزيه رسوله ﷺ وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه واتهموه بارتكابه . من الضلال والغى واتباعه هواه . فشهد له ربه عز وجل بالبراءة من ذلك كله . وأثبت أن ما يقول به الرسول ﷺ إنما هو قرآن منزل أتى به الوحى ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ .

وأقسم ربنا بالنجم وقد اختلف فى المعنى المراد به :

فقال ابن عباس : هو الثريا . وقال الحسن : هى النجوم التى ترمى بها الشياطين حتى لا يسترقوا السمع . وقال الكلبى : هو القرآن، وقال جعفر بن

محمد (الصادق) رضى الله عنه : هو محمد ﷺ ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا نزل من السماء ليلة المعراج .

وفى قوله تعالى : ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ملحظ جميل لأن الله يقول لهم أليس محمد هذا هو صاحبكم الذين تعرفون أحواله وأوصافه وقد كنتم تصفونه قبل النبوة بأنه الصادق الأمين؟ فلم تبدلت أحوالكم وغيرتم فيه رأيكم ؟ وهذا فيه تقريع لهم وقيام الحجة عليهم . إن الذى يتلوه عليكم محمد منزل عليه ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ والسنة أيضا نزل عليه معناها ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وهما القرآن والسنة يقول الإمام الشافعى : سمعت من أثق به يقول الحكمة سنة رسول الله ﷺ .

وذكر الأوزاعى عن حسان بن عطية قال (كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياها) .

وهذا قول حق . فمن الذى عرف رسول الله ﷺ بكيفية الصلاة ومواقيتها وعدد ركعاتها . وكذا غيرها من العبادات ممن لم يتعرض له القرآن بالتفصيل والتفسير . أليس ذلك أيضا مما يوحى به إليه ﷺ .

والقلب يصدق العين فيما رأت ولذلك يخبر سبحانه وتعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه . ثم أخبر سبحانه وتعالى عن أن محمدا ﷺ « ما زاغ البصر وما طغى » فيما رأى من آيات ربه الكبرى فلم ينحرف بصره يمينا ولا شمالا . ولكنه كان دائما فى طريقه .

فالله عز وجل فى هذه الآيات قد أقسم على تزكية الرسول ﷺ فى عقله وفى فؤاده وفى بصره فهو صادق فيما يقول وفيما رأى وفيما سمع . ثابت القلب والعقل والعين .

ونكتفى بهذا فى الحديث عن القرآن الكريم وفيه كفاية لمن أراد النفع .

(٤) قسمه تعالى على تحقيق رسالته :

قال الله عز وجل : ﴿ **يسٓ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ** ﴾ [يس : ١ -٥] .

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى ﴿ **يسٓ** ﴾ على أقوال : فقيل معناها : يا إنسان بلغة طئ . وهو قول ابن عباس والحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير رضي الله عنهم ورسول الله ﷺ هو الإنسان الكامل الخالي من العيوب والأوزار خَلْقًا وخُلُقًا .

وقيل : يا محمد . قاله ابن الحنفية (محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما) والضحاك .

وقال أبو العالية : معناها : يا رجل

وقال قتادة : هو اسم من أسماء القرآن .

وقال أبو بكر الوراق : معناها : يا سيد البشر .

وعن جعفر الصادق رضي الله عنه قال : أنه أراد يا سيد . مخاطبة للنبي ﷺ . وفيه من تعظيمه وتمجيده مالا يخفى وعن طلحة عن ابن عباس : أنه قسم أقسم الله تعالى به وهو من أسمائه .

وعن كعب : أقسم الله به قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام : يا محمد إنك لمن المرسلين [١] .

وخلاصة هذه الأقوال أن ﴿ **يسٓ** ﴾ إما اسم لرسول الله ﷺ أو وصف له . وفي كلا الحالين هو قسم برسول الله ﷺ وبكتابه أنه لمن المرسلين . وهو رد على الكافرين حيث قالوا : ﴿ **لَسْتَ مُرْسَلًا** ﴾ [الرعد : ٤٣] .

فاقسم الله به – اسما أوصفة – وبكتابه إنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده . وعلى طريق مستقيم أي لا عوج فيه ولا اعتداء على الحق ولا عدول عنه .

---

(١) ذكر هذه الأقوال القسطلاني في المواهب ٣ /٢٠٨، ٢٠٩ .

قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة فى كتابه إلا له صلى الله عليه وسلم.

ولا يخفى علينا ما فيه من الدلاله على رفعة قدر النبى ﷺ وعلو شأنه.

(٥) قسمه تعالى بعمره وبعصره وبلده:

لقد أقسم الله تعالى بحياته فقال تعالى: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [الحجر: ٧٢].

أى وحياتك يا محمد. وفى هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض. قال ابن عباس رضى الله عنهما:

(ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال الله تعالى: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك فى الدنيا إنهم لفى سكرتهم يعمهون) (رواه ابن جرير) وروى نحوه البغوى فى تفسيره.

ويبرز هنا سؤال هو: هل يجوز الحلف برسول الله ﷺ؟

والجواب: جوز ذلك أبو حنيفة وأحمد. وقد قال الإمام أحمد فيمن أقسم بالنبى ﷺ ينعقد به يمينه ويجب الكفارة بالحنث. واحتج بكونه ﷺ أحد ركنى الشهادة وأجازه من المالكية القرطبى وقال: وإذا أقسم الله تعالى بحياة نبيه. فإنما أراد بيان التصريح لنا. أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته وقال ابن خويز منداد: واستدل من جوز الحلف به ﷺ بأن أيمان المسلمين جرت من عهده ﷺ أن يحلفوا به حتى إن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا خاصم أحدهم صاحبه قال له: احلف لى بحق ما حواه صاحب هذا القبر أو بحق ساكن هذا القبر يعنى النبى ﷺ.

وذهب الإمامان مالك والشافعى إلى أن الحلف بالرسول ﷺ لا ينعقد به

اليمين. لأن الحلف لا يكون إلا بالله تعالى. ولله أن يقسم بما يشاء من خلقه لكن ليس للعباد أن يحلفوا إلا بالله عز وجل.

وأقسم ربنا عز وجل ببلده فقال: ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ [البلد: ١، ٢].

أقسم تعالى بالبلد الأمين وهو مكة أم القرى بلده ﷺ وقيده بحلوله ﷺ فيه إظهارا لمزيد فضله وإشعارا بأن شرف المكان بشرف أهله (١) أ. هـ ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ [البلد: ٣].

ثم أقسم بالوالد وما ولد. وهو فيما قيل: ابراهيم واسماعيل ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾: محمد ﷺ. وقيل: غير ذلك.

وعلى هذا الرأى يكون الله عز وجل قد أقسم ببلده وأقسم به ﷺ.

وروى أن الإمام أحمد قال فى معنى الآيات: لا أقسم ببلد أنت فيه لأن الجدير بأن يقسم به هو أنت.

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال للنبى ﷺ بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن أقسم بحياتك دون سائر الأنبياء. ولقد بلغ من فضيلتك عنده أن أقسم بتراب قدميك فقال: ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ رواه القسطلانى فى المواهب.

وأقسم ربنا عز وجل بعصره ﷺ فقال: ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾.

قيل: العصر هر الدهر. وقيل هو العمر.

وقال الإمان فخر الدين الرازى والبيضاوى وغيرهما: إن الله تعالى أقسم بزمان رسول الله ﷺ وقال الإمام الرازى: واحتجوا بقوله ﷺ: (إنما مثلى ومثل من

---

(١) ذكره البيضاوى فى تفسير السورة.

كان قبلكم مثل رجل استأجر أجراء فقال: من يعمل لى من الفجر إلى الظهر بقيراط. فعملت اليهود ثم قال: من يعمل لى من الظهر إلى العصر بقيراط فعملت النصارى ثم قال: من يعمل لى من العصر إلى المغرب بقيراطين فعملتم فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملا وأقل أجرا. فقال الله تعالى: وهل نقصت من أجركم شيئا؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلى أوتيه من أشاء. فكنتم أقل عملا وأكثر أجرا) (رواه البخارى عن ابن عمر).

فإذا كان عصره أكثر فضلا وعصره ظرف له فما بالك بالمظروف؟ فحتما يكون أكثر فضلاً من ظرفه. ولذا بين لهم أنهم فى خسارة إذا أعرضوا عن دعوته ﷺ.

* * *

رابعا: وصفه بالنور والسراج المنير

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥] وصف الله عز وجل رسوله ﷺ بأنه نور وقيل: (نور) هو القرآن الكريم.

وأقول: ﴿ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ إذا كانت الواو للعطف. والعطف يقتضى المغايرة. أى أن ما بعد الواو يكون غير ما قبلها من حيث المعنى. فيكون (نور) هو الرسول ﷺ أما إذا كانت الواو للتفسير والبيان فيكون ما بعد الواو مفسر ومبين لما قبلها. ومعنى هذا أن المعنى المراد من (نور) يكون هو القرآن الكريم.

وسواء كان المعنى الأول هو الصحيح أو المعنى الثانى. فتكون عطيتنا وهديتنا من الله عز وجل نور يضئ لنا الطريق ويبدد ظلام الجهل والكفر والطغيان فرسول الله ﷺ هو لنا هبة وعطاء من الله تعالى لأنه رحمة الله للعالمين ونور من الله تعالى يضئ الطريق للسالكين ويبدد ظلام الحيرة ويهدى الضالين إلى طريق الحق المبين.

والقرآن الكريم أيضا هو منحة من العلى الكبير لأمة المصطفى البشير ﷺ.

وعلى كل حال أقول: إن النور لا يأتى إلا بالنور والنور لا يأتى به إلا نور فرسول الله ﷺ نور قد جاءنا بالنور والقرآن نور تنزل على النور المحمدى نور على نور والله يهدى لنوره وبنوره من يشاء سبحانه وتعالى فهو نور السموات والأرض نور أزلى أبدى سرمدى صمدى قدسى أحدى لا شريك له. له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير جلت صفاته وتقدست أسماؤه وهو الكبير المتعال.

وقال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

قال القاضى عياض: جمع الله تعالى فى هذه الآية ضروبا من رتب الأُثْرَة - المكرمة - وجملة أوصاف من المدحة. فجعله شاهدا على أمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة. وهى من خصائصه ﷺ. ومبشرا لأهل طاعته. ونذيرا لأهل معصيته وداعيا إلى توحيده وعبادته. وسراجا منيرا يهتدى به للحق. أ. هـ.

وروى البخارى عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ قال: (أجل. والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن ﴿**يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا**﴾ وحرزا للأميين. أنت عبدى ورسولى. سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ. ولا صخاب فى الأسواق. ولا يدفع بالسيئة السيئة. ولكن يعفو ويغفر. ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملك العوجاء. بأن يقولوا: لا إله إلا الله ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما. وقلوبا غلفا).

وروى الطبرانى وأبو نعيم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: أخبرنا رسول الله ﷺ عن صفته فى التوراة: (عبدى أحمد المختار. مولده بمكة. ومهاجره المدينة. أو قال: طيبة. أمته الحمادون لله على كل حال).

وقال الإمام القسطلانى فى المواهب [1]:

---

(١) المواهب اللدنية ٣/٢١٧، ٢١٨.

والمراد: كونه هاديا مبينا كالسراج الذى يرى الطريق ويبين الهدى والرشاد. فبيانه أقوى وأتم وأنفع من نور الشمس وإذا كان كذلك وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم فى النورانية من الشمس. فكما أن الشمس فى عالم الأجسام تفيد النور لغيرها ولا تستفيد من غيرها. فكذا نفس النبى ﷺ تفيد الأنوار العقلية لسائر الأنفس البشرية. ولذلك وصف الله الشمس بأنها سراج حيث قال: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١].

وكما وصف الله رسوله بأنه نور. وصف نفسه المقدسة بذلك فقال: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥].

فليس فيهما نور إلا الله ونور القدسى. هو سر الوجود والحياة والجمال والكمال. وهو الذى أشرق على العوالم الروحانية وهم الملائكة: فصارت سرجا منيرة. يستمد منها من هو دونها بجود الله تعالى. ثم سرى النور إلى عالم النفوس الإنسانية. ثم طرحته النفوس على صفحات الجسوم فليس فى الوجود إلا نور الله - تعالى - السارى إلى الشئ منه بقدر قبوله ووسع استعداده ورحب تلقيه. أ.هـ.

وأقول: قال الله تعالى ﴿ **يا أيها النبى** ﴾ نداء من العلى الكبير لنبيه ﷺ. والنداء من الله تعالى لأحبابه. فيه الحنان والعطف والرحمة والمدد الإلهى ﴿ **إنا أرسلناك** ﴾ أى نحن قد بعثناك برسالتنا وهدايتنا إلى عبادنا وكلفناك بذلك التكليف الذى يجب عليك آداؤه ﴿ **شاهدا** ﴾ لنفسك بأنك قد بلغت رسالتك. وعلى أمتك فى الدنيا رائيا ومبصرا ومعلما وفى الآخرة عند ربك عز وجل ﴿ **ومبشرا** ﴾ للمؤمنين الصابرين الذين أحسنوا التوكل على ربهم وفوضوا الأمر له سبحانه وتعالى ﴿ **ونذيرا** ﴾ للكافرين والمشركين والعاصين بعقاب الله وعذابه الأليم. ﴿ **وداعيا إلى الله بإذنه** ﴾ مبلغا عن الله تعالى بأمره وليس من تلقاء نفسك لأن كل مبلغ عن الله تعالى لا يقوم بالبلاغ إلا بأمر ربه ويقدم للناس ما أمر بتبليغه لهم من أوامر الله عز وجل ونواهيه.

﴿ **وسراجا منيرا** ﴾ لقد شبه الله عز وجل نبيه المصطفى ﷺ بالقمرين ﴿ **الشمس والقمر** ﴾ حيث خلع عليه وصفيهما فالسراج وصف للشمس والمنير وصف للقمر.

قال الله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً** ﴾ [يونس : ٥] .

وقال عز وجل : ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَراً مُنِيراً** ﴾ .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا** ﴾ .

فشبهه بالشمس فى إرسال ضوئها على كل أهل الأرض لعموم رسالته وكونه رحمة للعالمين وستعرف دعوته فى كل بقاع الارض وأعتقد أنه الآن قد عرفت دعوته فى كل مكان فى الأرض وبخاصة بعد ظهور أجهزة الاتصالات الالكترونية وسعة انتشارها وشبه بالقمر لانه بدعوته إلى ربه يبدد ظلام الكفر والضلال ويهدى الحائرين إلى الطريق المستقيم كما يبدد نور القمر ظلام الليل البهيم.

فهو ﷺ كالشمس فى إرسال ضوئها وحرارتها الأمر الذى يجب معه التحلى بالصبر وتحمل المشاق.

وهو كالقمر فى إزاحة ظلام ليل الكفر والشرك. ونور القمر منعدم الحرارة وفيه لين. وهو أيضا ما يوجب عليه ﷺ – رغم تحمله أعباء الدعوة ومشاقها – أن يكون لينا هينا متواضعا ليس بفظ ولا غليظ القلب قال الله تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ .

وقال عز وجل : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ .

وقال سبحانه وتعالى ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ إنه صلوات الله وسلامه عليه نور من ربه عز وجل وجاء بالنور من أمر ربه سبحانه وتعالى ليودعه قلوب من أراد الله تعالى هدايتهم وإيمانهم. فانعكس نور النبوة

على صفحات قلوب الراشدين من عباد الله فتولد عنه نور الإيمان بالله الواحد القهار والتصديق بنبوة المصطفى المختار ﷺ نور على نور والله يهدى لنورة من يشاء. إنه الفعال لما يريد. المنعم المتفضل على أنبيائه وأوليائه والمؤمنين به بنعمته الكبرى نعمة الإيمان والإسلام وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

* * *

خامسا: وصفة بالعبودية

قال الله تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٣].

وقال الله تعالى: ﴿ **إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ..** ﴾ [الانفال: ٤١].

وقال تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ...** ﴾ [الإسراء: ١].

وقال عز وجل: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا * قَيِّمًا ...** ﴾ [الكهف: ١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان: ١].

وقال عز وجل: ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ...** ﴾ [الزمر: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** ﴾ [الزخرف: ٨١].

وقال تعالى: ﴿ **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ﴾ [النجم: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ...** ﴾ [الحديد: ٩].

العبادة: اسم جامع لكل معانى الخير. ولا يتوجه العبد بالعبادة التى شرعها

الله تعالى من أوامر ونواهى إلا لله وحده لا شريك له . فكل عمل لا يبتغى العبد به وجه الله عز وجل فهو مردود عليه لانه إذا انتفى الإخلاص فى العبادة دخلها الشرك والرياء والنفاق لضياع التقوى منها ﴿ **إنَّما يتقبَّلُ الله من المتَّقين** ﴾ ﴿ **ألا لله الدِّينُ الخَالصُ** ﴾ .

فالعبادة الحقة ما ابتغى بها وجه الله تعالى . ووافق شرع رسول الله ﷺ . لان الشأن فى العبد أن يكون لسيده قلبا وقالبا منفذا لأوامره ومراعيا لنواهيه بتقوى وإحسان ﴿ **إنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاته وَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنتُم مُّسْلمُونَ** ﴾ .

والعبودية لله تعالى تشريف للعبد ورحمة وإحسان لذلك كانت أشرف المقامات . لانها مقام قرب ومحبة قال ﷺ : (**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فاكثروا من الدعاء**) .

فهذه تسع آيات فى تسع سور قرآنية يصف الله عز وجل فيها نبيه ﷺ بالعبودية .

وقد جاءت كلها فى التأكد والتثبيت على ان القرآن الكريم أنزله الله تعالى على عبده محمد ﷺ ودفاعا عن النبى ﷺ وإعلام حمايته وتنزيهه تعالى عن أن يتخذ ولدا لان الكل عبيده مهما علا قدرهم وعلت مكانتهم .

وقد وصف الله عز وجل نبيه ﷺ بالعبودية لامور خمسة هى :

(١) حتى لا تضل أمته كما ضلت اليهود والنصارى من قبل عندما أعطوا بعض أنبيائهم من الإطراء وخلعوا عليهم أوصافا إلهية والعياذ بالله تعالى .

(٢) رحمة من الله بأمته ﷺ لكى يكونوا على معرفة تامة وإدراك كامل بمقام الالوهية . فلا يمنحوا مالله تعالى لاى عبد من عبيده ولو كان سيد البشر ﷺ . ولذلك وصفه بالعبودية فى مقام المن والعطاء وعند الأمر العظيم .

(٣) فى انتساب المخلوق لخالقه عز وجل تشريف له ورفعة لقدره، جاء فى

بعض روايات حديث المعراج كم قال البرهان النسفى : قال الله عز وجل " : بم أشرفك يا محمد .

قال : تشرفنى بالانتساب بالعبودية لك فنزلت أول الإسراء وهذا فيه ما فيه من العطف والحنان والإحسان من المعبود سبحانه وتعالى للعبد .

(٤) العبودية مقام قرب بين العبد وسيده لأن العبد يكون أقرب من غيره لسيده . وهذا فيه خير كثير وفضل عميم .

(٥) ودائما يكون العبد فى حماية ورعاية سيده لأنه ملك له لهذا كله خلع ربنا عز وجل على حبيبه ﷺ صفة العبودية (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله) يقدم الرسول ﷺ العبودية على الرسالة فالرسالة بمعنى التبليغ تتوقف عند الانتقال للرفيق الأعلى ولكن الرسالة بمعنى الاصطفاء والاختيار والشفاعة فهى باقية كما أن العبودية ما تزال مستمرة وباقية فى البرزخ وفى القيامة وفى العرض للشهادة على أمته والأمم التى سبقت . وفى الفردوس الأعلى من الجنة فيسعد وتسعد به أمته سعادة أبدية كما سعدت به فى الدنيا سعادة تكليفية زكية نقية . وطهارة روحية نورانية . وعبادة سامية أسجدت قلوب أمته لله العلى الكبير فكانوا فى حضرته سعداء وفى معيته شرفاء كرماء ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ .

فأى قدر وأى شرف يلقاه المرء إذا لم يكن عابداً لمولاه ومنقادا لخالقه المنعم عليه بأجل النعم ؟ .

فالعبودية الحقة تكليف وتشريف وفضل وإحسان وحنان ونعيم فى الآخرة ورضوان . وهذا عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا .

قال الطوفى رحمه الله تعالى : والسبب فى ذلك : أن الإلهية والسيادة والربوبية إنما هى فى الحقيقة لله عز وجل لا غيره . والعبودية لمن دونه فإذا كان فى مقام العبودية فهو فى رتبته الحقيقية والرتب الحقيقية أشرف المقامات إذ ليس بعد الحقيقة إلا المجاز ولا بعد الحق إلا الضلال .

وقال أبو حفص النيسابورى رحمه الله تعالى: العبد هو القائم بأوامر الله سيده على حد النشاط حيث جعله محل أمره.

وقال ابن عطاء رحمه الله تعالى: العبد الذى لا ملك له.

وقال الجريرى: العبد هو الذى يتخلق بأخلاق ربه.

وقال رديم رحمه الله تعالى: يتحقق العبد بالعبودية إذا سلم القياد من نفسه إلى ربه وتبرأ من حوله وقوته وعلم أن الكل له وبه. أ. هـ.

فوصفه ﷺ بالعبودية تشريف له على الحقيقة لأنه عليه الصلاة والسلام كان أعرف الناس بربه وأكثرهم انقياداً لمولاة وأعظمهم استسلاما له متبرئا من حوله وقوته لقد خيره ربه عز وجل أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا. فاختار أن يكون نبيا عبدا كما روى فى الحديث. لذلك شرف بإطلاق هذا الوصف عليه ﷺ لأنه عبد تام العبودية. وعابد كامل العبادة فكان عبدا وعابدا على الحقيقة والكمال. فكان له من الله تعالى الثناء الجميل والامتنان العظيم ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾.

وكنت قديما أطلب الوصل منهم	فلما أتانى العلم وارتفع الجهل
تيقنت أن العبد لا طلب له	فإن قربوا فضل وإن أبعدوا عدل
وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم	وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو

* * *

سادسا: خصوصيته فى النداء

النداء من الله العلى الكبير لأنبيائه وأوليائه والمؤمنين من عباده، نداء تكليف وتشريف وفيه العطف والرحمة والحنان.

ولقد كان النداء الإلهى لأنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم وليس بصفاتهم.

﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود: ٤٦].

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [هود: ٧٦].

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦].

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

ولم ينادى المولى عز وجل على أى نبى منهم وغيرهم بصفته إلا رسول الله سيدنا محمد ﷺ.

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ [المائدة: ٤١].

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأحزاب: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ [التحريم: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل ١، ٢].

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر: ١، ٢].

فى النداء بالصفة والوظيفة زيادة فى المعنى. ويستفاد من ذلك تقديم الرسول ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين وسيادته لهم والسيد هو الشريف المقدم.

وهذا التشريف والتفضيل من الله تعالى وليس من أحد سواه لأننا نحن أمته لا نفرق بين أحد من رسله ولا نملك ذلك. وهذا من عقيدتنا. ولكنا نؤمن بفضل من فضله الله تعالى وشرفه وكرمه، هذا وقد أنزل الله تعالى أسمه فى القرآن مجردا من النداء ومؤكدا على رسالته. وختمه للنبوات وصدقه فى التبليغ عن ربه.

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال عز وجل: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾

[آل عمران: ١٤٤]

وقال عز وجل: ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾

[محمد: ٢]

وقال الله تعالى ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال سبحانة وتعالى: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾

[الصف: ٦]

حمدا لك يارب على ما أوليت به نبينا ﷺ بالمزيد من الفضل والإنعام وصلى اللهم ربنا عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وسلم تسليما كثيرا.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى [1]:

ولا يخفى على أحد أن السيد إذا دعا عبيده بأفضل ما أوجد لهم من الأوصاف العلية والأخلاق السنية. ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام التى لا تشعر بوصف من الأوصاف. ولا بخلق من الأخلاق أن منزله من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه وأقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم. وهذا معلوم بالعرف. أن من دعى بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه. أ.هـ وصدق الله العظيم. قال: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ يعنى: موسى عليه السلام كلمة بلا واسطة.

(ورفع بعضهم درجات) يعنى: محمدا ﷺ رفعه الله تعالى من ثلاثة

---

(١) المواهب اللدنية: ٣/١٤٤، ١٤٥.

أوجه: بالذات فى المعراج - وبالسيادة على جميع البشر وبالمعجزات. لأنه ﷺ أوتى من المعجزات ما لم يؤته نبى قبله قال الزمخشرى: وفى هذا الإيهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره مالا يخفى لما فيه من الشهادة. على أنه العلم الذى لا يشتبه والمتميزالذى لا يلتبس أ.هـ صلى الله عليه وسلم.

* * *

سابعا: ميثاق النبيين

قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [آل عمران: ٨١] لقد أخذ الله الميثاق - كما أخبر - على كل نبى بعثه من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى محمد ﷺ أن يصدق بعضهم بعضا وينصر بعضهم بعضا.

وقيل: أخذه عليهم وعلى أممهم واستغنى بذكرهم عن ذكر الأمم عن على ابن أبى طالب وابن عباس رضى الله عنهما:

(مابعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه) وقيل: إن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كانوا يأخذون الميثاق على أممهم بأنه إذا بعث محمد ﷺ وأدركوه أن يؤمنوا به وأن ينصروه.

فالأنبياء والرسل آمنوا به وصدقوه وهم فى عالم الأرواح أو أن كل نبى آمن به عند بعثته وأخذ الله منه الميثاق عند بعثته؟ قيل بهذا وذاك. والأرجح الأول. ونظيره قول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقال الإمام تقى الدين السبكى الشافعى رحمه الله تعالى [1]:

إنه ﷺ على تقرير مجيئهم فى زمانه . يكون مرسلا إليهم . فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة . وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته . . ويكون قوله ﷺ (وبعثت إلى الناس كافة) لا يختص به الناس فى زمانه إلى يوم القيامة . بل يتناول من قبلهم أيضا وإنما أخذ له المواثيق على الأنبياء ليعلموا أنه المتقدم عليهم وأنه نبيهم ورسولهم .

وفى أخذ المواثيق – وهى فى معنى الاستخلاف . ولذلك دخلت (لام) القسم فى(لتؤمنن به ولتنصرنه) .

لطيفة : وهى أنها كأيمان البيعة التى تؤخذ للخلفاء ولعل أيمان الخلفاء أخذت من هنا .

فانظر إلى هذا التعظيم العظيم للنبى ﷺ من ربه تعالى . فإذا عرف هذا . فالنبى محمد ﷺ نبى الأنبياء، ولهذا ظهر ذلك فى الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه . وفى الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلى بهم . ولو اتفق مجيئه فى زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم وعلى أممهم اتباعه والإيمان به ونصرته . وبذلك أخذ الله المثياق عليهم . فنبوته عليهم ورسالته إليهم معنى حاصل لهم فى حياتهم . وإنما أمره يتوقف على اجتماعهم معه . فتأخر ذلك الأمر راجع إلى وجودهم لا إلى عدم اتصافهم بما يقتضيه وفرق بين توقف الفعل على قبول المحل وتوقفه على أهلية الفاعل . فهاهنا لا توقف من جهة الفاعل . ولا من ذات النبى ﷺ الشريفة . وإنما هو من جهة وجود العصر المشتمل عليه . فلو وجد فى عصرهم لزمهم اتباعه بلاشك ولهذا يأتى عيسى عليه السلام فى آخر الزمان على شريعته وهو نبى كريم على حاله . لا كما يظن بعض الناس أنه يأتى واحدا من هذه الأمة . نعم هو واحد من هذه الأمة لما قلنا من اتباعه للنبى ﷺ . وإنما

---

(١) المواهب اللدنية ٣ / ١٤٩ – ١٥١ .

يحكم بشريعة نبينا ﷺ بالقرآن والسنة . وكل ما فيها من أمر ونهى، فهو متعلق به كما يتعلق بسائر الأمة . وهو نبى كريم على حاله لم ينقص منه شىء .

وكذلك لو بعث النبى ﷺ فى زمانه أو فى زمان موسى وابراهيم ونوح وآدم – عليهم السلام – كانوا مستمرين على نبوتهم ورسالتهم إلى أممهم . والنبى ﷺ نبى عليهم ورسول إلى جميعهم – فنبوته ورسالته أعم وأشمل وأعظم وتتفق مع شرائعهم فى الأصول . لأنها لا تختلف . وتقدم شريعته ﷺ فيما عساه يقع الاختلاف فيه من الفروع إما على سبيل التخصيص . وإما على سبيل النسخ . أو لا نسخ ولا تخصيص . بل تكون شريعة النبى ﷺ فى تلك الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبياؤهم . وفى هذا الوقت بالنسبة إلى هذه الأمة الشريفة والأحكام تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات . وبهذا بان لنا معنى حديثين كانا خفيا عنا .

أحدهما : قوله ﷺ (بعثت إلى الناس كافة) [1] كنا نظن أنه من زمانه إلى يوم القيامة . فبان أنه إلى جميع الناس أولهم وآخرهم .

والثانى : قوله ﷺ (كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد) [2] كنا نظن أنه بالعلم، فبان أنه زائد على ذلك، وإنما يفترق الحال بين مابعد وجود جسده ﷺ وبلوغه الأربعين وما قبل ذلك بالنسبة إلى المبعوث إليهم وتأهلهم لسماع كلامه لا بالنسبة إليه ولا إليهم لو تأهلوا قبل ذلك، وتعليق الأحكام على الشروط قد يكون بحسب المحل القابل . وقد يكون بحسب الفاعل المتصرف فها هنا التعليق إنما هو بحسب المحل القابل وهو المبعوث إليهم وقبولهم سماع الخطاب والجسد الشريف الذى يخاطبهم بلسانه .

وهذا كما يوكل الأب رجلا فى تزويج ابنته إذا وجدت كفءًا فالتوكيل

---

(١) رواه البخارى فى الصحيحين .

(٢) رواه أحمد والبخارى فى التاريخ وأبو نعيم .

صحيح وذلك الرجل أهل للوكالة ووكالته ثابتة. وقد توقف التصرف علي وجود الكفء. ولايوجد إلا بعد مدة. وذلك لا يقدح فى صحة الوكالة وأهلية الوكيل، انتهى.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] إن هذه الآية تبين لنا عظمة الرسول ﷺ ورفعة شأنه وعلو منزلته. لقد ذكره الله تعالى فى جملة النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ثم خص أولى العزم منهم بالذكر، فذكره ﷺ فى أولهم مقدما عليهم رغم تأخره فى الوجود الجسدى عنهم. كما أنه عز وجل ذكر أولى العزم بأسمائهم أما سيدنا محمد ﷺ فقد ذكره بضمير المخاطب. وقد قال أهل اللغة الضمائر أعرف المعارف بعد لفظ الجلالة كما ذكر عن سيبويه رحمه الله تعالى.

وهكذا يبرز الله عز وجل لعباده جميعاً قدر النبى ﷺ وشرفه وعظمته وتقدمه على سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين قبل الوجود الجسدى وبعد ظهوره وفى البرزخ وفى يوم القيامة وفى الجنة صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

* * *

ثامنا: عفا الله عنك

قال الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

قال العلماء من المفسرين وعلماء العقيدة وغيرهم: إن هذا عتاب من الله عز وجل لنبيه ﷺ. وقد أخبره بالعفو قبل أن يسأله عن الذنب.

روى ابن أبى حاتم عن مسعر عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة.

وقال مثله: مورق العجلى من علماء التابعين ثقة عابد وقال مثله غيرهما من العلماء.

وأقول: ليس فى الأمر ذنب يترتب عليه عفو ومغفرة. وإنما الآية جاءت جريا على عادة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم يقول الرجل للرجل: عافاك الله يا أخى ماتقول فى هذا لأمر؟ ورضى الله عنك ماذا تفعل فى كذا؟

قال القشيرى رحمه الله تعالى: وإنما يقول العفو لا يكون إلا عن ذنب من لايعرف كلام العرب. قال: ومعنى عفا الله عنك. أى لم يلزمك ذنبا.

فليس فى الأمر ذنب عاتب الله عز وجل نبيه ﷺ عليه. وإنما هو حكم وتوجيه وتعليم لرسول الله ﷺ والمعنى: لا تأذن لأحد بالتخلف عن الجهاد إلا من تبين لك عدم أهليته لذلك فهو صادق فى اعتذاره وإلا فلا. ولذلك يقول الله عز وجل لنبيه فى الآيات التى بعدها ﴿ **لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ* إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ** ﴾ [(١)].

وقال قتادة: عاتبه الله كما تسمعون ثم أنزل التى فى سورة النور فرخص له فى أن يأذن لهم إن شاء فقال: ﴿ **فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ** ﴾ ففوض الأمر الى رأيه ﷺ أ.هـ.

فليس فى الأمر عتاب ولا ذنب. وإنما الأمر. أمر تشريع وتوجيه وحنان ورأفة من الحبيب عز وجل لحبيبه ﷺ.

ولذا نزل قول ربنا عز وجل هكذا: (عفا عنك) فلا يستلزم أبدا أن يكون

---

(١) اقرأ الآيات من ٤١ - ٥١ من سورة التوبة وتدبر فلن تجد فى الأمر عتابا ولا ذنبا.

العفو صادرا عن ذنب . وإنما كانت طريقة العرب وأسلوب من أساليب مخاطبتهم بما يدل على رأفة وحنو المتكلم بالمخاطب . والله أعلم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢] .

وقوله عز وجل : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ .

فلم يقع من رسول الله ﷺ ذنب ولا وزر لا قبل الرسالة ولابعدها .

وقد قال ربنا عز وجل ذلك فى مقام المن على رسول لله ﷺ بحمايته عن أن يقع فى الذنب الذى يوجب الاستغفار وذلك بعصمته . والعصمة نعمة ورحمة من الله تعالى لأنبياء حتى لا يرتكبوا أوزارا وآثاما مالم يكونوا معصومين فيجوز أن تحدث منهم . ولكنهم بعصمة الله لهم بالنبوة وبالرسالة لم يتأتى ذلك منهم فالمقام مقام منّ وعطاء يستوجب الشكر لله تعالى عليه ولذلك قال له : ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ وقال له ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ حتى لايتوهم متوهم أن النبى ﷺ قد وقع فى الذنب ثم غفره الله له .

فكيف يقع فى الذنب . وقد أرسل للناس ينهاهم عن فعله؟ ألا يكون ذلك مانعا من اتباع الناس له؟

وقال الله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ [عبس ١-٤] .

قال القاضى عياض فى الشفا [١] :

وأما قوله تعالى : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) الآيات . فليس فيها إثبات ذنب له ﷺ . بل إعلام الله له أن ذلك المتصدى له ممن لا يتزكى . وأن الصواب والأولى كان لو كشف له حال الرجلين . لاختار الإقبال على الأعمى . وفعل النبى ﷺ لما فعل وتصديه لذلك الكافر كان طاعة لله وتبليغا عنه .

---

(١) وذكره أيضا القسطلانى فى المواهب ٣ / ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

واستعلافا له . كما شرعه الله . لا معصية ولا مخالفة له وما قصه الله عليه من ذلك إعلام بحال الرجلين . وتوهين أمر الكافر عنده . والإشارة إلى الإعراض عنه بقوله ﴿ **وما عليك ألا يزكى** ﴾ أى ليس عليك بأس فى أن لايتزكى بالإسلام . أى لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم أن تعرض عمن أسلم بالاشتغال بدعوتهم إن عليك إلا البلاغ .

وقد كان ابن أم مكتوم – رضى الله عنه – يستحق التأديب والزجر لأنه – وإن فقد بصره – كان يسمع مخاطبة الرسول ﷺ لأولئك الكفار وكان يعرف باستماع تلك الكلمات شدة اهتمامه ﷺ بشأنه . فكان إقدامه على قطع كلامه ﷺ إيذاء له ﷺ وذلك معصية عظيمة . فثبت أن فعل ابن أم مكتوم كان ذنبا ومعصية . وأن الذى فعله الرسول ﷺ . كان هو الواجب المتعين وقد كان ﷺ مأذونا له فى تأديب أصحابه ولكن ابن أم مكتوم بسبب عماه استحق مزيد الرفق به . أ.هـ. وأقول : لم يفعل سيدنا رسول الله ﷺ ذنبًا ولا وزرا بل إنه كان مشغولا بطاعة ربه عز وجل بتبليغ دعوته إلى هؤلاء الذين قدموا عليه وتربطهم به علاقة دم ونسب وقد كان طامعا فى إيمانهم برسالته لأن إيمانهم سيكون دافعا لا ستسلام غيرهم للدعوة . وجاء ابن أم مكتوم رضى الله عنه وسمع كلام النبى ﷺ معهم . فقطع على النبى ﷺ حديثه وهذا مرفوض أدبا وخلقا وخصوصا مع النبى ﷺ . وكان على النبى ﷺ أن يؤدبه وهو مأمور بتأديب أصحابه ولقد أدب الله تعالى بالمدينة من هو خير من ابن أم مكتوم . أدب أبا بكر وعمر رضى الله عنهما عندما اختلفا فى الرأى وارتفع صوتيهما فى حضرته صلى ﷺ فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ . .** ﴾ الآية من سورة الحجرات ولكن النبى ﷺ أدب عبد الله بن أم مكتوم بما يؤدب به أصحابه . ولكن كان فى أدبه له بمثل ما يؤدب سائر الصحابة أمر زائد لكونه أعمى ويحتاج إلى الرفق فى تأديبه .

فالمذنب هو ابن أم مكتوم رضى الله عنه ولذلك ذكره الله فى الآيات

المذكورة بضره ولم يذكره بصفة أخرى أو باسمه ويعذر الله تعالى نبيه ﷺ فى قوله ﴿ **وما يدريك لعله يزكى** ﴾ أى وما يدريك أن الكافر الذى تتحدث معه جاء للتزكية إن عليك إلا البلاغ ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾.

وقد جاء الكلام فى السورة بضمير الغيبة ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ** ﴾ عطفا على رسول الله ﷺ. لذلك لم ينزله عليه بضمير المخاطب.

وأمر آخر لقد نزلت سورة (عبس) بعد سورة (ن) وفى الثانية ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ فهل يتصور عاقل أن يثنى عليه ربه عز وجل فى سورة والتى تنزل بعدها يقدر عليه ذنبا ويعاتبه على فعله؟ إن هذا بعيد جدا.

وقال الله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٩].

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر. وقتل منهم سبعون وأسر سبعون. استشار النبى ﷺ أبا بكر وعمر وعليا. فقال أبوبكر: يانبى الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان. وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية. فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا. فقال رسول الله ﷺ: ماترى يا ابن الخطاب؟

قال: قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر. ولكنى أرى أن تمكننى من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه. وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه. وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه. حتى يعلم الله أنه ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبوبكر. ولم يهو ما قلت. فأخذ منهم الفداء. فلما كان من الغد. غدوت إلى رسول الله ﷺ. فإذا هو قاعد وأبوبكر الصديق. وهما يبكيان. فقلت: يارسول الله: أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك. فإن

وجدت بكاء. بكيت. وإن لم أجد تباكيت فقال النبى ﷺ: أبكى للذى عرض على أصحابك عن الفداء. لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة. لشجرة قريبة. فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ رواه مسلم إن قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى ما كان لنبى قبلك يامحمد أن يكون له أسرى حتى يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر وأهله ويقل حزبه. ويعز الإسلام ويستولى أهله فليس فى هذا إثبات ذنب للنبى ﷺ. ولكن فيه بيان ما خص به وفضل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلقد أحل الله له الغنائم ولم تحل لنبى قبله ﷺ. وأما قول الله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ فهو عتاب لبعض أصحابه ممن كان عنده – بعد الانتصار فى بدر – غرض لعرض الدنيا وحده والاستكثار منها، روى الضحاك قال (أنها نزلت حين أنهزم المشركون يوم بدر واشتغل الناس بالسلب وجمع الغنائم عن القتال حتى خشى عمر – رضى الله عنه – أن يعطف عليهم العدو) أى يميل عليهم ثم قال تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ومعناها: لولا أنه سبق منى أن لا أعذب أحدا إلا بعد النهى لعذبتكم ولما لم أنهكم فلن أعذبكم.

وهذا كله ينفي الذنب والمعصية. لأن من فعل من أحل له لم يعص ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وروى الترمذى والحاكم بسند صحيح عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ يوم بدر فقال: (خير أصحابك فى الأسارى إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفداء على أن يقتل منهم فى العام المقبل مثلهم) فقالوا: الفداء ويقتل منا.

وهذا معناه: أنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه وخيروا فيه لكن البعض

منهم مال إلى أضعف الوجهين. وكان الأصلح غيره. وهو الإثخان والقتل. فعوتبوا على ذلك وبين لهم أنهم قد اختاروا الأضعف. فهم ليسوا عصاة ولا مذنبين قال القاضي بكر بن العلاء: أخبر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من إحلال الغنائم والفداء. وقد كان قبل هذا فادى في سرية عبد الله بن جحش التي قتل فيها ابن الحضرمي بالحكم بن كيسان وصاحبه. فما عتب الله ذلك عليهم. وذلك قبل بدر بأزيد من عام.

فهذا كله يدل على أن فعل النبي ﷺ في شأن الأسارى كان على تأويل وبصيرة على ماتقدم قبل ذلك مثله فلم ينكر الله عليه. لكن الله تعالى أراد لعظم أمر بدر وكثرة أسرارها – والله تعالى أعلم – إظهار نعمته وتأكيد منته بتعريفهم ماكتبه في اللوح المحفوظ من حل ذلك. لاعلى وجه عتاب أو إنكار أو تذنيب. أ. هـ كما قال القاضي عياض رحمه الله تعالى في الشفا.

إذاً القضية ليست قضية ذنب ومعاتبة. وإنما هي مقام منّ وفضل وإنعام من العلي الكبير على نبيه ﷺ وأصحابه الكرام البررة رضوان الله عليهم.

ونكتفي بهذا القدر مما يسمى بآيات العتاب. وقد عرفنا أنها لم تكن للمعاتبة بقدر ماهي بيان لفضل الله عز وجل على نبيه ورحمته به ومنه عليه بما يستوجب شكر المنعم عز وجل.

* * *

تاسعا: الإسراء والمعراج

إن مما اختص به سيدنا محمد ﷺ رحلة الإسراء ورحلة المعراج. وهما معجزتان أوتيهما رسول الله ﷺ دون غيره من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فالإسراء: هي السير ليلا من مكة المكرمة إلى بيت المقدس والمعراج: هو العروج ليلا من بيت المقدس إلى سدرة المنتهى ثم إلى مقام لا يعلمه إلا الله عز وجل.

وقد أسرى برسول الله ﷺ وعرج به بروحه وجسده وإلا انتفت المعجزة. وكان تكذيب أهل مكة للرسول ﷺ عبثا. فكونهم يكذبون رسول ﷺ معناه أنه قد أخبرهم أنه قد أسرى به بروحه وجسده يقظة وليس مناما فلو قال لهم: كانت مناما ما كذبه أحد.

وقد دل على أن الإسراء كانت بالروح والجسد معا قول الله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الإسراء: ١] ﴿ **سُبْحَانَ** ﴾ وردت في القرآن الكريم بمعنى: التنزيه أو التعجيب أوبهما معا. وهي هنا جاءت بهما معا.

والعبد: اسم للروح والجسد معا قال تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا * قَيِّمًا** ﴾ [الكهف: ١، ٢].

وقوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ** ﴾ [الجن: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ** ﴾ [العلق: ٩، ١٠].

والمراد: مجموع الروح والجسد وكذلك في آية الإسراء واستدل أيضا بقوله ﷺ في حديث الإسراء في رواياته الكثيرة والمتعددة (أسرى بي) وقوله فيه (رأيت ليلة أسرى بي) ومما هو معلوم و مقرر: أن الأصل في الأفعال أن تحمل على اليقظة حتى يدل دليل على خلافه.

وكذلك أخبر ﷺ أنه ركب دابة تسمى (البراق) بالتواتر والأرواح لا تحمل على دواب وإنما الأجسام هي التي تحمل على الدواب وقد قرر الجمهور: أن الإسراء بالروح والجسد يقظة مرة واحدة.. ولا مانع أن يكون ذلك قد تكرر مناما قبل هذه المرة أو بعدها.

وقد قال العلماء أقوالا عديدة في حكمة كون الإسراء ليلا. وكلها أقوال يعترض عليها لظهور بطلان بعضها. وبعضها يوهم التشبيه.

وأقول – بعون الله وتوفيقه – كان الإسراء ليلا . ليكون الدليل على إثبات وقوعه مما يصعب على رسول الله ﷺ تحصيله كون ظلام الليل يستره وهو : وصفه لبيت المقدس فيكون وصفة ﷺ لبيت المقدس أيضا معجزة لأن الرحلة كلها ليست من فعله . وإنما الذى أسرى به هو الله تعالى ولذلك لما طلب منه أهل مكة أن يصف لهم بيت المقدس لكى يؤمنوا بما قال . يقول : فكربت . فكشف الله له الحجب فرأى بيت المقدس وكأنه أمامه فوق جبل أبى قبيس المجاور لبيت الله الحرام . فأخذ يصفه لهم ويعدد لهم أبوابه ونوافذه ومعالمه .

هذا . ومما هو معلوم فى لغة العرب أن الإسراء معناه : السير ليلا وكان هدف الإسراء هو : ﴿ **لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا** ﴾ يعنى ما رأى فى تلك الليلة من عجائب الآيات . كرؤية ثواب المجاهدين وعقوبة تارك الصلاة وأكلة الربا والزناة وغيرها .

وقد قالوا : إن الله تعالى قد أراه أمثلة لهذه الآيات . وهذا الكلام فيه قصور . والأحسن منه أن أقول : إن الله تعالى قد رفع الحجب وأطلع نبيه على عالم البرزخ فرأى فيه هذه الآيات التى رواها للناس . وهذا أيضا من تمام المعجزة . والله على كل شىء قدير .

(تنبيه) لقد تحدث رسول الله ﷺ فى مكة عن الإسراء فقط ولم يتحدث عن المعراج إلا بعد الهجرة فحدث بها أتباعه عليه الصلاة والسلام وقد تحدث عن الإسراء بمكة لأنها رحلة أرضية يسهل إقامة الدليل على وقوعها . وقد كان . أما رحلة المعراج فهى رحلة علوية لا يصدق بها إلا المؤمنون الصادقون فقط لأنه يصعب إقامة دليل يقع تحت الحس عليها . قال الإمام القسطلانى رحمه الله فى المواهب [١] :

والمعاريج ليلة الإسراء عشرة : سبع إلى السموات . والثامن إلى سدرة المنتهى والتاسع إلى المستوى الذى سمع فيه صريف الأقلام فى تصاريف الأقدار والعاشر

(١) ٣/١٧ .

إلى العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب بالمكافحة – أى بلا واسطة – والكشف الحقيقى :

وقد وقع له ﷺ فى سنى الهجرة العشرة ما كان فيه مناسبات لطيفة لهذه المعاريج العشرة . ولهذا اختتمت سنى الهجرة بالوفاة وهى : لقاء الحق جل جلاله . والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصدق . وإلى الموعد الحق . وإلى الوسيلة . وهى المنزلة الرفيعة . كما ختمت معاريج الإسراء باللقاء والحضور بحظيرة القدس . انتهى .

وقال ابن أبى جمرة : أن الحكمة فى الإسراء إلى بيت المقدس إظهار الحق للمعاند . لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلا إلى البيان والإيضاح حيث سألوه عن جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها . وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك . فلما أخبرهم بها حصل التحقيق أنه أسرى به إلى بيت المقدس . وإذا صح البعض لزم تصحيح الباقى . فكان ذلك سببا لقوة إيمان المؤمنين . وزيادة فى شقاء من عاند وجحد من الكافرين . والله سبحانه وتعالى أعلم . أ.هـ.

كانت رحلة الإسراء سبيلا للإيمان برحلة المعراج . فمن صدق النبى ﷺ فى خبره عن الإسراء فحتما سوف يصدقه فى خبر المعراج ويدل على ذلك قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه . عندما ذهب إليه بعض أهل مكة وأخبروه بما يقول النبى ﷺ فقال أبو بكر لهم : (لئن قال ذلك فقد صدق . إنا نصدقه فيما هو أبعد من ذلك – أى الأسراء – نصدقه فى خبر السماء) أى ما يأتى به الوحى من التنزلات على رسول الله ﷺ ولما جاء إلى النبى ﷺ قال له : إن قومك يقولون كذا وكذا . فأخذ النبى ﷺ يقص عليهم مرة أخرى . وأبو بكر يقول له : صدقت . قالوا : ومن أجل ذلك وصف أبو بكر بالصديق رضى الله عنه .

وفى صلاته إماما بالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين دلالة على تقدمه عليهم وإعلانا لهم أن الزعامة الدينية قد انتقلت إلى العرب .

وحضور الأنبياء والمرسلين ليكونوا فى شرف استقباله فى نهاية الرحلة الأرضية وبداية رحلته إلى الملأ الأعلى

وفى هذا كله بيان لشرف المصطفى ﷺ ورفعة مكانته ثم خرج الرسول ﷺ من بيت المقدس ومعه مرافقوه واستأنف الرحلة الكبرى إلى العالم العلوى. وعلى أبواب كل سماء كان سيدنا جبريل يستأذن. فيقال له: من؟ فيقول جبريل. فيقولون له: ومن معك؟ فيقول: محمد فيقولون: أو قد بعث إليه فيقول: نعم وهنا وقفة يسيرة: إن الملائكة يعرفون جبريل عليه السلام ومن معه من الملائكة ومع ذلك سألوا: ومن معك؟

وكان الباعث لهذا السؤال أنهم قد أبصروا أنواراً زائدة على أنوار الملائكة المرافقين للنبى ﷺ فسألوا فأخبروا بأن صاحب هذه الأنوار هو محمد ﷺ. فقالوا: أوقد بعث إليه؟ فهم كانوا يعلمون أن الله تعالى سيكرمه ولم يكونوا يعلمون زمن ذلك. فمعنى سؤالهم. أهذه هى الليلة الموعودة لتكريمه واخترق النبى ﷺ السبع الطباق حتى وصل إلى سدرة المنتهى فغشيها من أمر الله ما غشيها ابتهاجا بالزيارة المحمدية النورانية وروى أنه صلّى ثانية فى هذا المكان إماما بالأنبياء والمرسلين والملائكة وهذا معناه إعلان سيادته على العالمين. وإظهار شرفه وقدره أكثر فى العالم العلوى. وهذا من الله تعالى فضل كبير وعطاء جزيل ثم زج برسول الله ﷺ وحده فى بحار من الأنوار والتجليات حتى كان فى مقام القرب. مقام ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فكان ما كان. وأعطى من العطاء والفضل والفيض الإلهى ما أعطى وتجلى الله عز وجل عليه بما لا يعلمه إلا الله تعالى ﴿ **لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ فما هذا الذى رأى من الآيات. أبهم القرآن ذلك. لأنه حتما مما لا تطيقه عقولنا وأفهامنا.

وهل منَّ الله عليه بالرؤية؟ قال به البعض وأنكره آخرون. وأقول إن وقعت فليس ذلك بمستغرب لأنه من أمر الله وتكون الرؤية حينئذ بلا كيف ولا جهة.

وهذا النبى المصطفى ﷺ حبيب ومحبوب. ولا نسمح لأنفسنا أن نفتش

عما كان وما هو كائن وما سوف يكون - حيث لا كان ولا كائن ولا سيكون - بين المحبوب وحبيبه. وهو ما سكت عنه الحبيب ﷺ فإن فى ذلك السلامة ويكفينا ما قصه علينا من أحداث هذه الكرامة وفى مقام التجلى والعطاء فرض الله على رسوله ﷺ وأمته الصلاة. والصلاة عروج بروح المؤمن إلى الملأ الأعلى. والعبد فيها يكون فى الحضرة النورانية القدسية والتجليات الربانية والعطاء والرضا. ولذا لا يقوم بها غير صاحبها ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ﴾ ودخل الجنة ورأى ما فيها مما أعده الله تعالى لعباده من النعيم والرضوان وأبصر النار وأهلها ولذلك كان يخاف على أمته ويدعو ربه تعالى أن ينجى من العذاب أمته.

ثم قفل النبى ﷺ عائدا إلى فراشه الذى لم يبرد بعد وتلك آية عظمى تدل على أن هذه الرحلة لم تستغرق زمنا يذكر قال الله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الاسراء ١] وقال عز وجل: ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ [النجم: ١ - ١٨] وروى مسلم عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

(أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقه التى يربط بها الأنبياء. ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت. فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن. فقال: جبريل: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل. فقيل من؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال

محمد. قيل وقد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بآدم ﷺ فرحب بى ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية. فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بابنى الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما. فرحبا بى ودعوا لى بخير

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة. فذكر مثل الأولى. ففتح لنا. فإذا أنا بيوسف ﷺ. وإذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بى. ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة. وذكر مثله. فإذا أنا بإدريس فرحب بى ودعا لى بخير. قال الله تعالى ﴿ ورَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٧].

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة. فذكر مثله. فإذا أنا بهارون. فرحب بى ودعا لى بخير

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فذكر مثله. فإذا أنا بموسى. فرحب بى ودعا لى بخير

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة. فذكر مثله. فإذا أنا بإبراهيم مسندا ظهره إلى البيت المعمور. وإذا هو يدخله كل يوم سبعون الف ملك لا يعودون إليه.

ثم ذهبت إلى سدرة المنتهى. وإذا ورقها كآذان الفيلة. وإذا ثمرها كالقلال. قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها. فأوحى الله إلىَّ ما أوحى ففرض علىَّ خمسين صلاة كل يوم وليلة. فنزلت إلى موسى. فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فإن أمتك لا يطيقون ذلك. فإنى قد بلوت – أى خبرت – بنى اسرائيل وخبرتهم.

قال : فرجعت إلى ربى . فقلت : يارب خفف عن أمتى . فحط عنى خمسا فرجعت إلى موسى . فقلت : حط عنى خمسا . قال : إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف . قال : فلم أزل أرجع بين ربى تعالى وبين موسى حتى قال الله : يا محمد . إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر . فتلك خمسون صلاة . ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له عشرا . ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا . فإن عملها كتبت سيئة واحدة .

قال : فنزلت حتى انتهيت إلى موسى . فأخبرته . فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف . قال رسول لله ﷺ فقلت : قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه .) .

قال القاضى عياض – رضى الله عنه – [1] (جوّد ثابت رضى الله عنه هذا الحديث عن أنس – رضى اللهعنه – ما شاء . ولم يأت أحد عنه بأصوب من هذا)

وفى رواية أخرى لمسلم قال : (فأعطى رسول الله ﷺ ثلاثا : أعطى الصلوات الخمس . وأعطى خواتيم سورة البقرة . وغفر لمن لا يشرك بالله شيئا من أمته المقحمات) أى الكبائر المهلكات لقد بين لنا القرآن الكريم والسنة الشريفة أن النبى ﷺ قد أسرى بروحه وجسده يقظه لا مناما وكذلك عرج به هكذا وليس هذا بمستحيل . إن الله على كل شيء قدير .

يقول الأمير عبد القادر الجزائرى فى الموقف الواحد بعد المائة من كتابه « المواقف » : إنه أسرى بعبده محمد ﷺ بجسده وروحه ليريه من آيات الآفاق بعد أن آراه آياته في نفسه كما قال تعالى ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ أى أن ما رأوه هو الحق لا غيره . وهذه حالة المرادين

---

(١) الشفا ١ / ٢٣٥ . وقد روى حديث الإسراء والمعراج هذا فى صحيح مسلم وصحيح البخارى ومسند أحمد . وسنن الترمذى . وسيرة ابن هشام . وطبقات ابن سعد وتفسير ابن كثير والسيرة الحلبية . وغيرهم .

المجذوبين المصطفين. يريهم آيات الأنفس قبل آيات الآفاق خلاف المريدين. أ.هـ
وفى هذا القدر كفاية. ولعل ما ذكرناه فى هذا الموضوع يشفى العليل ويشبع الصحيح السليم. والله هو الهادى إلى سواء السبيل.

* * *

عاشرا: وأعطيت الشفاعة

لنبينا ﷺ الشفاعة العظمى يوم القيامة. وهو المقام المحمود الذى قال تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] ولقد خصه الله عز وجل بالشفاعة تكرما منه عز وجل وفضلا على النبى ﷺ وعلى أمته.

روى الشيخان عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا. فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة).

ورويا عن جابر أيضا عن النبى ﷺ قال: (لكل نبى دعوة قد دعا بها فى أمته وخبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة) ورواه الترمذى وروى الشيخان أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (لكل نبى دعوة مستجابة. فتعجل كل نبى دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة. فهى نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئا).

وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه: أنه سمع النبى ﷺ يقول: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول. ثم صلوا علىَّ فإنه من صلى علىَّ صلاة. صلّى الله عليه بها عشرا. ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله. وأرجو أن أكون هو. فمن سأل الله لى الوسيلة. حلت له الشفاعة).

ورووا أيضا عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

(من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته . حلت له شفاعتى يوم القيامة) .

وروى مسلم والبيهقى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن النبى ﷺ تلا قول الله عز وجل في ابراهيم: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ابراهيم: ٣٦] .

وقال عيسى عليه السلام ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يده وقال : اللهم أمتى . وبكى فقال الله عز وجل : يا جبريل إذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله : ما يبكيك . فأتاه جبريل عليه السلام فسأله . فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم . فقال الله تعالى : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك) .

وروى احمد ومسلم والترمذى عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى . وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر) وروى فى كنز العمال ٣١٨٨١ .

وروى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه . قال : فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون . فسمع حديثهم . فقال بعضهم : عجبا إن لله من خلقه خليلا اتخذ ابراهيم خليلا . وقال آخر : ماذا يعجب من كلام موسى كلمه تكليما . وقال آخر : فعيسى كلمة الله وروحه . وقال آخر : آدم اصطفاه الله . فخرج عليهم . فسلم وقال : (قد سمعت كلامكم وعجبكم . إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك . وموسى نجى الله وهو كذلك . وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك . وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك . ألا وأنا حبيب الله ولا فخر . وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولافخر . وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر . وأنا أول من يحرك حلق الجنة

فيفتح الله لى فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر. وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر) .

وتلك الشفاعة لا تكون إلا من بعد إذن الله عز وجل. سواء فى ذلك شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وشفاعة من دونه. وذلك الإذن يتعلق بالشافع والمشفوع فيه وبوقت الشفاعة. فليس الشفاعة إلا لمن أذن الله له فى الشفاعة. وليس له أن يشفع إلا بعد أن يأذن الله عز وجل له. وليس له أن يشفع إلا فيمن أذن الله تعالى له أن يشفع فيه .

والشفاعة من قضاء الله عز وجل وقدره. لذلك لا تحصل إلا بإذن منه تعالى. وهى مما وعد به رسول الله ﷺ ومنّ به عليه .

قال الله تعالى: ﴿ **عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ .

وقد سبق ذكر الأحاديث الدالة على اختصاصه ﷺ بذلك ولقد أنزل ربنا عز وجل فى القرآن العديد من الآيات الدالة على عدم قيام أى أحد بالشفاعة إلا بإذن الله تعالى. كما قال عز وجل ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

﴿ **مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ** ﴾ [يونس: ٣].

﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

﴿ **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ** ﴾ [النجم: ٢٦].

﴿ **قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا** ﴾ [الزمر: ٤٤] .

﴿ **وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزخرف: ٨٦].

﴿ لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ [مريم: ٨٧].

﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨].

﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ [طه: ١٠٩]

﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال عز وجل في الكفار: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ [أي الكافرين] مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر ١٨].

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر ٤٨].

فالشفاعة ملك لله عزوجل ولا تسأل إلا منه. ولا تكون إلا بإذنه فيأذن لمن شاء أن يشفع فيمن شاء الله تعالى.

وللنبى ﷺ شفاعات يأذن الله تعالى فيها:

الأولى: الشفاعة العظمى. وهى له ﷺ خاصة دون غيره ممن خلق الله تعالى. وهي أعظم الشفاعات وهى المقام المحمود الذى وعده الله به فى القرآن الكريم. قال الإمام البخارى [١] رحمه الله تعالى:

باب قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾.

حدثنا اسماعيل بن أبان حدثنا أبو الأحوص عن آدم بن على. قال: سمعت ابن عمر رضى الله عنهما يقول: (الناس يصيرون يوم القيامة جثا كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع. حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود) وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: أتى رسول

---

(١) صحيح البخارى ٨/ ٣٠٢، ٣٠٣.

الله ﷺ يوما بلحم فرفع إليه الذراع . وكانت تعجبه فنهش منها نهشة فقال : (أنا سيد الناس يوم القيامة . وهل تدرون بم ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين فى صعيد واحد . فيسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس . فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ومالا يحتملون . فيقول بعض الناس لبعض . ألا ترون ما أنتم فيه . ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض : ائتوا آدم . فيأتون آدم فيقولون يا ادم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك . اشفع لنا إلى ربك . ألا ترى ما نحن فيه . ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم : إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله . وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته . نفسى . نفسى اذهبوا إلى غيرى . اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض وسماك الله عبدا شكورا . اشفع لنا إلى ربك . ألا ترى ما نحن فيه . ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله . وإنه قد كانت لى دعوة دعوت بها على قومى نفسى نفسى اذهبوا إلى ابراهيم ﷺ . فيأتون إبراهيم . فيقولون : أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض . اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه . ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم ابراهيم ﷺ . إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله . وذكر كذباته . نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى ﷺ فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس . اشفع لنا إلى ربك . ألا ترى ما نحن فيه . ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى ﷺ : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله . وإنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها نفسى نفسى . اذهبوا إلى عيسى ﷺ . فيأتون عيسى . فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلمت الناس فى المهد وكلمة منه ألقاها إلى مريم وروح منه فاشفع لنا إلى ربك . ألا ترى ما نحن فيه . ألا ترى ما

قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى ﷺ إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر له ذنبا نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى. اذهبوا إلى محمد ﷺ. فيأتون فيقولون: يامحمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه. ألا ترى إلى ماقد بلغنا؟

فانطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجدا لربى. ثم يفتح الله علىَّ ويلهمنى من محا مده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه لأحد قبلى ثم قال: يامحمد ارفع رأسك سل تعطه اشفع تشفع. فأرفع رأسى فأقول: يارب أمتى. أمتى. فيقال: يامحمد ادخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. والذى نفس محمد بيده إن مابين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى) وبصرى بالشام. هذا لفظ مسلم والحديث متفق عليه قال الإمام السبكى فى شفاء السقام: وأما إلهامهم سؤال آدم ومن بعده صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ولم يلهموا فى الابتداء سؤال نبينا محمد ﷺ فالحكمة فيه والله تعالى أعلم: أنهم لو سألوه ابتداء لأمكن أن يقول قائل: يحتمل أن غيره يقدر على هذا. وإنما بذلوا الجهد فى السؤال والاسترشاد وسألوا غيره ﷺ من رسل الله تعالى وأصفيائه وأولي العزم فامتنعوا ولم يألوا جهدا فى النصح والإرشاد فانتهوا إليه وحصل غرضهم به. حصل العلم لكل أحد بنهاية مرتبته ﷺ وارتفاع منزلته وكمال قربه وعظم إدلاله وأنسه وتفضيله على جميع المخلوفين من الرسل من الآدميين والملائكة.

وحق لصاحب هذا المقام أن يكون سيد الأمم وأن يسافر إلى زيارته على الرأس لا على القدم.

ثم قال: وفى التجاء الناس إلى الأنبياء فى ذلك اليوم أول دليل على التوسل بهم فى الدنيا والآخرة وأن كل مذنب يتوسل إلى الله عز وجل بمن هو أقرب إليه منه. وهذا لم ينكره أحد.

وقال القاضى رحمه الله تعالى: يحتمل أنهم علموا أن صاحب الشفاعة محمد ﷺ معينا. وتكون إحالة كل واحد منهم على الآخر على التدريج.. الشفاعة فى ذلك إليه إظهاراً لشرفه فى ذلك المقام العظيم قال الحافظ ابن حجر ولاشك فى أن السائلين يومئذ من سمع هذا الحديث فى الدنيا وعرف أن ذلك خاص به ﷺ ومع ذلك فلا يستحضره إذ ذاك أحد منهم وكأن الله أنساهم ذلك للحكمة المذكورة.

وقال الإمام الشعرانى فى كتابه اليواقيت والجواهر:

قال الشيخ محيى الدين بن عربى رضى الله عنه: وإنما أخبرنا ﷺ بأنه أول شافع وأول مشفع شفقة علينا لنستريح من التعب الحاصل بالذهاب إلى نبى بعد نبى فى ذلك اليوم العظيم وكل منهم يقول نفسى نفسى. فأراد ﷺ إعلامنا بمقامه يوم القيامة لنصبر فى مكاننا مستريحين حتى تأتى نوبته ﷺ ويقول (أنا لها. أنا لها) فكل من لم يبلغه هذا الحديث أو بلغه ونسيه لابد من تعبه وذهابه إلى نبى بعد نبى بخلاف من بلغه ذلك ودام معه إلى يوم القيامة. فصلى الله عليه وسلم ما أكثر شفقته على الأمة. وإنما قال فى الحديث (ولافخر) أى لا أفتخر بكونى سيد ولد آدم من الأنبياء فمن دونهم وإنما قصدت ذلك راحتكم من التعب يوم القيامة بحكم الوعد السابق لى من الله عز وجل أن أكون أول شافع وأول مشفع فما زكى ﷺ نفسه إلا لغرض صحيح. أ.هـ.

وروى الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: - (أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا..وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا أيسو. لواء الحمد بيدى. وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر).

وروى مسلم عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أنا أول شفيع فى الجنة لم يصدق نبى من الأنبياء ماصدقت. وإن من الأنبياء نبيا ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد).

الثانية: شفاعته ﷺ فى استفتاح باب الجنة.

روى مسلم عن أنس رضى لله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (أنا أول الناس يشفع فى الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعا) وروى مسلم عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة. وأنا أول من يقرع باب الجنة) وروى مسلم أيضا عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (آتى باب الجنة يوم القيامة فاستفتح. فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك)

الثالثة: شفاعته فى قوم من أمته يدخلون الجنة بغير حساب كما روى [١] (يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب مع كل ألف منهم سبعون ألفا).

الرابعة: شفاعته فى أناس من أمته نوقشوا الحساب واستوجبوا العذاب فيشفع فيهم ﷺ فيعفوا الله عنهم ويدخلهم الجنة.

الخامسة: شفاعته فى المذنبين الذين دخلوا النار لكى يعفو الله عنهم. وفى هذا المقام يأذن ربنا عز وجل بالشفاعة للنبى ﷺ ومن دونه من الأولياء والعلماء والشهداء والوالدين والأطفال الصغار من المذنبين فيخرجهم الله تعالى من النار إكراما لنبيه ﷺ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾.

روى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن شعيرة. ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة) ورواه الترمذى.

وروى الترمذى عن عبد الله بن شقيق قال: كنت مع رهط بإيلياء فقال رجل منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى

---

(١) رواه الترمذى عن أبى أمامة.

أكثر من بنى تميم . قيل يارسول الله : سواك؟ قال : سواى) فلما قام قلت : من هذا؟ قالوا : هذا ابن أبى الجذعاء .

[هذا الحديث : حسن صحيح غريب . ورواه ابن ماجه أيضا]

فالشفاعة ثابتة لنبينا ﷺ بالقرآن الكريم وبأكثر من أربعين حديثا . رغم أنف المعاندين والمكابرين الذين يفتون فى دين الله بغير علم وردوا الشفاعة بحجج واهية ولا قيمة لها . وما علموا أن الشفاعة مما قضى الله تعالى وقدر وهى باب من أبواب رحمة الله عز وجل وعد بها من أرسله رحمة للعاملين . ﷺ .

* * *

حادى عشر : خير أمة أخرجت للناس

قال الله تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...** ﴾ [آل عمران : ١١٠] اختص الله سيدنا محمدا ﷺ بخير أمة أخرجت للناس اصطفى أبناءها واختارهم وهداهم للإيمان فاستجابوا لله تعالى ولرسوله ﷺ . فكانت بحق أمة جديرة بنوال النعمة الكبرى والرحمة العظمى : سيدنا محمد ﷺ رحمة الله للعالمين . وقد ميزها الله تعالى عن غيرها من الأمم بخصائص هى :

١- آمنت بالله عز وجل ربا واحدا لا شريك له تعبده ولا تعبد سواه وصدقت بنبوة المصطفى ﷺ الذى اصطفاه منها .

٢- تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

٣- هم أقصر الأمم أعمارا وأكثرهم أعمالا .

٤- أمة مرحومة فى الدنيا وفى الآخرة : ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ** ﴾ [البلد : ١٧] وصلى عليها ربنا عز وجل : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ** ﴾ .

٥- ناداها الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ ونادى غيرها من الأمم (يا أيها الناس . . يابنى اسرائيل . . .) .

٦- من أتى منهم بحسنة كانت بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

٧- أحل الله لها الغنائم ولم تحل لأمة قبلها

٨- جعل الله لها الأرض مسجدا وترابها طهورا

٩- ينصرها الله بالرعب مسيرة شهر إن هى نصرت دين الله .

١٠- خصها بالأشهر الحرم فى زيادة الثواب وبشهر رمضان وبليلة القدر وبليلة النصف من شعبان وبالعيدين وبيوم عرفة ويوم الجمعة .

١١- رفع الله عنها العذاب ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

١٢- النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم فهذه الأمة التى تتمتع بهذه الصفات هى أمة سيدنا محمد ﷺ التى شرفت به وعلقت آمالها فى رحمة ربها عز وجل عليه ﷺ الذى هو رحمة لها فى الدنيا ورحمة لها فى الآخرة .

* * *

ثانى عشر : حوض نبينا ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** ﴾ [سورة الكوثر] .

روى البخارى عن جندب قال : سمعت النبى ﷺ يقول : (أنا فرطكم على الحوض) (١) .

---

(١) فرطكم : الفرط الذى يتقدم الواردين فيهيئ لهم ما يحتاجون إليه . وهو هنا بمعنى الثواب والشفاعة . والنبى يتقدم أمته ليشفع لهم . أ.هـ. هامش اللؤلؤ والمرجان ٣ / ٧٦ .

وروى أيضا عن سهل بن سعد قال: قال النبى ﷺ: (إنى فرطكم على الحوض من مر على شرب. ومن شرب لم يظمأ أبدا ليردن علىَّ أقوام أعرفهم ويعرفونى ثم يحال بينى وبينهم) وفى رواية أبى سعيد الخدرى فأقول: إنهم منى، فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقا. سحقا لمن غير بعدى).

وروى أيضا عن عبد الله بن عمرو قال النبى ﷺ: (حوضى مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن. وريحه أطيب من المسك. وكيزانه كنجوم السماء. من شرب منه فلا يظمأ أبدا)

وقال القاضى عياض رحمه الله تعالى: أحاديث الحوض صحيحة والإيمان به فرض. والتصديق به من الإيمان. وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة لا يتأول ولايختلف فيه. وحديثه متواتر النقل. رواه خلائق من الصحابة. أ.هـ.

إن الله سبحانه وتعالى قد اختص نبينا ﷺ بالحوض الذى سوف يقف عليه ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والزهراء وأولادها فيسقون المؤمنين الصادقين شربة لايظمأون بعدها أبدا.

اللهم اجعلنا ممن يشربون من يد نبيك ﷺ شربة هنيئة مريئة لانظمأ بعدها أبدا بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين لقد اختص الله عز وجل نبينا سيدنا محمدا ﷺ بمزيد من الفضل والجود والعطاء ومنّ عليه بالمنح والهبات والكمالات النورانية القدسية. ويكفينا هذا القدر الذى ذكرناه تحدثا بنعمة الله على حبيبه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

* * *

ثالث عشر: مقام الحب

من خصائص سيدنا النبى ﷺ: أن الله عز وجل قد منحه مقام المحبة. والمحبة أرفع من الخلة وأعلى من المعرفة فهما دونها. وهما سبيلها ويوصلان إليها. ولما

كان ﷺ أعلى قدرا وأرفع منزلة . تجلى الله سبحانه وتعالى على حضرته بمقام الحب الذى هو أعلى المقامات وأرفع الدرجات له ولأمته . روى البخارى عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . وأن يحب المرء لايحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار) .

وقال ﷺ (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى بحب الله . وأحبوا أهل بيتى بحبى) رواه البخارى .

يقول الشيخ عبدالرحمن بن محمد الأنصارى فى كتابه « مشارق أنوار القلوب » أعلم أن المحبة هى أصل جميع المقامات والأحوال . إذ المقامات كلها مندرجة تحتها . فهى إما وسيلة أو ثمرة من ثمراتها كالإرادة والشوق والخوف والرجاء والزهد والصبر والرضى والتوكل والتوحيد والمعرفة ولهذا اختص بكمال هذا المقام سيد النبيين وإمام المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم . فإنه أعطى من سر هذا المقام مالم يعط غيره من الأنبياء عليهم السلام ولتحققه به . قال الله تعالى فيه : ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ [النساء : ٨٠] وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ﴾ [الفتح : ١٠] وقال : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران : ٣١] .

وحسبك أن جعل طاعته عين طاعته . ومحبته شرطا فى محبته . وماذاك إلا لأنه وَفَرَ نصيبه من نوره الذى أفاضه على العالم الأسفل بواسطته ولذلك سماه نورا مبينا وسراجا منيرا . وجعله رحمة للعالمين . فبذلك النور كان عليه الصلاة والسلام يدعو الخلق إلى ربه تعالى ليوصلهم بالنور إلى النور . وهنا سر يفهمه أربابه الذين وصلوا إلى حقيقة الذوق لايمكننا النطق به .

شربنا على زهر الربيع المفوَّف ... وجاء لنا الساقى بصهباء قرقَف
فلما شربناها ودب دبيبها ... إلى موضع الأسرار قلت لها : قفى
مخافة أن يسطو علىَّ شعاعها ... فيطلع جُلاَّسى على سرى الخفى

ويقول: المحبة لا يعبر عنها حقيقة إلا من ذاقها. ومن ذاقها استولى عليه من الذهول عن ماهو فيه أمر لايمكنه معه العبارة. كمثل من هو طافح سكرا إذا سئل عن حقيقة السكر الذى هو فيه لم يمكنه العبارة فى تلك الحال لاستيلائه على عقله. والفرق بين السكرين. أن سكر الخمر عرضى يمكن زاله ويعبر عنه فى حين الصحو. وسكر المحبة ذاتى ملازم لايمكن من وصل إليه أن يصحو عنه حتى يخبر فيه عن الحقيقة. كما قيل:

يصحو من الخمر شاربوها .. والعشق سكر على الدوام.. أ.هـ

هذا: ولا يوصل إلى المحبة إلا المعرفة بكمال المحبوب وجماله. إذ من لايعرف لايحب. فالمحبة ثمرة المعرفة والمعرفة علة المحبة وسببها.

وقالوا: إن المعرفة متقدمة على المحبة بالسبب والمحبة متقدمة عليها بالشرف من حيث أنها مقصودها. فكل محب عارف وليس كل عارف محب إذا كان فى ابتداء المعرفة. فأما إذا كانت المعرفة تامة وكاملة حصلت المحبة. فحينئذ يكون المحب هو نفس العارف والعارف هو عين المحب.

إن رسول الله ﷺ قد تجلى عليه المولى عز وجل بالمعرفة وبالمحبة المؤكدة. فصار ﷺ حبيبا ومحبوبا لتجلى أوصاف البارى عز وجل له. وهذا من فضله وبره حيث تفضل بمنح المصطفى ﷺ هذا المقام العالى وهذا الشرف الرفيع. وهو مما اختص به ﷺ فهو حبيب رب العالمين سبحانه وتعالى اللهم ارزقنا حبك وحب كل مايوصل إلى حبك وحب المصطفى ﷺ وحب آله الكرام وصحابته رضى الله عنهم أجمعين.

* * *

رابع عشر: أسماء النبى ﷺ

لقد تكلم فى أسماء النبى ﷺ بعض العلماء وقاموا بإحصائها منهم: القاضى عياض، وجلال الدين السيوطى ومحيى الدين بن عربى وعبدالكريم

الجيلى وابن القيم والجزولى والقسطلانى ويوسف أفندى زاده وخلاصة ما توصلوا إليه من حصر أسماء النبى ﷺ هو ما أورده صاحب دلائل الخيرات رحمة الله تعالى إذا يقول:

فاعلم أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله. أحمد. حامد. محمود. أحيد. وحيد ماح. حاشر. عاقب. طه. يس. طاهر. مطهر. طيب. سيد. رسول. نبى رسول الرحمة. قسيم. جامع. مقتفى. مقفى. رسول الملاحم. رسول الراحة كامل. إكليل. مدثر. مزمل. عبد الله. حبيب الله. صفى الله. نجى الله. كليم الله. خاتم الأنبياء. خاتم الرسل. محيى. منيح. مذكر. منصور. نبى الرحمة. نبى التوبة. حريص علكيم. معلوم. شهيد. شاهد. مشهود. بشير. مبشر. نذير. منذر. نور. منير. سراج. مصباح. هدى. مهدى. داع مدعو. مجيب. مجاب. حفى. عفو. ولى. حق. قوى. أمين. مأمون. كريم مكرم. مكين. متين. مبين. موصل. وصول. ذو قوة. ذو حرمة. ذو مكانة ذو عزة. ذو فضل. مطاع. مطيع. قدم صدق. رحمة. بشرى. غوث. غيث غياث. نعمة الله. هدية الله. عروة وثقى. صراط الله. صراط مستقيم ذكر الله. سيف الله. حزب الله. النجم الثاقب. مصطفى. أمى. مختار أجير. جبار. أبو القاسم. أبو الطاهر. أبو الطيب. أبو ابراهيم. شفيع مشفع. صالح. صلح. مهيمن. صادق. مصدق. صدق. سيد المرسلين. سيد الأنبياء. إمام المتقين. قائد الغر المحجلين. خليل الرحمن. بر. مبر. وجيه نصيح. ناصح. وكيل. متوكل. كفيل. شفيق. مقيم السنة. مقدس. روح الحق روح القدس. روح القسط. كاف. مكتف. بالغ. مبلغ. شاق. واصل. موصول. سابق. سائق. باد. مُهدٍ. مَهْدٍ. مقدم. عزيز. فاضل. مفضل. فاتح. مفتاح الرحمة. مفتاح الجنة. علم الإيمان. علم اليقين. دليل الخيرات مصحح الحسنات. مقيل العثرات. صفوح من الذلات. صاحب الشفاعة. صاحب المقام. صاحب القدم. مخصوص بالعز. مخصوص بالمجد. مخصوص بالشرف صاحب الوسيلة. صاحب السيف. صاحب الفضيلة. صاحب الإزار. صاحب الحجة.

صاحب الريان . صاحب السلطان . صاحب المغفر . صاحب اللواء . صاحب البراق . صاحب الخاتم . صاحب العلاقة . صاحب البيان . فصيح اللسان . مطهر الجنان . رءوف . رحيم . أذن خير . صحيح الإسلام . سيد الكونين . عين النعيم . عين الغر . سعد الله . سعد الخلق . خطيب الأمم . علم الهدى . كاشف الكرب . رافع الرتب . عز العرب . صاحب الفرح . رفيع الدرجات . كريم المخرج ﷺ .

إن الرسول ﷺ يكون بهذا العدد الكثير من الأسماء والصفات قد تفوق على سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم . وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى . وقد استخلص العلماء هذا العدد الكثير من الأسماء والصفات من القرآن الكريم ومن السنة النبوية يقول ابن القيم فى زاد المعاد : (وأسماؤه ص ﷺ نوعان هما : خاص : لا يشاركه فى معناه غيره من الرسل . كمحمد واحمد العاقب والحاشر والمقفى ونَبى الملحمة . والثانى : مايشاركة فى معناه غيره من الرسل ولكن له منه كما له . فهو مختص بكماله دون أصله . كرسول الله ونبيه وعبده والشاهد والبشير والنذير ونبى الرحمة . ونبى التوبة .

وأما إن جعل له من كل وصف من أوصافه اسم . تجاوزت أسماؤه المائتين كالصادق والمصدوق والرءوف الرحيم إلى أمثال ذلك . أ.هـ وقد ذكر العلماء : الشيخ محيى الدين بن عربى . وعبدالكريم الجيلى والقاضى عياض وجلال الدين السيوطى رحمهم الله تعالى : كل واحد منهم قائمة بأسماء النبى ﷺ من أسماء الله الحسنى التى خلعها الله على نبيه ﷺ . ومجموع هذه القوائم بعد استبعاد المكرر منها هو : سبعة وستون اسما خلعها الله تعالى عليه من أسمائه الحسنى . ويشاركه فى بعضها بعض الأنبياء نوح وإبراهيم واسماعيل واسحاق ويوسف وموسى وأيوب ويحيى وعيسى عليهم السلام كما ورد فى القرآن الكريم فى آيات عديدة فى سورة : الإسراء(٣) والتوبة (١١٤) والصافات (١٠١) ومريم (٥٤ ، ١٤ ، ٣٢) والحجر (٥٣) ويوسف (٥٥) والصف (٢٦) والدخان (١٧) وص (٤٤) .

وقد قسم هذه الأسماء التى حلاه الله بها من الأسماء الحسنى الدكتور عبد العزيز أبومندور فى كتابه «الاصطفاء والاجتباء وأنوار الأنبياء» (ص ٢٩، ٣٠) أربعة أقسام حسب تقسيم الشيخ / عبدالكريم الجيلى لأسماء الله الحسنى فى كتابة الكمالات الالهية فى الصفات المحمدية وذلك كما يلى :

(جدول تقسيم أسماء النبى ﷺ التى حلاه الله بها من الأسماء الحسنى)

(١) أسماء ذات	(٢) أسماء جلال	(٣) أسماء جمال	(٤) أسماء مشتركة أو كمالية
أحد	جبار	كامل	جامع . مهيمن
نور	شهيد	(فى معنى	عدل، حكيم
حق	قوى	التمام)	ولى . على . أعلى
قدوس	سيد (يس)	محيى	أول . آخر
	صابر . صبور	بر . رحيم	ظاهر . باطن
	عزيز	عفو . غفور	مقسط . حى
	عظيم	وكيل . حميد	(كما جاءت فى
	مجيد . ماجد	حليم . كريم	الفتوحات)
	(صاحب المجد	حفيظ . عليم	غنى . مقدم . قريب
	وصاحب	خبير . فتاح	برهان
	الشرف)	سلام . مؤمن	حمم . ن
	شكور	رءوف . معطى	ذو الجلال والإكرام
	قائم	كاف . شاف	
	واضع	حسيب . صادق	
	(خافض رافع)	رفيع الدرجات	

ثم يقول : ومن هنا يكون قد فاق كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى كثرة عدد الأسماء الخاصة . كما فاقهم فى اختصاصه بالكمال والتمام فى الأسماء

المشتركة إذن يمكن القول بان الله سبحانه وتعالى فضل المصطفى الأول ﷺ على سائر الأنبياء عليهم السلام. بما خصه به من أسمائه الحسنى التى تقرب من ستين إسما أو يزيد لو أخذنا أسماء الاشتقاق. فى حين لم يكن لغيره سوى أسم أو أسمين. هذا من ناحية.

ومن ناحية ثانية: فإن أسماء الأنبياء عليهم السلام التى خصهم الله بها لاتخرج عن أسماء النبى ﷺ. بل هى متضمنة فيها. فله مالهم. وكل ما تفرق فيهم من صفات المجد والشرف والكمال. وزاد عليهم بما حباه الله تعالى من صفه الختم. فكان جامعا لأسمائهم والجامع من أسمائه ﷺ وبهذا يكون له فضل التقدم عليهم والتفرد من دونهم بصفة الكمال. أ. هـ وهكذا يمجد الله تعالى حبيبه ﷺ ويشرفه ويد لّله. وأى مخلوق يحظى بهذا كله؟ إنه سيدنا محمد ﷺ.

* * *

الفصل الثالث
يوحى إليّ..

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

[آخر سورة الكهف]

وقال عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

لقد بعث الله نبيه ورسوله المصطفى ﷺ برسالة الإسلام وجعله هاديا ومبشراً ونذيرا. وما جاءنا به ﷺ هو وحى من الله تعالى. يجب علينا طاعته وعدم مخالفته كما يجب علينا ان نظهر له الحب والود والمودة دليلا على مدى صدق طاعتنا له والتزام شريعته.

كما ندبنا ربنا عز وجل لمودته وزيارته فى حياته وبعد انتقاله لنتشرف بالسلام عليه. كما حببنا ربنا عز وجل وحثنا على الإكثار من الصلاة والتسليم عليه فرضا ونديا.

ورسولنا ﷺ كان بشرا ولكن لم يكن كسائر البشر لأنه يوحى إليه. والذى يوحى إليه يكون فيه القدرات والقوة الظاهرة والخفية ما يمكنه من استقبال الوحى. وهذا هو الفرق بينه وبين كل الناس ولا يعلم حقيقته ومداه إلا رب

العالمين لأن الرسول ﷺ كان فى مقام (يوحى إلى) ومقام (خاتم النبيين) صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

(أ) إن الدين عند الله الاسلام

لقد أرسل الله نبيه محمدا ﷺ بشريعة الإسلام وجعله الدين الخاتم قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال الله عز وجل: ﴿ **أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [الحج ٧٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾[البقرة: ١٢٨ – ١٣٢].

وقال عز وجل: ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا** ﴾ [الفتح: ٢٨].

الإسلام هو دين الله تعالى الذى رضيه لعباده وهدى إليه من اصطفاه من عباده منذ آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة والإسلام هو الاستسلام والانقياد والخضوع لله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٧ - ٥٨] ودين الله يقوم على ثلاثة جوانب هى:

(١) العقيدة: والعقيدة الإيمانية هى التى تحدد هوية الإنسان الدينية. وللعقيدة فى الإسلام أركان ستة حددها النبى ﷺ عندما سأله سيدنا جبريل عليه السلام: ما الإيمان؟

فقال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومافيه وأن تؤمن بالقدر خيره وشره) [رواه الشيخان من حديث عمر بن الخطاب].

والإيمان بالله تعالى أن يعتقد العبد بهذه الأمور الخمسة:

(أ) الإيمان بالله ربا واحدا تعبده ولا تعبد سواه. لاشريك له.

(ب) الإيمان باتصافه بصفات الكمال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

(جـ) أنه هو الرزاق ذو القوة المتين.

(د) أن مقادير الأشياء بيده ولا يقع فى ملكه إلا ما أراد ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

(هـ) أنه هو الذى أرسل الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامة عليهم والملائكة خلق خلقهم الله من أجسام نورانية قادرة على التشكل بجميع الأشكال الحسنة لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولقد أنزل الله تعالى على المرسلين كتبا كثيرة وختمها بالقرآن الكريم نؤمن بها إجمالا وبالقرآن تفصيلا.

ولقد بعث الله رسلا وأنبياء كثيرين منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وخاتمهم هو سيدنا محمد ﷺ ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ واليوم الآخر هواليوم الذى لايوم بعده ويبدأ بالموت وينتهى بأن يفصل الله بين عبادة. وفيه: الموت ودخول القبر وسؤال

الملكين. ونعيم وعذاب وبعث وحشر وصراط وميزان وتطاير الكتب وسؤال الله لعباده وحسابهم والشفاعة والرحمة والجنة والنار وخلودهما.

والإيمان بالقدر هو أن تؤمن بأن كل مايقع فى هذا الكون عظيما كان أو حقيرا هو من فعل الله تعالى كما يجب عليك أن ترضى عن الله تعالى فى كل ماينزل بك خيرا كان أو غيره. لأنه كله من الله تعالى (ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا) رواه البخارى عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ذلك هو ملخص العقيدة فى الإسلام.

٢ - **الشريعة**: والشريعة فى الإسلام تتميز بخصائص هى:

(أ) أنها منزلة من عند الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ** ﴾.

﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾.

(ب) العدل. فشريعة الإسلام تقوم على العدل والإنصاف قال الله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾.

والعدل شرط فى الشهادة.

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾.

ولذلك حرم الإسلام الظلم ومقته. لأنه يحرم صاحب الحق من تحصيل حقه. وبذلك تضيع الحقوق.

ولذلك كانت شريعة الإسلام هى شريعة الوسطية. والوسطية عدالة وقيم ومثل عليا.

(جـ) المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات. ولا تميز لأحد على الآخر

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ .

(د) السهولة واليسر . فهى شريعة ميسرة وسهلة فى تطبيق أحكامها وشعائرها

﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة :٢٨٦] .

﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ .

﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج : ٧٨] .

(هـ) العلم والمعرفة فلا يعبد الله تعالى بالجهل ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ .

﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ .

فالعلم هو التعرف على أحكام الإسلام وشرائعه لذلك كان أول ما نزل ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ .

(و) أحكام الشريعة توافق متطلبات الفطرة السليمة .

فطرة الله التى فطر الناس عليها .

(ز) ما حرمه الله تعالى فى شريعة الإسلام ليس فيه نفع له . وإنما فيه ضرر للإنسان ضرر مادى وضرر أدبى ﴿ **وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ** ﴾ .

(ح) الشريعة الإسلامية توازن بين الحقوق والواجبات . إن كل حق يقابله واجب لأن ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ .

فهذه الأمور كلها مجتمعة تميز الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع والنظم الأخرى .

٣ - **الأخلاق** : يهتم الإسلام كثيرا بالجانب الخلقى فى شرائعه وشعائره وقد جعل الإسلام الأخلاق عنوانا على صدق الإيمان وصحته : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٨] .

وفى الحديث : (إنه لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له) ولما امتن الله عز وجل على نبيه ﷺ بالمدح والثناء قال له ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

فالاسلام يرعى هذا الجانب رعاية تامة لذلك يبعث فى النفس البشرية : إحياء الضمير ومراقبة الحق تبارك وتعالى . ويحدد العلاقة بين الناس ويقيمها على :

(أ) المودة والرحمة والألفة وحسن الجوار واحترام الناس .

(ب) المساواة بين الناس فى المعاملة إلا من شذ منهم .

(جـ) إظهار الحب للناس والعطف على كل من يحتاج لذلك .

(د) رعاية حقوق الإخوة فى الإسلام وفى البشرية .

(هـ) رعاية حقوق الأبوين وذوى الأرحام .

(و) المحافظة على سمعة الناس وأعراضهم .

(ز) التزام الصدق وكمال الأدب فى معاملة الناس .

(ح) رفع الأذى عن الناس ونصرة المظلوم .

(ط) قضاء حوائج الناس ومساعدة من يحتاج للمساعدة .

(ى) إشاعة السلام والأمان والطمأنينة بين الناس .

ذلك هو دين الإسلام وشريعته الذى أرسل به سيدنا محمدا ﷺ وعنه سوف يسألنا ربنا عز وجل ويحاسبنا عليه .

والإسلام دين ودنيا . ويخطىء كثيرا من يظن أن الإسلام هو عبادة فقط فالاسلام منهج حياة . ينظم للإنسان حياته الدنيوية والأخروية . فهو يحدد للإنسان علاقته بربه عز وجل . كما يحدد له علاقاته بكل من حوله من البشر على اختلاف مستوياتهم ومراتبهم .

وقد وعدهم ربنا عز وجل – إن عملوا بأحكام الإسلام والتزموا شرائعه

واطاعوا الله ورسوله – الجزاء الأوفى والنعيم المقيم قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** ﴾ ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً** ﴾.

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: (كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى) قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: (من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى).

والإسلام بنظمه وأحكامه وحي من الله تعالى نزل به القرآن الكريم وبينته السنة الشريفة ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾.

﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** ﴾.

(ب) وجوب طاعته ﷺ :

قال الله تعالى: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال عز وجل: ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ [الاحزاب: ٤٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾.

وقال تعالى: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا** ﴾ [الفتح: ٢٩].

لذا أوجب الله علينا طاعته فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه

قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾

[الحشر: ٧]

فهو المعصوم فى كل ذلك فلا يقول إلا حقا ولا ينطق إلا صدقا ولا يفعل إلا ما أمر من ربه عز وجل بفعله ولا ينتهى إلا عما نهى الله عنه .

قال الله تعالى ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ** ﴾ [النجم: ٣ - ٥] .

وقد أمر من ربه بالتبليغ والبيان ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النحل: ٤٤] .

وقال تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الشورى: ٥٢] .

وقد حذر ربنا عز وجل أمته من مخالفته فقال ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور: ٦٣].

وقال عز وجل: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ [الأحزاب: ٣٦] .

وقال تعالى: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء:٦٥] .

وقال عز وجل ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ [النساء: ٥٩] .

أى إلى ما قال الله ورسوله إن عرفتموه. وإن لم تعرفوه سألتم رسول الله ﷺ عنه وصلتم إليه أو إلى من وصل إليه. فيرد الأمر إلى قضاء الله تعالى ثم إلى قضاء الرسول ﷺ إذا وجد النص فإذا لم يوجد النص فيما تنازعوا فيه ردوه قياسا على أحدهما وقال الله تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [آل عمران: ١٦٤] .

وقال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ** ﴾ [الأحزاب ٣٤] قال الإمام الشافعى رضى الله عنه [١]:

---

(١) الإمام الشافعي: للمؤلف ص ٩٤، ٩٥.

فذكر الله تعالى الكتاب وهو القرآن . وذكر الحكمة فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله ﷺ وهذا يشبه ما قال (والله أعلم) بأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة . وذكر الحكمة . وذكر الله عز وجل – منته على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة . فلم يجز – والله أعلم – أن تعد الحكمة ها هنا إلا سنة رسول الله ﷺ وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله وأن الله افترض طاعة رسول الله ﷺ وحتم على الناس اتباع أمره . فلا يجوز أن يقال لقول : فرض إلا لكتاب الله ثم سنة رسول الله ﷺ مبينة عن الله ما أراد دليلا على خاصه وعامه . ثم قرن الحكمة بكتابه فاتبعها إياه ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسول الله ﷺ . أ. هـ وقد جعل الله تعالى طاعة نبيه ﷺ طاعة له فقال : ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾ [النساء : ٨٠] فكل من آمن به ﷺ وصدق برسالته فإنه يجب عليه طاعته وعدم طاعته وقف للعمل بسنته وشريعته وذلك نقض لشهادته له بالنبوة وبالرسالة وعدم اعتراف بما أنزله الله عليه .

وفقنا الله للعمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ .

﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ .

(جـ) وجوب محبته ﷺ :

روى البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده) .

وروى أيضا من حديث عبد الله بن هشام : أن عمر بن الخطاب قال للنبى ﷺ : لأنت يا رسول الله أحب إليَّ من كل شيء إلا نفسى التى بين جنبى . فقال النبى ﷺ : (لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه) .

فقال عمر : والذى أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إليَّ من نفسى التى بين

جنبى . فقال له النبى ﷺ : (الآن يا عمر) أى الآن كمل إيمانك والآن عرفت فالزم .

ولقد كان أصحابه رضى الله عنهم يبادلونه حبا بحب وما كان الرجل منهم يطيق أن يغيب طويلا فلا يرى رسول الله ﷺ

روى ابن اسحاق : (أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ . فقالت ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيرا . هو بحمد الله كما تحبين . فقالت : أرونيه حتى أنظر إليه . فما رأته . قالت : كل مصيبة بعدك جلل) تعنى صغيرة وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه (ما كان أحد أحب إلىَّ من رسول الله ﷺ) [رواه مسلم فى حديث طويل] .

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه (وكان رسول الله ﷺ أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا . ومن الماء البارد على الظمأ) .

وروى البيهقى عن عروة قال : لما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه . قال له أبو سفيان بن حرب : أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت فى أهلك؟ فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة وأنى جالس فى أهلى . فقال أبو سفيان : ما رأيت أحدا من الناس يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا .
وروى الطبرانى فى الصغير عن عائشة رضى الله عنها قالت : أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله لأنت أحب إلىَّ من أهلى ومالى . وإنى لأذكرك فما أصبر حتى أجىء فأنظر إليك وإنى ذكرت موتى وموتك فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين . وأنى إن دخلتها لا أراك . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

فدعا به . فقرأها عليه .

وذكر البغوى فى تفسيره والواحدى فى أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت فى ثوبان مولى رسول الله ﷺ . وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه. يعرف الحزن فى وجهه فقال له رسول الله ﷺ : (ما غير لونك ؟) فقال: يا رسول الله ما بى من مرض ولا وجع غير أنى إن لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك. ثم ذكرت الآخرة. فأخاف أن لا أراك لأنك ترفع مع النبيين وأنى إن دخلت الجنة فى منزلة أدنى من منزلتك وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبدا. فنزلت هذه الآية.

ومن أحب رسول الله ﷺ فهو محب لله عز وجل. ومن أحب الله تعالى فهو محب لرسول الله ﷺ . قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وروى القشيرى فى رسالته عن أبى سعيد الخراز قال: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام. فقلت: يا رسول الله أعذرنى فإن محبة الله شغلتنى عن محبتك. فقال لى: (يا مبارك من أحب الله فقد أحبنى)

وأنشد سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه (١):

ألا يا محب المصطفى زد صبابة ... وضمخ لسان الذكر منك بطيبه

ولا تعبأن بالمبطلين فإنما ... علامة حب الله حب حبيبه

ولا يدرك العبد ثمرة الإيمان ولا يحصلها إلا بمحبة الله ورسوله ﷺ .

روى الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار).

---

(١) السيد إبراهيم الدسوقى ينتهى نسبه إلى الإمام على بن أبى طالب (حسينى) تفقه على مذهب الشافعى. ثم اقتفى آثار الصوفية حتى صار من أعلامهم عاش ثلاثا وأربعين سنة ومات سنة ست وسبعين وستمائة. وضمخ أى لطخ.

وروى البخارى عن العباس رضى الله عنه قال: (ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا) ورواه مسلم .

يقــول ابن عطاء الله السكندرى: يعنى فى هذا الحــديث إشــارة إلى أن القلوب السليمة من أمراض الغفلة والهوى تتنعم بملذوذات المعانى كما تتنعم النفوس بملذوذات الأطعمة. أ. هـ .

فحقيقة المحبة لله عز وجل أن يكون كلك لله تعالى فلا مكان فى قلبك لمن سواه عز وجل وحقيقة المحبة لرسول الله ﷺ تقع فى أمرين هما:

أن تحبه لنبوته ورسالته وهذا يوجب عليك الامتثال بالأوامر والانتهاء عن المعاصى والرضا بما قدره الله تعالى لك وعليك. وأن تعمل بسنة المصطفى ﷺ .

وكذلك تحبه ﷺ لذاته النورانية. لأنه كان أعبد الناس لربه عز وجل وأزكى الناس قلبا وقالبا وهو محبوب الله تعالى فتحبه لأجل هذا المعنى: نحبه لرسالته ونحبه لذاته عليه الصلاة والسلام لذلك قال لنا ربنا عز وجل ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ .

وللصدق فى محبته ﷺ علامات:

(١) الاقتداء به ﷺ :

قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾

[آل عمران: ٣١]

(٢) الرضا بما قضى به وشرعه :

قال تعالى ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥] .

(٣) نصر دينه ﷺ :

روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ (يا

غلام إني أعلمك كلمات . احفظ الله يحفظك . . الحديث ومعنى (احفظ الله) أى احفظ دين الله فى نفسك وعند غيرك .

(٤) كثرة ذكره ﷺ :

ومن علامات محبته ﷺ وكثرة ذكره والاشتغال بأمره والعمل بسنته والتزام شريعته ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾

[آل عمران : ٣١]

وروى فى الحديث (من أحب شيئا أكثر من ذكره) [رواه أبو نعيم والديلمى عن عائشة] وقال بعضهم : للمحب ثلاث علامات : أن يكون كلامه ذكراً له وصمته فكرا فيه . وعمله طاعة له . وللإمام القسطلانى كلام طيب نذكر منه : فالمحبون قد اشتغلت قلوبهم بلزوم ذكر المحبوب عن اللذات . وانقطعت أوهامهم عن عارض دواعى الشهوات . ورقت إلى معادن الذخائر وبغية الطلبات . وربما تزايد وجد المحب . وهاج الحنين وباح الأنين وتحركت المواجيد . وتغير اللون . واستبسلت الجوارح . وفتر البدن واقشعر الجلد . وربما صاح . وربما بكى . و ربما شهق وربما وله وربما سقط . وربما زاد الوجد على المحب فقتله .

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى . فلو يعفى الناس بدعواهم لادعى الخلى حرقة الشجى . فتنوع المدعون فى الشهود . فقيل : لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) فتأخر أكثرهم وثبت أتباع الحبيب فى أفعاله . وأقواله . وأخلاقه . فطولبوا بعدالة البينة بتزكية ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة : ٥٤] فتأخر أكثر المحبين . وقام المجاهدون . فقيل لهم : إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم . فهلموا إلى بيعة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [التوبة : ١١١] فلما عرفوا عظمة ذلك المشترى وفضل الثمن . وجلالة من أجرى على يده عقد التبايع . عرفوا قدر السلعة . وأن لها شأنا عظيما . فرأوا من أعظم

الغبن أن يبيعوها بثمن بخس . فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضى من غير ثبوت خيار وقالوا : والله لانقيلك ولا نستقيلك . فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم : قد صارت نفوسكم وأموالكم لنا . رددناها عليكم أفر ما كانت وأضعافها معها ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] فذكره ﷺ جلاء قلوبنا . وشفاء صدورنا . وحلاوة ألسنتنا فى جميع الحالات . على اختلاف الأوقات والساعات . يتشرف بذكره فى جميع العبادات . وفى الجمع والجماعات والخطب والصلوات وسائر التقلبات والتصرفات . حتى فى المعاطاة والمبايعات وعقود المصالحات . واستفتاح المعاقدات والمعاهدات . وخصوصا عند الأذكار والدعوات . فإن بها ولوجها فى أبواب الإجابات . أ.هـ ومن علامات محبته ﷺ أيضا أن يتلذذ المحب بذكره الشريف ويطرب عند سماع اسمه أو وصفه . فيصاب المحب بنشوة وحالة هى إلى السكر أقرب لما أصابه من اللذة القاهرة للعقل التى سببها إدراك المحبوب ﷺ .

ومن أقوى أسباب السكر بذكره ﷺ . سماع الأصوات المطربة بالإنشادات بالصفات النورانية النبوية المغربة المعربة المبينة إذا صادفت محلا قابلا وقلبا سليما وعقلا رشيدا وروحا فى الحب هائمة عندئذ لاتسأل عن سكرة السامع الولهان الهيمان .

روى الإمام أحمد وغيره : (أن الله تعالى يقول لداود عليه السلام : مجدنى بذلك الصوت الذى كنت تمجدنى به فى الدنيا . فيقول : كيف وقد أذهبته . فيقول : أنا أرده عليك . فيقوم عند ساق العرش ويمجده . فإذا سمع أهل الجنة صوته استفرغ نعيم أهل الجنة) أى شغلهم صوته بتمجيد الله عز وجل عما هم فيه من النعيم المقيم .

وأعظم منه : إذا سمعوا كلام الله جل جلاله وتقدست أسماؤه . وخطابه لهم فإذا انضاف إلى ذلك تجلى الله عز وجل على عباده برؤية وجهه الكريم فحا لتئذ لا

يرون جنة ولا نعيما لما أصابهم من لذة رؤيته عز وجل . فهذا أمر لاتدركه العبارة ولا تحيط به الإشارة ويعجز العقل عن وصفه وإدراكه فسبحان الله العلى الكبير المتفضل على أحبابه وأوليائه بألوان السعادة فشغلهم فى الدنيا بمحبته عز وجل ومحبة حبيبه ﷺ وألهج ألسنتهم بذكره وتسبيحه و ذكر النبى والصلاة عليه . ووعدهم الجزاء الأوفى فكانوا كما أراد الله لهم وأحبه منهم . فرضى الله عنهم وتجلى عليهم بنعيمه ونعمه سبحانه وتعالى .

(٥) تعظيمه وتوقيره ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ [الفتح : ٨ ، ٩] ومن علامات محبته ﷺ تعظيمه عند ذكره . وإظهار الخضوع والإنكسار مع سماع اسمه الشريف أو وصفه المنيف .

قال أبو ابراهيم : إسحاق بن ابراهيم التجيبى المحدث :

واجب على كل مؤمن متى ذكره . أو ذكر عنده . أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته . ويأخذ فى هيبته وإجلاله . بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه . ويتأدب بما أدبنا الله به .

وكان أيوب السختيانى الفقيه : إذا ذكر النبى ﷺ بكى حتى نرحمه .

وكان الإمام جعفر (الصادق) بن محمد (الباقر) بن على (زين العابدين) ابن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم . كثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر النبى ﷺ اصفر لونه .

وكان عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر رضى الله عنهم : إذا ذكر النبى ﷺ ينظر إلى لونه كأنه قد نزف منه الدم . وقد جف لسانه فى فمه هيبة لرسول الله ﷺ .

وكان عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما إذا ذكر عنده النبى ﷺ بكى حتى لايبقى فى عينيه دموع .

وكان صفوان بن سليم من المتعبدين المجتهدين. فإذا ذكر عنده النبى ﷺ بكى فلا يزال يبكى حتى يقوم الناس عنه ويتركوه وكذلك كان الزهرى وقتاده رحمهما الله تعالى. ذكر القاضى عياض فى الشفاء فالمحب ينصت عن سماع ذكره ﷺ تعظيما له وتوقيرا وإذا تكلم عنه. تخير الألفاظ المناسبة والعبارات الرقيقة اللائقة بمقامه ﷺ (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) ويتكلم فى أدب وتواضع وحياء كأنه يجالسه ويراه و هكذا كان أصحابه الكرام رضى الله عنهم وأرضاهم. الذين تأدبوا فى حضرته. فكان يدخل عليهم فيطأطئون رءوسهم أدبا وحياء. ولما وقع من بعضهم ما وقع أنزل الله عليه تأديبا للأمة كلها ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾

[الحجرات: ١ - ٥]

(٦) الشوق إلى لقائه ﷺ:

واشوقاه إلى لقاء الحبيب المصطفى ﷺ يقظه أو مناما فى الدنيا وفى الآخرة. فهو الحبيب المحبوب ذاتا وصفاتا. جسدا وروحا. حقيقة ومعنى. اللهم اجمعنا به فى الدارين. ومتعنا برؤيته فى الحياتين وامددنا بمدده. ورطب ألسنتنا بذكره. ونور قلوبنا بمحبته واشرح صدورنا بسنته. واملأ علينا حياتنا بأنواره. وكن اللهم لنا عونا معينا وهاديا لنا بالحق ونصيرا.

قال معروف الكرخى رحمه الله تعالى: المحبّة ارتياح الذات لمشاهدة الصفات أو مشاهدة أسرار الصفات. فيرى بلوغ السؤل ولو بمشاهدة الرسول. و لهذا كانت الصحابة رضى الله عنهم إذا اشتد بهم الشوق وأزعجتهم لواعج المحبة

قصدوا رسول الله ﷺ واشتفوا بمشاهدته. وتلذذوا بالجلوس معه والنظر اليه والتبرك به ﷺ. أ.هـ فهنيئا لهم لقد نالوا الشرف العظيم فى حضرته وحصلوا الخير الكثير فى معيته. شاهدوا أنواره وعرفوا صفاته وأحوالهم وتلذذوا بطاعته وعبادة ربهم عز وجل فى مجمع أنواره وشنفوا أسماعهم بسماع طيب كلامه وأحكامه فنالوا سعادتي الدنيا والآخرة حتى قال الله له: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ..** ﴾ وقال له ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ وقال له ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ** ﴾ [الآيات من سورة الفتح].

عن عبدة بنت خالد بن معدان. قالت: ما كان خالد يأوى إلى فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى الصحابة من المهاجرين والأنصار يسميهم. ويقول: هم أصلى وفصلى. وإليهم يحن قلبى. طال شوقى إليهم. فعجل رب قبضى إليك. حتى يغلبه النوم.

ولما احتضر سيدنا بلال مؤذن رسول الله ﷺ قالت امرأته واحَرَباه. فقال: واطرباه. غدا ألقى الأحبة محمدا وصحبه. رضى الله عنه وعن زيد بن أسلم قال: خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليلة يحرس فرأى مصباحا فى بيت. فإذا عجوز تنفش صوفا وتقول: .

على محمد صلاة الأبرار صلى عليه الطيبون الأخيار

قد كنت قواما بكاء بالأسحار ياليت شعرى والمنايا أطوار

هل تجمعنى وحبيبى الدار

تعنى: النبى ﷺ، فجلس عمر يبكى. ثم قام إلى باب خيمتها فقال: السلام عليكم. ثلاث مرات. فقال لها: أعيدى علىَّ قولك. فأعادته بصوت حزين. فبكى. وقال لها: وعمر لا تنسينه يرحمك الله.

فقالت : وعمر فاغفرله يا غفار .

ويحكى أن امرأة كانت مسرفة على نفسها . رؤيت بعد موتها . فقيل لها : ما فعل الله بك؟ قالت : غفر لى . قيل : بماذا؟ قالت : بمحبتى للنبى ﷺ وشهوتى النظر إليه . فنوديت : من اشتهى النظر الى حبيبنا فنستحى أن نذله بعتابنا . بل نجمع بينه وبين من يحبه . أ.هـ سبحانك يارب ما أكرمك . لقد وسعت هذه المرأة بفضل منك ورحمة فعفوت عنها لما ابصرتها صادقة فى حبها وشوقها لحبيبك المصطفى ﷺ لما له عندك من عظيم القدر ورفع المكانة وعلو المنزلة .

(٧) حب القرآن :

قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [المائدة: ٨٣] .

وروى البخارى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) .

ورحم الله من قال :

إن كنت تزعم حبى ... فلم هجرت كتابى

أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابى

وقال سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه : (لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله) .

وروى البخارى : قال النبى ﷺ لعبد الله بن مسعود : (أقرأ على) قال : أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال : (إنى أحب أن أسمعه من غيرى) .

فاستفتح وقرأ سورة النساء حتى بلغ : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ [الآية : ٤١] .

قال : (حسبك) فرفع رأسه . فإذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان من البكاء .

وقد كان ابن عمر رضى الله عنهما : ربما مر بآية فى ورده فتخنقه العبرة

ويسقط ويلزم البيت اليوم واليومين. حتى يعاد ويحسب مريضا وكذلك كان أبوه عمر رضى الله عنهما.

وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى الأشعرى. وكان صوته حسنا. يقولون له: يا أبا موسى ذكرنا ربنا. فيقرأ وهم يسمعون.

وقال السهر وردى فى عوارف المعارف: كلام طيب. منه:

هذا السماع هو السماع الحق. الذى لا يختلف فيه إثنان من أهل الإيمان محكوم لصاحبه بالهداية. وهذا سماع ترد حرارته على برد اليقين. فتفيض العين بالدمع. لأنه تارة يثير حزنا. والحزن حار. وتارة يثير شوقا. والشوق حار. وتارة يورث ندما. والندم حار. فإذا أثار السماع هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين. بكى وأبكى. لأن الحرارة والبرودة إذا اضطربتا عصرتا ماء. فإذا ألم الماء بالقلب تارة يخف إلمامه فيظهر أثره فى الجسد ويقشعر منه الجلد قال الله تعالى: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر: ٢٣] وتارة يعظم و قعه ويتصوب أثره - أى يقصد - نحو الدماغ فتندفق منه العين بالدمع. وتارة يتصوب أثره إلى الروح. فتموج منه الروح موجا ويكاد يضيق عنه نطاق القالب فيكون من ذلك الصياح والاضطراب. وهذه كلها أحوال يجدها أربابها من أصحاب الأحوال. أ.هـ.

فحب القرآن تلاوة أو سماعا من أمارات حبه ﷺ يقول سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله تعالى: (من علامات حب الله حب القرآن ومن علامات حب القرآن. حب رسول الله ﷺ و من علامات حب الرسول. حب السنة. ومن علامات حب السنة حب الآخرة وترك زينة الحياة الدنيا).

اللهم اجعلنا من الذين يتلونه فيفهمونه ويعملون به واجعله يارب شاهدا لنا لا علينا.

(٨) حب السنة:

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[النساء: ١١٣].

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه [١]: سمعت من أرضى من أهل العلم يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ .أ.هـ

والسنة تطلق ويراد بها الشريعة. و تطلق ويراد بها: كل ماورد عن رسول الله ﷺ من أقواله وأفعاله وصفاته وتقريراته وحب السنة من علامات محبته ﷺ وقراءة حديثه تلذذ بذكر كلامه وأحواله وأفعاله. فإن من دخلت حلاوة الإيمان في قلبه إذا سمع كلمة من كلام الله تعالى أو من حديث رسول الله ﷺ تشربتها روحه وقلبه ونفسه. فتعمه تلك الكلمة وتشمله. فتصير كل شعرة منه سمعا. وكل ذرة منه بصرا. فيسمع الكل بالكل ويبصر الكل بالكل. ويقول:

لى حبيب خياله نصب عيني ... سره في ضمائرى مدفون
إن تذكرته فكلى قلوب ... أو تأملته فكلى عيون

فحينئذ يستنير قلبه. ويشرق سره. وتتلاطم عليه أمواج التحقيق عند ظهور البراهين. ويرتوى برى عطف محبوبه. الذى لاشىء أروى لقلبه من عطفه عليه. ولا شيء أشد للهيبه وحريقه من إعراضه عنه. ولهذا كان عذاب أهل النار باحتجاب ربهم عنهم أشد عليهم من العذاب الجسماني. كما أن نعيم أهل الجنة برؤيته تعالى وسماع خطابه ورضاه أعظم من النعيم الجسماني. لا حرمنا الله ذوق حلاوة هذا المشرب. كما قال الإمام القسطلاني في المواهب.

إن حب السنة يظهر أثره في: طاعة الرسول ﷺ والعمل بشريعته وعدم خيانته. قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٧] فمن لم يلتزم بأحكام الشريعة فهو خائن لله ورسوله. ومن اتبع هواه وأتى بالباطل من المبتدعة ودعاة الغفلة فهو خائن لله ورسوله. ومن أفتى بغير علم. أو كان عنده علم ولكنه مال وانحرف بالفتوى لتحقيق كسب مادى أو معنوى أو مجامل لمن يستفتيه فهو خائن لله ورسوله قال

---

(١) الرسالة: ٤٤.

الله تعالى : ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور : ٦٣].

وروى فى الصحيح أن النبى ﷺ قال : (من كذب علىَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) .

وكل من عرف الحق وزاغ عنه فهو خائن لله ورسوله لأن الحق أحق أن يتبع .

فهؤلاء وأمثالهم لايحبون السنة ولا يعرفون قدرها ومكانتها وإن زعموا محبتها فهم منافقون لأنهم يقولون مالايفعلون ﴿ **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴾ .

فالحب ليس كلاما يقال أو شعار يرفع . وإنما الحب معنى كامن فى قلب العبد الصادق فى إيمانه . يدفعه إلى قول الصدق والتزام الحق والعمل بأحكام الله تعالى وشرعه . فهذا هو العبد المحب للسنة الراعى لها . المؤمن بيقين بالله ورسوله فحمله إيمانه على طاعة الله ورسوله ومحبة الله ورسوله .

أما هؤلاء الأدعياء فهم خبثاء بضاعتهم الكلام وحجتهم الصياح والعويل . إنهم أهل الغفلة وعلماء الدنيا التى انبهروا بزينتها فنافقوا وأضلوا . وفرحوا بلهوهم وعبثهم فهؤلاء لاخلاق لهم عند ربهم لأنهم لم يحافظوا على خلافتهم لنبيهم ولم يحافظوا على دينهم وشعائرهم هدانا الله وإياهم الصراط المستقيم وأشرب قلوبنا وإياهم محبة سيد المرسلين وعفا الله عنا وعنهم الزلات وتحمل عنا وعنهم التبعات .

(د) (زيارة النبى ﷺ)

* (الأحاديث الواردة نصا فى الزيارة) :

(١) روى الدارقطنى والبيهقى وغيرهما : عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من زار قبرى وجبت له شفاعتى » وقال الذهبى : طرق هذا الحديث كلها لينة يقوى بعضها بعضا . لأنه ما فى رواتها

متهم بالكذب . قال : ومن أجودها إسناداً حديث حاطب « من رآنى بعد موتى فكأنما رآنى فى حياتى » أخرجه ابن عساكر وغيره . انتهى .

وقال السمهورى[1] : ومعنى قوله « وجبت » أنها ثابتة لابد منها بالوعد الصادق . وقوله « له » إما أن يراد بخصوصه فيخص الزائر بشفاعة لا تحصل لغيره . وإما أن يراد أنه تفرد بشفاعة مما تحصل لغيره . والإفراد للتشريف والتنويه بسبب الزيارة . وإما أن يراد أنه بعدم تركه الزيارة يجب دخوله فيمن تناله الشفاعة . فهو بشرى بموته مسلما فيجرى على عمومه . ولا يضم فيه شرط الوفاة على الإسلام . بخلافه على الأولين . وقوله « شفاعتى » فى هذه الإضافة تشريف فإن الملائكة والأنبياء والمؤمنين يشفعون . والزائر له نسبة خاصة فيشفع هو فيه بنفسه . والشفاعة تعظم بعظم الشافع . أ . هـ.

(٢) روى البزار من طريق عبد الله بن ابراهيم الغفارى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال :

« من زار قبرى حلت له شفاعتى »

وهذا الحديث يقوى الأول كما قال الإمام السبكى .

(٣) روى الطبرانى فى الكبير والأوسط . والدار قطنى فى آماليه . وأبو بكر ابن المقرئ فى معجمه من رواية مسلمة بن سالم الجهنى قال : حدثنى عبيد الله ابن عمر عن نافع عن سالم عن ابن عمر رضى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من جاءنى زائرا لا تحمله حاجة إلا زيارتى كان حقا علىَّ أن أكون له شفيعا يوم القيامة » .

وفى رواية ابن المقرىء فى المعجم : « من جاءنى زائرا كان له حقا على الله عز وجل أن أكون له شفيعا يوم القيامة »

وأورده الحافظ ابن السكن فى كتابه « السنن الصحاح » ومقتضى ما شرطه

---

(١) وفاء الوفا ٤ /١٣٣٨ .

فى خطبته أن يكون هذا الحديث مما أجمع على صحته ولهذا نقل عن الحافظ زين الدين العراقى أنه صححه .

(٤) روى الدار قطنى والطبرانى فى الكبير والأوسط وغيرهما من طريق حفص بن داود القارى عن ليث عن مجاهد عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من حج فزار قبرى بعد وفاتى كان كمن زارنى فى حياتى » .

ورواه ابن الجوزى فى « مثير الغرام الساكن » من طريق الحسن بن الطيب عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من حج فزار قبرى بعد موتى كان كمن زارنى فى حياتى وصحبنى » .

وقوله « وصحبنى » فهذه الزيادة أنكرها ابن عساكر وغيره .

(٥) روى ابن عدى فى الكامل بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من حج البيت ولم يزرنى فقد جفانى » .

(٦) روى الدارقطنى فى السنن فى الكلام على حديث ابن عمر رضى الله عنهما « من استطاع أن يموت فى المدينة فليفعل » من طريق موسى بن هارون عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من زارنى إلى المدينة كنت له شهيدا وشفيعا » .

(٧) روى أبو داود الطيالسى قال : حدثنا سوار بن ميمون قال : حدثنى رجل من آل عمر . عن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من زار قبرى – أو قال : من زارنى – كنت له شفيعا أو شهيداً . ومن مات فى أحد الحرمين بعثه الله عز وجل فى الآمنين يوم القيامة »

(٨) روى أبو جعفر العقيلى من رواية سوار بن ميمون عن رجل من آل عمر عن النبى ﷺ قال : « من زارنى متعمدا كان فى جوارى يوم القيامة . ومن مات فى أحد الحرمين بعثه الله فى الآمنين يوم القيامة » .

(٩) روى الدار قطنى وغيره من طريق هارون بن قزعة عن رجل من آل

حاطب عن حاطب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي. ومن مات بأحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة».

(١٠) روى أبو الفتح الأزدي في الثاني من فوائده عن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من حج حجة الإسلام. وزار قبري. وغزا غزوة. وصلى في بيت المقدس. لم يسأله الله عز وجل فيما افترض عليه».

(١١) روى أبو الفتوح سعيد بن محمد اليعقوبي في جزئه: عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من زارني بعد موتي. فكأنما زارني وأنا حي. ومن زارني كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة».

(١٢) روى ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك رضى الله عنه:

أن رسول الله ﷺ قال: «من زارني بالمدينة كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة».

وفي رواية: «كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة».

ورواه البيهقي بهذا الطريق. ولفظه: «من مات في أحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة. ومن زارني محتسبا إلى المدينة كان في جواري يوم القيامة».

(١٣) روى ابن النجار في أخبار المدينة له. عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني ميتا فكأنما زارني حيا. ومن زار قبري وجبت له شفاعتي يوم القيامة. وما من أحد من أمتي له سَعَة ثم لم يزرني فليس له عذر».

(١٤) روى أبو جعفر العقيلي في الضعفاء: عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني في مماتي كان كمن زارني في حياتي. ومن زارني حتى ينتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة شهيدا أو قال شفيعا» وذكره ابن

عساكر من جهته بإسناده إلا أنه قال : « من رآنى فى المنام كان كمن رآنى فى حياتى » والباقى سواء .

(١٥) روى بعض الحفاظ فى زمن ابن مَنْده عن محمد بن عمر بن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من حج إلى مكة ثم قصدنى فى مسجدى كتبت له حجتان مبرورتان » وهو فى مسند الفردوس ولم يذكره السبكى كما قال السمهورى .

(١٦) روى يحيى بن الحسن بن جعفر الحسينى فى أخبار المدينة له . عن محمد بن على عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من زار قبرى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى . ومن لم يزرنى فقد جفانى » .

وقد رواه أيضا بنفس اللفظ أبو سعيد عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابورى الجركوسى فى شرف المصطفى ﷺ .

وقد روى حديث على رضى الله عنه هذا من طرق أخرى ليس فيها تصريح بالرفع ذكرها ابن عساكر . عن على رضى الله عنه قال : « من سأل لرسول الله ﷺ الدرجة والوسيلة حلت له شفاعته يوم القيامة . ومن زار قبر رسول الله ﷺ كان فى جوار رسول الله ﷺ » .

قال السمهورى : وقد رأيت فى نسخة من كتاب يحيى رواية ابنه طاهر يحيى عنه عقب حديث على المتقدم : أن ابن مسعود رضى الله عنه روى مثله .

(١٧) روى يحيى أيضا عن بكر بن عبد الله رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من آتى المدينة زائرا لى وجبت له شفاعتى يوم القيامة . ومن مات فى أحد الحرمين بعث آمنا » .

* الأحاديث الواردة فى الزيارة وإن لم تتضمن لفظ الزيارة وهى تؤكد وتثبت الأحاديث الواردة فى الفصل الأول :

(١) روى أبو داود بسند صحيح – كما قال السبكى – عن أبى هريرة

رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام » .

وقد صدر به البيهقى باب زيارة قبر النبى ﷺ واعتمد عليه جماعة من الأئمة منهم الإمام أحمد بن حنبل .

قال الإمام السبكى : وهو اعتماد صحيح . لتضمنه فضيلة رد النبى ﷺ . وهى عظيمة .

وقال السمهورى [1] : وذكر ابن قدامة الحديث من رواية أحمد بلفظ « ما من أحد يسلم علىَّ عند قبرى » . فإن ثبت فهو صريح فى تخصيص هذه الفضيلة بالمسلم عند القبر . وإلا فالمسلم عند القبر امتاز بالمواجهة بالخطاب ابتداء وجوابا . ففيه فضيلة زائدة على الرد على الغائب . مع أن السلام عليه ﷺ على نوعين :

الأول : ما يقصد الدعاء منا بالتسليم عليه من الله . سواء كان بلفظ الغيبة أو الحضور . كقولنا : ﷺ . والصلاة والسلام عليك يا رسول الله . سواء كان من الغائب عنه أو الحاضر عنده . وهذا هو الذى قيل باختصاصه به ﷺ عن الأمة حتى لا يسلم على غيره من الأمة إلا تبعا . كالصلاة عليه . فلا يقال : فلان عليه السلام .

الثانى : ما يقصد به التحية . كسلام الزائر إذا وصل إلى قبره . وهو غير مختص بل يعم الأمة . وهو مبتدع للرد على المسلم بنفسه أو برسوله فيحصل ذلك منه عليه السلام .

وأما الأول . فالله أعلم . فإن ثبت امتاز الثانى بالقرب والخطاب وإلا فقد حَرمَ مَنْ لم يزر هذه الفضيلة . وهو مقتضى ما فسر به الحديث الإمام الجليل أبو عبد الرحمن عبد الله بن زيد المقبرى أحد أكابر شيوخ البخارى . حيث قال فى قوله « ما من أحد يسلم علىَّ . . الحديث » . . هذا فى الزيارة إذا زارنى فسلم علىَّ رد

---

(١) وفاء الوفا ٤ / ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ .

الله عليَّ روحى حتى أرد عليه. وأما حديث «أتانى ملك فقال يا محمد أما يرضيك أن لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرا أولا يسلم عليك إلا سلمت عليه عشرا فالظاهر أنه فى السلام بالنوع الأول. أ. هـ.

(٢) روى النسائى واسماعيل القاضى بسند صحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعا «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى من أمتى السلام» وروى جماعة عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا من طريق السدى الصغير «من صلى علَّى عند قبرى سمعته. ومن صلى عليّ نائيا بلغته».

وروى مثلة عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ عند قبرى رددت عليه. ومن صلى عليّ فى مكان آخر بلغونيه».

(٣) روى عبد الحق فى الأحكام الصغرى. وقال: إسناده صحيح: عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال: «مامن أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فيسلم عليه إلا عرفه. ورد عليه السلام».

ورواه ابن عبد البر وصححه كما نقله ابن تيمية لكن بلفظ: «مامن رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفة فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام.

وروى عبد الحق فى كتاب العاقبة عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مامن رجل يزور قبر أخيه فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم».

(٤) والآثار فى هذا المغنى كثيرة ولقد ثبت أن الشهداء وكل المؤمنين إذا زارهم المسلم وسلم عليهم عرفوه وردوا عليه السلام. فإذا كان هذا فى آحاد المؤمنين فكيف بسيد المرسلين ﷺ روى البارزى عن سليمان بن سحيم قال: رأيت النبى ﷺ فى النوم فقلت: يارسول الله هؤلاء الذين يأتونك فيسلمون عليك أتفقه سلامهم؟ قال: وأرد عليهم.

وروى ابن النجار عن ابراهيم بن بشار قال: حججت فى بعض السنين

فجئت المدينة فتقدمت إلى قبر رسول الله ﷺ فسلمت عليه . فسمعت من داخل الحجرة : وعليك السلام .

وقد نقل مثل هذا كثيرا عن جماعة من العلماء والأولياء والصالحين ومنه ماوقع للسيد احمد الرفاعي رضي الله عنه .

فقد روى أنه وقف أمام القبر الشريف وأنشد :

في حال البعد روحي كنت أرسلها   تقبل الأرض عني وهي نائبتي
وهذى دولة الأشباح قد حضرت   فامدد يمينك تحظى بها شفتي

فخرجت اليد الشريفة فقبلها الإمام الرفاعي رضي الله عنه وقال يحيى : حدثنا هروف بن الملك بن الماجشون . أن خالد بن الوليد بن الحارث بن الحكم ابن العاص وهو ابن مطيرة . قام على منبر رسول الله ﷺ يوم جمعة فقال : لقد استعمل رسول الله ﷺ على بن أبي طالب (رضى الله عنه) وهو يعلم أنه خائن . ولكن شفعت له ابنته فاطمة رضى الله عنها . وداود بن قيس في الروضة . فقام فقال : أس أى يسكته . قال : فمزق الناس قميصا كان عليه شقائق حتى وتروه . وأجلسوه حذرا عليه منه .

وقال : رأيت كفا خرجت من القبر قبر رسول الله ﷺ وهو يقول « كذبت ياعدو الله . كذبت ياكافر . مرارا » .

وقصة سفر بلال رضى الله عنه من الشام إلى المدينة لزيارة رسول الله ﷺ في قبره مشهورة . وكان لها أثر كبير على جميع أهل المدينة ولما صالح عمر بن الخطاب رضى الله عنه أهل بيت المقدس وقدم عليه كعب الأحبار وأسلم ففرح عمر بإسلامه وقال له : هل لك أن تسير معي إلى المدينة وتزور قبر النبي ﷺ وتتمتع بزيارته . فقال : نعم ياأمير المؤمنين . أنا أفعل ذلك .

ولما قدم عمر المدينة كان أول مابدأ بالمسجد وسلم على رسول الله ﷺ .

وكان ابن عمر رضى الله عنهما يدخل ويسلم على النبي ﷺ وعلى أبي بكر وعلى أبيه .

وكان عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه كان يرسل البريد بالسلام على رسول الله ﷺ .

هذا ومازال قبر المصطفى ﷺ يزوره المسلمون منذ عصر الصحابة إلى يومنا هـــذا . ولـم ينـازع فـى ذلك أحـد إلا كل جـاهل أو حـاقـد أو مـسـتـهين بمكانة النبى ﷺ .

* حكم الزيارة وبيان مشروعيتها

إن زيارة رسـول الله ﷺ أمـر أجـمع عليـه العلمـاء والأئـمـة دل على ذلك : الكتاب والسنة والإجماع والقياس .

أمـا الكتـاب : فـقـول الله تعـالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** ﴾ .

والعلماء فهموا من الآية العموم لحالتى الموت والحياة . و استحبوا لمن أتى القبر الشريف أن يتلوها ويستغفر الله تعالى .

وحكاية الأعرابي فى ذلك نقلها جماعة من الأئمة عن العتبى رحمه الله وهى مشهورة حكاها المصنفون فى المناسك من جميع المذاهب واستحسنوها ورأوها من أدب الزائر وذكرها ابن عساكر فى تاريخه وابن الجوزى فى مثير الغرام الساكن وغيرهما بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالى قال :

دخلت المدينة فأتيت قبر النبى ﷺ فزرته وجلست بحذائه فجاء أعرابى فزاره . ثم قال : ياخير الرسل إن الله أنزل عليك كتابا صادقا قال فيه (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم . . الآية) وإنى جئتك مستغفرا ربك من ذنوبى مستشفعا بك – وفى رواية – وقد جئتك مستغفرا من ذنبى مستشفعا بك إلى ربى . ثم بكى وأنشأ يقول :

ياخير من دفنت بالبقاع أعظمه	فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه	فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم استغفر وانصرف . قال : فرقدت فرأيت النبى ﷺ فى نومى . وهو يقول : الحق الرجل وبشره بأن الله غفر له بشفاعتى . فاستيقظت فخرجت أطلبه فلم أجده .

وأما السنة فقد سبق ذكر الأحاديث الواردة فى الزيارة .

وقد جاء فى السنة الصحيحة المتفق عليها الأمر بزيارة القبور . وقبر النبى ﷺ سيد القبور وداخل فى عموم ذلك .

وأما الإجماع فقد قال القاضى عياض فى الشفا : زيارة قبره ﷺ سنة بين جميع المسلمين مجمع عليها . وفضيلة مرغب فيها .

وأما القياس : قد ثبت أنه ﷺ كان يزور أهل البقيع وشهداء أحد . وإذا استحب زيارة قبر غيره فزيارة قبره ﷺ أولى . لما له من الحق ووجوب التعظيم . وليست زيارته إلا لتعظيمه والتبرك به . ولتنالنا الرحمة بصلاتنا وسلامنا عليه عند قبره بحضرة الملائكة الحافين به وذلك من الدعاء المشروع له ﷺ وقد أجمع علماء المذاهب الفقهية من كافة الاتجاهات على مشروعية الزيارة وأنها سنة واجبة يقوم بأدائها الحاج والمعتمر وغيرهما . ويجوز السفر قصدا للزيارة ولم ينازع فى هذا إلا الشيخ ابن تيميه وأتباعه .

وقد عقد الفقهاء جميعا فى كتاب الحج بابا حرروا فيه فضل الزيارة الشريفة يقول السادة الحنفية : زيارته ﷺ من أفضل المندوبات والمستحبات بل تقرب من الواجبات . وبهذا قال السادة الشافعية أيضا وقال القاضى ابن كج من الشافعية : إذا نذر أن يزور قبر النبى ﷺ . فعندى أنه يلزمه الوفاء وجها واحدا . وإذا نذر أن يزور قبر غيره ففيه وجهان . والقطع به هو الحق . لأنه قربة مقصودة للأدلة الخاصة فيه . وقد وجب من جنس ذلك الهجرة إليه فى حياته ﷺ ويرى السادة المالكية : أن زيارته سنة واجبة .

وهى سنة مستحبة عند الحنابلة أيضا . قال ابن قدامة فى المغنى : ويستحب

زيارة قبر النبى ﷺ لما روى الدارقطنى بإسناده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « من حج فزار قبرى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى » ثم أورد بعض أحاديث الباب[1] أ.هـ.

وقال الإمام الغزالى رحمه الله تعالى : كل من يتبرك بمشاهدته فى حياته يتبرك بزيارته بعد موته . ويجوز شد الرحال لهذا الغرض .

فزيارة رسول الله ﷺ فى حياته وبعد انتقاله للرفيق الأعلى سنة واجبة عند البعض وسنة مؤكدة عند الشافعية يقوم بها المسلم سواء كان بأرض الحجاز أم سافر من بلده بقصد الزيارة . ولا ينازع فى هذا إلا جاهل أو معاند ممن يتمسكون بحديث النهى عن شد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة .

إن الحديث المذكور لاينهى عن شد الرحال إلى زيارة المقابر هذا أولا . وثانيا . إذا كان الحديث يوجهنا لشد الرحال إلى المساجد الثلاثة ومنها مسجد رسول الله ﷺ . فهل يتصور مسلم عاقل أن ينهى عن شد الرحال لزيارة القبر الشريف . ويجوز شد الرحل لزيارة المسجد وما نال المسجد هذا الشرف إلا برسول الله ﷺ فأى عاقل يرفع قدر المفضول فى وجود الفاضل؟

فلنتق الله عز وجل ورسول الله ﷺ صاحب الشرف الرفيع والقدر العالى . حبيب رب العالمين . إمام الأنبياء وخاتم المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه وسلم .

* التوسل برسول الله ﷺ

التوسل إلى الله تعالى والاستغاثة والتشفع بالنبى ﷺ وبسائر إخوانه من الأنبياء وكذا بأتباعه من المؤمنين الصالحين . أمر جائز ومشروع ومعروف من فعل الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ومن فعل الصحابة والتابعين والعلماء وعموم المسلمين شرقا وغربا ولم ينكر ذلك أحد من السابقين . اللهم إلا ماوقع من

---

(١) راجع تفصيل هذه المسألة فى كتابنا « قضايا إسلامية معاصرة » ط . أخبار اليوم .

بعض المسلمين الذين أنكروا صحة هذا الفعل وردوا ما صح من مرويات. وتجرأوا في الحكم عليها بالوضع والبطلان. واتهموا كل من قال بجواز التوسل برسول الله ﷺ وبسائر الأنبياء والملائكة وبالصالحين من المؤمنين بالشرك والضلال. وحكموا على المسلمين بما حكم الله به على الكافرين والمشركين. مستخدمين لغة الاستهزاء والسخرية بعباد الله تعالى. وجرحوا كثيرا من الرواة الثقات وأطلقوا عليهم أوصافا لا تليق بقدرهم وحسبوا أنفسهم ورثة النبوة وأئمة الإسلام وأباحوا لأنفسهم حق التفتيش فى قلوب عباد الله تعالى. وحكموا على إيمان الناس. وقد أحلوا أنفسهم بذلك محل علم الله تعالى وهم واهمون ومترددون. ويسود مقولتهم التعارض والتضاد والتردد وضعف الثقة. وليس أدل على ذلك مما نقرأه من مقولات للشيخ ابن تيمية فى كتابة قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة الذى تناقض مقدمته موضوعاته. وتتعارض فيه النصوص ويظهر عليه أثر التردد ويكثر فيه استخدام ألفاظ التجريح والمعارضة. ويتعارض فى مجموعه مع بعض فتاوى صادرة له فى هذا الموضوع. فهو مرة مؤيد لصحة القول بالجواز ومرة أخرى معارض ويكثر استخدامه لأسلوب اللف والدوران وليس هذا القول من التجنى عليه فمن أراد الحقيقة فليقرأ هذا الكتاب بتأن وتؤده - وأرجو أن أكون مخطئا فى فهمى - ولكن الحق واحد ولايتعدد. ولا يمكن لعالم أن ينازع جماهير العلماء فى قضية ما. ويكون هو المصيب وهم المخطئون رحمه الله وغفر له.

وأما الذين قد خلفوه واعتنقوا آراءه وتمسكوا بميراثه فياليتهم وقفوا عند هذا الحد ولكنهم زادوا عليه ودسوا عليه أقوالا هو منها برىء فظلموا أنفسهم وظلموا الأمة. فكيف يكون قصد السفر لزيارة الرسول ﷺ سفر معصية ولا يصح قصر الصلاة فيه؟ وكيف لايوفى الناذر بنذره إذا نذر زيارة القبر الشريف؟ وكيف يسمح الشيخ فى معرض كلامه عن زيارة الرسول ﷺ أن يقول إنه ربما يكون الزائر أفضل من المزور فمن من الأمة أفضل من رسول الله ﷺ؟

إن الحى أفضل من الميت مقولة نصرانية وليست مقولة إسلامية كما أن

العصا ليست أنفع للمرء من رسول الله ﷺ بعد وفاته . أى فهم هذا؟ وأى علم هذا الذى تنطق به ألسنة الاتباع والأشياع؟ إنها مقولة الجهلة المكابرين والمعاندين .

وكيف يكون التوسل إلى الله تعالى بنبيه ﷺ إقسام على الله بالمخلوق؟ لقد جوز الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه – الذى رزئ فيهم – الحلف برسول الله ﷺ كما جوز التوسل به فهل يعنى هذا أن احمد بن حنبل يجهل معنى الإقسام على الله بالمخلوق؟ والإمام أحمد رضى الله عنه كان من علماء السنة الكبار ومن الفقهاء الأعلام إن التوسل بالنبى ﷺ وبغيره ليس إقساما على الله تعالى بمخلوق . وإنما هو سؤال الله تعالى برسالة حبيبه وبإيمان اتباعه من الأولياء . سؤال بالجاه . وهو القدر والمنزلة التى استحقوها بوعد ربهم عز وجل جزاء أعمالهم الصالحات . فهو فى الحقيقة توسل إلى الله تعالى بأعمال أحبابه وبدعاء نبيه وبحبه تعالى لهم . وحب الله تعالى لعباده أليس من صفاته عز وجل؟

فإذا جوز الطرف المعاند التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة وبالإيمان به . ألا يجوز لنا أن نقول : إن الأولياء وما عملوا ليسوا إلا عملا من أعمال النبى ﷺ الذى بعثه ربه رحمة للعالمين؟ فلولا النبى ما كان الولى .

إن التوسل إلى الله تعالى والاستغاثة والتشفع بالنبى ﷺ كلها بمعنى واحد . ولا ينازع فى هذا إلا كل مكابر أو معاند أوكل جاهل أو حاقد . . قال الإمام السبكى رحمه الله تعالى : أعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاستغاثة والتشفع بالنبى ﷺ إلى ربه سبحانه وتعالى . وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكل ذى دين . المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين وسير السلف والصالحين والعلماء والعوام من المسلمين .

والتوسل بالنبى ﷺ جائز فى كل حال قبل خلقه وبعده فى مدة حياته فى الدنيا وبعد موته فى مدة البرزخ وبعد البعث فى عرصات القيامة والجنة . وهو على ثلاثة أنواع : أن يتوسل به ﷺ بمعنى أن طالب الحاجة يسأل الله تعالى به أو

بجاهه أو ببركته . فيجوز ذلك فى الأحوال الثلاثة . وقد ورد فى كل منها خبر صحيح .

ولافرق فى المعنى بين أن يعبر عنه بلفظ التوسل أو الاستغاثة أو التشفع . والداعى بذلك متوسل بالنبى ﷺ . لأنه جعله وسيلة لإجابه الله دعاءه ومستغيث به ﷺ . لأنه استغاث الله تعالى به ﷺ على ما يقصده . ومستشفع به ﷺ لأنه سأل بجاهه ﷺ . والمقصود جواز أن يسأل العبد الله تعالى بمن يقطع أن له عند الله تعالى قدرا ومنزلة ومرتبة .

ولاشك أن النبى ﷺ له عند الله تعالى قدر علىّ ومرتبة رفيعة وجاه عظيم . وفى العادة أن من كان له عند الشخص قدر بحيث إنه إذا شفع عنده قبل شفاعته . فإذا انتسب إليه شخص فى غيبته وتوسل بذلك يشفعه به . وإن لم يكن حاضرا ولا شافعا . ويكون ذلك المحبوب أو العظيم سببا للإجابه كما فى الأدعية الصحيحة المأثورة (اسألك بكل اسم لك وأسألك بأسمائك الحسنى . وأسألك بأنك أنت الله . وأعوذ برضاك من سخطك ومعافاتك من عقوبتك وبك منك) وحديث الغار الذى فيه الدعاء بالأعمال الصالحة . وهو من الأحاديث الصحيحة المشهورة .

فالمسئول فى هذه الدعوات كلها . هو الله وحده لاشريك له . والمسئول به مختلف كذا السؤال بالنبى ﷺ ليس سؤ الا للنبى . بل سؤال الله تعالى به ﷺ . وتارة يكون المسئول به أعلى من المسئول كما فى قوله (من سألكم بالله فأعطوه) فالمسئول به هنا هو البارى سبحانه وتعالى . والمسئول هو بعض البشر . وتارة يكون المسئول أعلى من المسئول به كما فى سؤال الله تعالى بالنبى ﷺ . فإنه لاشك أن للنبى ﷺ قدرا عنده تعالى . فمن قال : أسألك بالنبى ﷺ فلاشك فى جوازه . وكذا إذا قال : بحق محمد . والمراد بالحق : الرتبة والمنزلة والحق الذى جعله الله تعالى على الخلق . أو الحق الذى جعله الله بفضله له عليه كما فى الحديث الصحيح الذى قال فيه : (فما حق العباد على الله) وليس المراد بالحق الواجب .

فإنه لايجب على الله تعالى شيء. ثم ذكر أحاديث الشفاعة والتجاء الناس إلى الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم) .

قال : وفى التجاء الناس إلى الأنبياء فى ذلك اليوم أدل دليل على التوسل بهم فى الدنيا والآخرة . وأن كل مذنب يتوسل إلى الله تعالى بمن هو أقرب إليه منه وهذا لم ينكره أحد . ولا فرق أن يسمى ذلك تشفعا أو توسلا أو استغاثة وليس ذلك من باب تقرب المشركين إلى الله تعالى بعبادة غيره فإن ذلك كفر والمسلمون إذا توسلوا بالنبى ﷺ أوبغيره من الأنبياء والصالحين لم يعبدوهم ولا أخرجهم ذلك عن توحيدهم لله تعالى وأنه هو المنفرد بالنفع والضر . وإذا جاز ذلك . جاز قول القائل : أسأل الله تعالى برسوله . لأنه سائل لله تعالى لا لغيره . أ.هـ لخصه النبهانى من كتاب شفاء السقام للسبكى . فراجعه تجد نكتا لطيفة وسئل العلامة شهاب الدين الرملى الشافعى رحمه الله تعالى عما يقع من العامة من قولهم عند الشدائد : ياشيخ فلان ونحو ذلك فأجاب (بأن الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام والأولياء والعلماء والصالحين جائزة . ثم قال : وللرسل والأنبياء والأولياء إغاثة بعد موتهم . لأن معجزة الأنبياء وكرامة الأولياء لا تنقطع بعد موتهم . أما الأنبياء فإنهم أحياء فى قبورهم يصلون ويحجون كما وردت به الأخبار فتكون الإغاثة منهم معجزة لهم . والشهداء أيضا أحياء . شوهدوا نهارا جهارا يقاتلون الكفار، وأما الأولياء فهى كرامة لهم) وأقول : إن التوسل بالنبى ﷺ وبسائر الأنبياء والمرسلين وبالصالحين من عباد الله تعالى : أمر جائز ورد فى إثبات جوازه نصوص صريحة وأحاديث صحيحة وفتاوى لأئمة السلف والخلف تضمنتها مصنفات ومؤلفات للعديد من الأئمة والعلماء . وقد وفيت هذا الموضوع كاملا فى كتابى « قضايا إسلامية معاصرة » .

وكلمة أخيرة لأولئك الذين كَفَّرُوا المسلمين بأسباب التوسل والاستغاثة بسيد الأنام سيدنا محمد ﷺ وبالأولياء وبالصالحين . أضع بين أيديهم قول أحد العلماء لعلهم يثوبوا إلى رشدهم :

قال العلامة : أبو بكر الباقلانى رحمه الله تعالى : (إن إدخال ألف كافر الإسلام بشبهة إسلام واحدة أسلم من تكفير مسلم واحد بألف شبهة) .

فانظر يا أخى إلى عظيم خطر التكفير وتعظيم العلماء للمسلم وورعهم عن الوقوع فى هذا المنزلق الخطير . لأن من سمح لنفسه أن يحكم بالكفر على أى مسلم هو فى الحقيقة لا يستطيع تقييم إيمان نفسه ولايقدر على التعرف على قدر إيمانه بربه . فكيف ينصب نفسه مدعيا وقاضيا فى قضية ليست من مهامه واختصاصه (اللهم ثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة واجعلنا من الراشدين) .

* مشروعية الصلاة على النبى ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ** ﴾ [الأحزاب : ٤٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

وأخرج ابن حبان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (من ذكرت عنده فلم يصل علىَّ فمات فدخل النار فأبعده الله) .

وروى الترمذى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (رغم أنف من ذكرت عنده فلم يصل علىَّ) ورواه الحاكم وصححه .

وروى الطبرانى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : (شقى عبد ذكرت عنده فلم يصل علىَّ) .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وأحمد عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول . ثم صلوا علىَّ . فإنه من صلّى علىّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا . ثم سلوا الله لى الوسيلة . فإنها منزلة فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو . فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة) .

إن الصلاة على رسول الله ﷺ من المسلمين قربى وزلفى إلى الله تعالى. يثاب عليها المصلى بالجزاء الأوفى لأنها قضاء حق النبى علينا إن الله تعالى صلى عليه أزلا أى قبل أن يخلقه والملائكة يصلون عليه منذ أن كلفهم الله بذلك وكذلك أمته ﷺ.

وقد قال العلماء أقوالا كثيرة فى المعنى المراد من (إن الله وملائكته يصلون على النبى) وأولى هذه الأقوال وأرجحها كما اختار ابن حجر فى فتح البارى موافقا على رأى أبى العالية: أن معنى صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه عند الملائكة. ومعنى صلاة الملائكة عليه الدعاء.

يقول ابن حجر: وهذا أولى الأقوال. فيكون معنى صلاة الله تعالى عليه. ثناؤه عليه وتعظيمه. وصلاة الملائكة وغيرهم طلب ذلك له من الله تعالى. والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة أ.هـ.

وحكى القاضى عياض عن بكر القشيرى أنه قال: الصلاة على النبى ﷺ من الله تشريف وزيادة تكرمة. وعلى من دون النبى رحمة. وبهذا يظهر الفرق بين النبى ﷺ وبين سائر المؤمنين.

وقال الحليمى فى شعب الإيمان: معنى الصلاة على النبى ﷺ. تعظيمه. وأرجح الآراء وأقواها حجة هو رأى أبى العالية رحمه الله تعالى وقد اختلفت الآراء فى حكم الصلاة عليه ﷺ. وخلاصة أقوال العلماء أنها: فرض وسنة.

فتكون واجبة فرضا فى حالتين: الأولى: تجب فى العمر مرة وهذا أقل ما يمكن.

والثانية: تجب عند ذكره ﷺ باسمه أو صفته.

وتسن فيما عدا ذلك. فإنه يستحب للمسلم أن يكثر منها امتثالا لأمر الله تعالى وتقربا إلى الله وقضاء لحق رسول الله ﷺ على أمته.

وقد أوجبها الشافعية والإمام أحمد فى التشهد الأخير من الصلاة. فمن لم

يصل على النبي ﷺ في التشهد الأخير فصلاته باطلة . كما أنها ركن من أركان خطبتي الجمعة والعيدين .

وقال الزمخشري تجب في كل مجلس مرة . وأوجبها أيضا محمد الباقر رضي الله عنه في الصلاة من غير تعيين محل .

قال الإمام الشافعي في الأم : فرض الله الصلاة على رسول الله ﷺ بقوله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ ولم يكن فرض الصلاة عليه في موضع أولى منه في الصلاة .

ثم قال : فلما روى أن النبي ﷺ كان يعلمهم التشهد في الصلاة وروى أنه علمهم كيف يصلون عليه في الصلاة . لم يجز أن نقول : التشهد في الصلاة واجب . والصلاة فيه غير واجبة أ . هـ .

وقد رد بعض العلماء وخاصة المالكية ومنهم القاضي عياض قول الشافعي رضي الله عنه . وعابوا عليه هذا الرأي .

وقد انتصر جماعة كثيرة من العلماء للإمام الشافعي رضي الله عنه منهم : ابن كثير وابن القيم وابن حجر والحافظ السخاوي والعلامة أبي أمامة بن النقاش وغيرهم كثير . واستدلوا بأدلة نقلية ونظرية على صحة رأي الشافعي رضي الله عنه فنقلوا القول بالوجوب عن جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود وأبو مسعود البدري وجابر بن عبد الله . ونقله أصحاب الشافعي عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله ومن التابعين : الشعبي فيما رواه البيهقي وأبو جعفر الباقر ومقاتل وأوجب الصلاة على آل النبي ﷺ في الصلاة عليه وعليهم وبعض علماء الشافعية منهم : البندنيجي والدارمي . وإمام الحرمين والغزالي نقلاه قولا عن الشافعي وقال الحافظ ابن كثير : والصحيح أنه وجه . على أن الجمهور على خلافه والقول بوجوبه ظهور للحديث . ولم يخالف من علماء الشافعية أحد إلا الخطابي رحمه الله تعالى اللهم وفقنا للصلاة والتسليم عليه ﷺ صلاة وسلاما ترضيك وترضيه وترضى بها عنا يا الله يارب العالمين . وفي هذا القدر كفاية لمن أحب الله ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

خاتمة المطاف
العلماء ورثة الأنبياء

قال الله تعالى: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران: ١٨].

لقد بدأ الله تعالى بنفسه. وثنى بالملائكة. وثلث بأهل العلم. وناهيك به شرفا وفضلا وجلاء ونبلا.

وقال عز وجل: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾

[المجادلة: ١١]

قال ابن عباس رضى الله عنهما: للعلماء درجات فوق درجات المؤمنين بسبعمائة درجة مابين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام.

وقال الله عز وجل ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾

[الزمر: ٩]

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر: ٢٨].

فالعلماء بالله تعالى هم أكثر الناس له خشية وأشدهم منه خوفا. فالعبد يخشى ربه على قدر علمه به سبحانه وتعالى.

وقال عز وجل: ﴿ **قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** ﴾ [الرعد: ٤٣].

أى شرف للعلماء بعد هذا الشرف العظيم؟

وقال تعالى: ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ [النساء: ٨٣] فقد رد حكمه فى الوقائع إلى استنباطهم وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء فى كشف حكم الله، قاله الإمام الغزالى رحمه الله تعالى.

وقال: قيل فى قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾ يعنى العلم ﴿ وَرِيشًا ﴾ يعنى اليقين ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ﴾ يعنى الحياء [1] أ. هـ .

وروى الشيخان من حديث معاوية رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) وعند الطبرانى فى الكبير بزيادة (ويلهمه رشده) .

وأخرج أبو داود والترمذى وغيرهما من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: (العلماء ورثة الأنبياء) ومعلوم أنه لارتبة فوق رتبة الأنبياء. ولا شرف فوق الوراثة لتلك الرتبة.

وأخرج الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: (خصلتان لا يكونان فى منافق: حسن سمت وفقه فى الدين) أى الفقه الذى يخلق فى صاحبه الخضوع والخشية والتواضع لله عز وجل. وهو ما صحت فيه النية وصدق فيه المقصد. أما الفقه الذى طلبه صاحبه ليتكسب به أو لينال به درجة أو وظيفة. فهذا هو الذى ذكر فى الحديث .

وأخرج الترمذى عن أبى أمامة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: (فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى) حسن صحيح وذلك لأن العالم: علم فعمل بما علم وهذا خير الناس. يقول الإمام الغزالى فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوة. وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التى يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة؟

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة: ١٢٢]

وقال تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣] .

وأخرج مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه. أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) الإحياء: ١ / ١٥ والآية من سورة الأعراف: ٢٦ .

(من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة)

وروى أحمد والحاكم من حديث صفوان بن عسال رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع) .

وروى فى الصحيحين من حديث سهل بن سعد أن النبى ﷺ قال لعلى : (لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها) ورواه أحمد عن معاذ بن جبل وأخرج الترمذى من حديث أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله سبحانه وملائكته وأهل سماواته وأرضه حتى النملة فى جحرها حتى الحوت فى البحر ليصلون على معلم الناس الخير) .

وأخرج مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ وقال : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) .

فهذه النصوص القرآنية وتلك الأحاديث النبوية وغيرها كثير . كلها تبين لنا فى وضوح فضيلة العلم والتعليم والعلماء . لأن العلماء ورثة الأنبياء لأنهم يحملون رسالتهم من بعدهم . والعلماء بهذا تكون مسئوليتهم خطيرة وأمرهم عظيم وآخرتهم رضا العلى الكبير عنهم ومغفرته لهم . إن كانوا قد أدوا الأمانة وبلغوا دعوة نبيهم ﷺ بصدق وإخلاص وقد اتخذوا رسول الله ﷺ أسوة لهم وقدوة يقتدون به فى منهجه صلوات الله وسلامه عليه لذلك نالوا هذا الشرف العظيم وتلك الرتبة العالية . لأن الوارث شرفه من شرف من ورثه . وهؤلاء ورثة المصطفى ﷺ فانعم به من شرف .

* * *

النبى صلى الله عليه وسلم وورثته

عرف العلماء العلم . بأنه : إدراك المعلوم على ماهو به .

فالعلم وصف قائم بالعالم به يدرك حقائق الأشياء . لأن التعرف على الأشياء لا يحصل إلا بعلم ومعرفة . والبشرية لا تستغنى عن العلم فى كل شئون حياتها الدنيوية والأخروية . لذا كان شأن العلم عظيما وأمره خطيرا . ولا يشتغل بالعلم – أيا كان موضوعه – إلا كل إنسان منّ الله عليه بقدرات عقلية ورغبة ملحة فى تحصيل العلوم والمعارف . وبقدر نية العبد وقدرته العقلية ورغبته يمنحه الله تعالى علما ومعرفة .ليخدم أمته دينا ودنيا .

والإسلام قد أشاد بالعلم والعلماء لأنه دين قائم على العلم والمعرفة . كما سبق وقد مكث النبى ﷺ ثلاثا وعشرين سنة يبلغ الناس دعوة الله عز وجل ويعلمهم أحكام الله تعالى – أوامره ونواهيه – فقد كان يلقى على مسامعهم فى كل يوم ما يأمره به الوحى . فكانوا يتلقونه بالقبول فتعياه قلوبهم وتفقهه عقولهم لصدق نياتهم وإخلاصهم فى خدمة دينهم . فعاش ﷺ ومات وهو راض عنهم، والله عز وجل قد كلل رضا نبيه برضاه عنهم رضوان الله عليهم ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾ .

وما هو معلوم ضرورة أن مبايعتهم لله ولرسوله لم تكن مجاملة ولامحاباة وإنما كان مصدرها العلم بالله عز وجل ومعرفة قدر ومنزلة النبى ﷺ لذلك أثنى عليهم معلمهم ﷺ فقال : (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) ثم جاء من بعدهم من العلماء أجيال متتابعة بعضها طيب وبعضها خلط الخير بغيره لتغير مقاصدهم واختلاف نياتهم وتوجهاتهم .

قال الإمام أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى [1] : اعلم أن الخلافة بعد رسول الله ﷺ تولاها الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى . فقهاء فى أحكامه . وكانوا مستقلين بالفتاوى فى الأقضية . فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادرا فى وقائع لايستغنى فيها عن المشاورة . فتفرغ العلماء لعلم

---

(١) إحياء علوم الدين ١ / ٥٥ .

الآخرة وتجردوا لها. وكانوا يتدافعون الفتاوى. ومايتعلق بأحكام الخلق من الدنيا. وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كما نقل من سيرهم. فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام. اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء والى استصحابهم فى جميع أحوالهم لاستفتائهم فى مجارى أحكامهم. وكان قد بقى من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين. ومواظب على سمت علماء السلف. فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح فى طلبهم لتولية القضاء والحكومات.

فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم فاشرأبوا لطلب العلم توصلا الى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة. فاكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة. وتعرفوا إليهم. وطلبوا الولايات والصلات منهم. فمنهم من حرم. ومنهم من أنجح. والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال. فأصبح الفقهاء – بعد أن كانوا مطلوبين – طالبين. وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم. إلا من وفقه الله تعالى فى كل عصر من علماء دين الله. وقد كان أكثر الإقبال فى تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها فى الولايات والحكومات. ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس فى قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها. فعلمت رغبته الى المناظرة والمجادلة فى الكلام. فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف. و رتبوا فيه طرق المجادلات. واستخرجوا فنون المناقضات فى المقالات. وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة. كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين. إشفاقا على خلق الله ونصيحة لهم.

ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض فى الكلام وفتح باب المناظرة فيه. لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد. ومالت نفسه إلى

المناظرة فى الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص فترك الناس الكلام وفنون العلم وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص. وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم. وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى. وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات. وهم مستمرون عليه إلى الآن.

ولسنا ندرى ما الذى يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار؟ .

فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافيات والمناظرات لاغير. ولومالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الائمة أو إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضا معهم. ولم يسكنوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين أ.هـ.

وأقول لإمامنا العلامة: أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى:

ياسيدى: لقد أصبح حال العلماء أسوأ مما ذكرت. وأخبث مما عرفت. لقد نسوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم. ومالوا إلى الدنيا يطلبون متعها وشهواتها لقد نافقوا الله ورسوله طلبا للرياسة أو للشهرة او لجمع المال من هنا أو من هناك. وتنازلوا عن مسئوليتهم الخطيرة.

لقد ضيعوا سنة رسول الله ﷺ. وسالموا أعداء الإسلام وتحدثوا بمنطقهم ووافقوا مقولاتهم.

لقد أنكر الأفاقون من العلمانيين سنة رسول الله ﷺ فى كثير من أبوابها. وعابوا بعض النصوص النبوية التى تتعارض مع هواهم. وردوا أحاديث الشفاعة وكذبوا بها. وعابوا الرسول ﷺ أحيانا وعاب فريق منهم فقه الفقهاء. وطالبوا بتغيير بعض الأحكام بدعوى أنها لا تلائم مطالب العصر. وقالوا إن هذا تنوير ومرونة فى تطبيق أحكام الشريعة وغيره رجعية وتخلفا.

ومال فريق الى الهجوم على علماء الإسلام العاملين الذين أخلصوا العمل وصححوا النية فى معاملة ربهم عز وجل.

وبكل أسف وقف العلماء أمام كل هذه الاتجاهات فى سلبية خطيرة وبعض هؤلاء العلماء ربما وافق بعض وجهات النظر هذه طلبا للشهرة باسم المرونة والتنوير وقالوا للمخلصين من العلماء دعونا مما أنتم فيه من التزمت والتعصب . وحسبوا المحافظة على الإسلام تزمتا وتعصبا وذلك منهم جهل وخيانة للأمانة .

إن فى الساحة على مستوى العالم الإسلامى علماء شرفاء مخلصين . لأن الخير موجود دائما ولن ينقطع . و هذا الفريق من العلماء والدعاة المخلصين محل اتهام ممن لعبت بهم الدنيا بزخرفها وشهواتها وهان عليهم الإسلام ونبى الإسلام، لقد كثرت الفتاوى وتباينت . فبعضهم يفتى برأيه وبعضهم يفتى بالمرجوح فى وجود الرأى الراجح . وبعضهم يفتى بالرأى الضعيف فى وجود الرأى الصحيح والفتوى بذلك باطلة كما صرح به كبار العلماء من أمثال الأئمة النووى والغزالى وابن تيمية وغيرهم .

وظن هؤلاء وأولئك أنهم بهذه الفتاوى متنورون ومرنون يتعاملون مع الإسلام بلغة العصر ولم يعلموا أنهم بذلك قد أهانوا الإسلام وضيعوا السنة . ونسوا الله ورسوله ﷺ .

وأقول – معتذرا – هذا هو موقف العلماء فى عصرنا من الإسلام ونبى الإسلام السواد الأعظم منهم نافقوا إما جهلا وإما سعيا وراء تحصيل متعة زائفة وزائلة، وأما القلة فهم بخير ومازال فى الأمة من العلماء من يغار على دين الله عز وجل وهم واقفون فى خندق الدفاع عن الإسلام وعن نبى الإسلام ضد أعدائه ممن يكيدون له من الخارج أو من أعوانهم فى الداخل . و الله تعالى ناصر أحبابه سيدى يارسول الله : سل الله سبحانه وتعالى أن يهدى علماء الأمة ويأخذ بأيديهم ليبلغوا دعوتك ويعلموا الناس أحكام شريعتك ليعملوا بسنتك اللهم أهدى الحائرين منهم والضالين وانصر المخلصين . واجمعهم كلهم على محبتك ومحبة نبيك ﷺ ومحبة الإسلام ليتحقق فيهم معنى الوراثة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

المراجع الأساسية

١- القرآن الكريم .

٢- صحيح البخارى وشرحه فتح البارى - لابن حجر .

٣- صحيح مسلم بشرح النووى .

٤- سنن الترمذى وشرحه تحفة الأحوذى - المباركفورى .

٥- اللؤلؤ والمرجان - محمد فؤاد عبد الباقى .

٦- مسند الإمام أحمد - الامام احمد بن حنبل .

٧- الشفا بحقوق المصطفى - القاضى عياض .

٨- المواهب اللدنية - القسطلانى .

٩- الروض الأنف - السهيلى .

١٠- تفسير الطبرى - ابن جرير الطبرى .

١١- تفسير الألوسى - الامام الألوسى .

١٢- تفسير الرازى - فخر الدين الرازى .

١٣- الجامع لأحكام القرآن - القرطبى .

١٤- إحياء علوم الدين - الغزالى .

١٥- جواهر البحار - النبهانى .

١٦- شواهد الحق - النبهانى .

١٧- الحاوى للفتاوى - السيوطى .

١٨- الخصائص الكبرى - السيوطى .

١٩- نفس الرحمن السيد اسماعيل بن مهدى الغريانى .

٢٠- الانسان الكامل - عبد الكريم الجبلى.
٢١- محمد الإنسان الكامل - السيد محمد بن علوى المالكى.
٢٢- نشأة العالم وأول خلق الله - د. عبد العزيز أبو مندور.
٢٣- معجزات النبى - د. عبدالحليم محمود.
٢٤- معارج القبول - الشيخ حافظ بن احمد حكمى.
٢٥- مشارق الأنوار - رمضان أحمد عبد ربه عصفور.
٢٦- مطالع النور السنى - الشيخ عبد الله البوسنوى الرومى.
٢٧- محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر - الشيخ على دده البوسنوى الرومى.
٢٨- وفاء الوفا - السمهودى.
٢٩- قضايا إسلامية معاصرة - رمضان أحمد عبد ربه عصفور.
٣٠- المواقف - الأمير عبد القادر الجزائرى.
٣١- أم النبى - د. بنت الشاطئ.
٣٢- شرح المولد النبوى - جعفر البرزنجى.
٣٣- أنوار الأنبياء - د. عبد العزيز أبو مندور.
٣٤- التبصرة - أبو معين النسفى.
٣٥- عيون الأخبار - ابن قتيبة.
٣٦- دلائل الخيرات - الجزولى.
٣٧- نواد الأصول - الترمذى الحكيم.
٣٨- الكمالات الالهية فى الصفات المحمدية - عبد الكريم الجبلى.

* * *

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

رقم الإيداع – ٢٠٠١/٣٣٠٤